منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية سلسلة الأبحاث التاريخية - 16

التاريخ السياسي والحضاري لجبل نفوسة

(في القرنين الثاني والثالث الهجريين)

تأليف : عوض الشرقاوي



مؤسسة تاوالت الثقافية 2011
http://www.tawalt.com/

مقدمة

نظرا لأهمية جبل نفوسة من الوجوه السياسية والحضارية وغيرها منذ اقترانه بالإباضية وخلال هذه الفترة الزمنية بالتحديد فقد وقع اختياري على هذا الموضوع قاصدا إماطة اللثام، وكشف النقاب عن تاريخ واحدة من أهم المناطق التي كانت مسرحا لأحداث هامة من التاريخ الإسلامي المجيد، كما أنه يتضح لنا من خلال البحث والدراسة أن منطقة جبل نفوسة لم تشهد الشرارة الأولى لانتشار الفكر الإباضي في بلاد المغرب فحسب، بل كانت شاهدة على واحدة من ابرز مظاهر النهضة الحضارية، والفكرية، والسياسية العظيمة في عموم شمال إفريقيا.

ولقد لفت انتباهي إلى هذا الموضوع أنه لم تفرد له أي دراسة متخصصة، لذا فقد وجدت صعوبة جمة في الحصول على مادته من ثنايا المصادر والمراجع التاريخية التي كان مجرد الحصول عليها في ذاته عناء كبيراً، مما سأعرض له في موضعه من هذا البحث. لذلك فقد وفقني الله إلى اختيار هذه الفترة الزمنية للبحث تحديدا؛ لأنها من أخصب الفترات التاريخية دراسة وبحثا في هذه المنطقة بدليل أنها كانت المعقل الأساسي لانتشار المذهب الإباضي، وتأثيره السياسي والحضاري في بلاد المغرب خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري وما بعده.

وعلى الرغم من اتساع رقعة المذهب الإباضي في البصرة والعراق، وغيرها بيد أن التجليات الحضارية، والسياسية للإباضية لم تتحقق بهذا الشكل الكبير من الثراء والفاعلية مثلما تحققت بمنطقة جبل نفوسة، وما حولها، ولا سيما إباضية تاهرت.

وبالنظر إلى المعطيات السياسية والحضارية، توافرت مبررات وأهميات دافعة بكل قوة لخوض غمار هذا البحث. ولقد كان المنهج العلمي من حيث المقارنة واستنباط الحقائق: وهو المنهج الذي اتبعته في دراستي هذه، وذلك من خلال الاعتماد على الوثائق التاريخية في هذه الفترة، والمصادر العربية وبوجه عام فقد انصب جهدي في هذا البحث باتجاه تناول المحاور الآتية: مقدمة وتمهيد وأربعة فصول، وخاتمة.

أما المقدمة: فقد عرضت فيها دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في البحث.

التمهيد: وفيه تناولت أصل وتسمية جبل نفوسة، فضلا عم الخصائص الجغرافية للجبل، ثم عرضت لإطلالة تاريخية على جبل نفوسة قبل الفتح الإسلامي ثم الفتح الإسلامي، كما اتبعتها بالحديث عن الجذور التاريخية للفرقة الإباضية.

الفصل الأول: يدور حول عسف الولاة الأمويين بالبربر عموما حيث فرضوا الجزية على من اسلم منهم، فضلا عن ابتزاز أموالهم، وإرسال نسائهم قسرا كهدايا إلى بيت الخلافة في الشام. وهو ما تأثر به بربر جبل نفوسة نتيجة لخضوعهم لنفس الولاة. فأثر ذلك على تسهيل عملية انتشار المذهب الإباضي بجبل نفوسة بداية من أوائل القرن الثاني الهجري على يد الداعي سلمة بن سعد احد تلاميذ الفقيه الإباضي في البصرة آنذاك أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي.

وكان من البديهي أن يتصدى الولاة الأمويون لأي مذاهب جديدة رافضة لحكمهم الاستبدادي، وهو ما عجل بثورات إباضية جبل نفوسة، وضواحي طرابلس قبل أن يتهيئوا لها، أو تتوافر الظروف المناسبة التي تساعد على إنجاحها. فكان أولها ثورة عبد الله بن مسعود التجيبي ثم تلاها ثورة الحارث ابن تليد، وعبد الجبار بن قيس ثم ثورة إسماعيل بن زياد النفوسي، ولكنها منيت بالفشل ولقي قادتها حتفهم على أيدي الولاة الأمويين، ومع ذلك فقد كللت هذه الهزائم بنجاح الإباضية في تأسيس أول إمامة إباضية ببلاد المغرب في جبل نفوسة على يد أبي الخطاب بن السمح المعافري سنة 140هـ/757م حيث اتسع نفوذ الإباضية، فصارت طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس، ومن البحر شمالا إلى الصحراء الكبرى بما فيها فزان منضوية تحت إمامة أبي الخطاب المعافري وهو ما أثار مخاوف العباسيين في ذلك الوقت، فأرسلوا إليه احد قادتهم المهرة: محمد بن الأشعث، الذي استطاع أن يقضي على إمامة أبي الخطاب في موضع "ورداسة" بشرق طرابلس سنة 144هـ/761م.

الفصل الثاني: وقد تناولت فيه اندلاع ثورة إباضية جبل نفوسة، وضواحي طرابلس تحت إمامة أبي حاتم الملزوزي سنة 154هـ/771م، بعد مقتل أبي الخطاب المعافري، حيث استطاع أبو حاتم الاستيلاء على طرابلس طاردا واليها من قبل العباسيين عمر بن حفص ألمهلبي إلى قابس، فأدى ذلك إلى اتحاد الإباضية والصفرية لأول مرة في حصار مدينة طبنة، مما جعل عمر بن حفص يلجأ إلى الحيلة، والخداع لإثارة الفرقة بين الإباضية

والصفرية عن طريق إغراء الصفرية بالأموال، مما أدى في النهاية إلى رفع الحصار عن طبنة، في حين اتجه أبو حاتم الملزوزي إلى القيروان محاولا احتلالها، وتشديد الحصار عليها حتى أكل أهلها الكلاب، والميتة، وهو ما جعلهم يسأمون الحصار، ويتدافعون للقتال تحت إمرة عمر بن حفص حتى قتلوا سوى قليل منهم، فاستولى أبو حاتم على القيروان وازداد نفوذ إباضية جبل نفوسة تحت إمامة أبي حاتم في افريقية، مما جعل الخليفة العباسي المنصور يرسل إلى الإباضية يزيد بن حاتم ألمهلبي، وهو يعلم أنه قد رمى أبا حاتم الإباضي بأكبر جيوشه الجرارة، مما نجم عنه مقتل أبي حاتم وأصحابه في إحدى المعارك بجبل نفوسة سنة 155هـ/771م، وبذلك تصدعت الإباضية في المغرب الأدنى وإفريقية، ولقد انتقلت قيادة الحركة الثورية من إباضية جبل نفوسة إلى إباضية تاهرت حيث يتضح دور إباضية جبل نفوسة في تدعيم الدولة الإباضية الرستمية، الناشئة بتاهرت في كافة النواحي الإدارية، والفكرية، والحربية خاصة عندما استعان بهم الإمام عبد الوهاب بن رستم في حروبه مع الواصلية، فضلا عن إقامة الإمام عبد الوهاب بجبل نفوسة سبع سنوات استقرت فيها الأمور، ولم يعكر صفوها سوى حربه مع الأغالبة سنة 196هـ/811م التي انتهت بعقد صلح فيما بينهما.

الفصل الثالث: وقد سلطت فيه الضوء على بعض الفرق الخارجة عن ولاة جبل نفوسة التابعين للإمامة الإباضية في تاهرت، تلك الفرق التي لم تعترف بإمامة الرستميين كالفرقة الخلفية التي خرجت عن إمامة عبد الوهاب بن رستم وولده افلح بن عبد الوهاب، الأمر الذي تسبب في حروب كثيرة بجبل نفوسة أبرزها موقعة (جناون) سنة 221هـ/836م أثناء ولاية أبي عبيد الجناوني، ثم تلتها موقعة "فاغيس" إحدى مواضع جبل نفوسة وقراره أثناء ولاية العباس بن أيوب الذي انتصر عليهم، وانتهت بوفاة زعيم الخلفية خلف بن السمح المعافري، وفرار أتباعه تحت إمرة ولده الطيب بن خلف إلى جزيرة جربة.

كما أفردت في هذا الفصل جانبا أوضحت فيه أهمية إباضية جبل نفوسة لدى الأغالبة حينما استعانوا بهم في القضاء على أقوى ثوراتهم متمثلة في ثورة منصور الطنبذي سنة 210هـ/825م ثم أشرت إلى ظهور فرقة النفاثية بجبل نفوسة التي انتسبت إلى نفاث بن نصر النفوسي احد علماء إباضية الجبل الذي خرج على الإمام افلح بن عبد الوهاب نتيجة لعدم توليته على قنطرارة التابعة لجبل نفوسة، ولكن سرعان ما انتهت فتنة النفاثية بفرار نفاث بن نصر إلى بغداد واستقراره بها مدة من الزمن، فتشتت أنصاره، وانتهت حركته.

ثم تحدثت عن دور إباضية جبل نفوسة تحت ولاية أبي منصور إلياس النفوسي في إعادة الإمام أبي اليقظان بن افلح على تاهرت، ثم دورهم في التصدي لحملة العباس بن طولون على افريقية سنة 267هـ/880م، ودورهم في قطع دابر الخلفية في جزيرة جربة أبان موقعة فاغيس، وسنجد زعيمهم آنذاك الطيب بن خلف بجبل نفوسة، ثم أعقب كل ذلك موقعة مانو سنة 283هـ/896م بين إباضية جبل نفوسة والأغالبة حيث أسفرت عن هزيمة الإباضية، وضعفهم بجل نفوسة مما كان نذيرا بانتهاء إباضية تاهرت لما كان لدور إباضية جبل نفوسة في حياة تاهرت، والغزو الفاطمي لها سنة 296هـ/908م.

الفصل الرابع: وقد خصصته للجانب الحضاري لإباضية جبل نفوسة من حياة اقتصادية شملت الزراعة بأهم محاصيلها كالحبوب والفواكه والزيتون هذا فضلا عن أهم الصناعات المترتبة على الزراعة مثل: صناعة استخراج الزيت ودباغة الجلود ومشتقات الألبان، بالإضافة إلى صناعة النسيج والصباغة وصناعة الأخشاب وغيرها من الصناعات الأخرى مثل عسل النحل واستخراجه، وهذا وكان لازدهار الزراعة والصناعة بجبل نفوسة أثر كبير في وجود حركة تجارية لبيع هذه السلع في الأسواق الداخلية والخارجية، وهو ما أثر بالإيجاب في اقتصاد إباضية جبل نفوسة، وتناولت كذلك في هذا الفصل أهم التنظيمات الاقتصادية لإباضية جبل نفوسة مثل: نظام ملكية الأرض وبيت المال، وأهم مكاييل إباضية الجبل فضلا عن النقود والحسبة، وهذا بالإضافة إلى إيضاح مستوى معيشتهم، ثم تطرقت إلى إبراز أهمية الجانب الفكري في حياة إباضية جبل نفوسة، وأثرهم في تاهرت بصفة خاصة وبلاد المغرب بصفة عامة، وهو ما ترتب عليه وجود مؤسسات تعليمية أهمها الكتاب أو المنزل والمسجد والمكتبات الخاصة بالجبل، وهذا بالإضافة لأهم العلوم لديهم مثل التفسير والحديث والفقه والطب والمناظرات وأهم علمائهم.

كما أفردت في هذا الفصل جانبا أوضحت فيه أهمية اللغة العربية إلى جانب اللغة البربرية بجبل نفوسة، خاصة في التعليم والمكاتبات والأعمال الأدبية والفكرية.

ثم تحدثت عن دور المرأة النفوسية في الحياة الفكرية، وإبراز أهم العلاقات الثقافية بين إباضية جبل نفوسة وبين كل من بلاد المشرق والمغرب والأندلس.

عرض لأهم مصادر ومراجع البحث ونقدها

أولا المصادر المخطوطة:

<u>أ - البغطوري مقرين بن محمد (كان حيا حتى نهاية ق 6هـ)</u>

سيرة أهل نفوسة، مخطوط بمكتبة الشيخ احمد الفساطوي، منسوخ في جزيرة جربة، تونس، بدون رقم.

يعتبر هذا المصدر من أهم المصادر التي اعتمدت عليها لإتمام هذا البحث نظرا لما يحتويه الكتاب من مادة تاريخية متخصصة في هذه الدراسة، وهو ما يتبين من اسمه التي احتوى على دراسة شاملة لسيرة أهل نفوسة وطن المؤلف المنتسب إلى "بغطورة" إحدى قرى جبل نفوسة، ولولا هذا الكتاب ما توصلنا إلى توثيق بعض الحقائق التاريخية الهامة لهذا البحث.

لذا فنظرا لأهمية هذا الكتاب فقد تكبدنا صعوبة الحصول عليه؛ لعدم وجوده بخزانة مخطوطات دار الكتب المصرية، ومع ذلك فما أن نما إلى علمنا أن هذا الكتاب موجود في مكتبة خاصة لأحد شيوخ الإباضية يدعى احمد مسعود الفساطوي النفوسي الأصل، وحاولنا الحصول عليه، بعد محاولات مضنية. ولولا علمه بموضوع بحثنا وأنه يبرز جانبا هاما من تاريخ وطنه الأصلي بجبل نفوسة ما استطعنا الحصول عليه. وعلى الرغم مما سبق فإن هذا المخطوط القيم يندر وجوده على حد علمنا في قائمة مصادر باحثي التاريخ الإباضي لأي منطقة من المناطق.

وبذلك تيقنا مما قاله باحث محدث: "فقد خلف الإباضية تراثا ضخما في التاريخ والسير والعقائد ولكن القسم الأعظم لا يزال مخطوطا ومحفوظا في دور كتب خاصة يملكها أتباع الفرقة في عمان وزنجبار وشمال افريقية ومن الصعب الوصول إليها".[1]

ورغم غلبة الطابع المنقبي المتمثل في الكرامات والأخبار الأسطورية على مؤلف هذا الكتاب فضلا عن استخدامات ألفاظه مثل "روى، وقيل وبلغنا، وذكروا" إلا أن رواياته هذه

1 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، بدون دار نشر، عمان، 1987م.

قد تكون مأخوذة عن مصادر قديمة عاصر أصحابها الأحداث. أضف إلى ذلك قرب المؤلف نفسه لفترة الدراسة. مما جعله يهتم بالتحديد المكانة للأحداث وضبطها من الناحية الزمنية. مما يعطيها طابع التاريخ السياسي الجاد.

كما يمكن وضع الكتاب ضمن كتب الفقه الإباضي لما أورده من فتاوى لمعظم مشايخ إباضية جبل نفوسة فضلا عما ترجم له من المواضع الجغرافية بالجبل. وما جاورها من أماكن تخص موضوع الرسالة. هذا ولقد اتضحت أهمية هذا الكتاب سياسيا وحضاريا. أضف إلى ذلك إبرازه لأهم علاقات إباضية جبل نفوسة مع إباضية المشرق والمغرب.

ب- الوسياني (الربيع بن عبد السلام (ت 471هـ/1078م)

- سير أبي الربيع بن عبد السلام الوسياني. مخطوط بدار الكتب المصرية. رقم 9113ح.

كتاب السير للوسياني نوع من أنواع كتب الطبقات. فهو إذا من النوع القصصي رغم اجتهاد المؤلف في تحري الصحة. ويمكن أن يوضع الكتاب أيضا ضمن كتب الفقه الإباضي. لان من أهدافه التعريف بقواعد الفقه الإباضي من اجل تنظيم حياة الناس العامة والخاصة. فضلا عما أورده لنا الكتاب من فتاوى مشايخ الإباضية منذ قيام الدولة الرستمية. وحتى أيامه.

هذا بالإضافة إلى أهمية الكتاب من حيث التعريف بالرجال. والمواضيع الجغرافية بجبل نفوسة. وغيره من الواضع المجاورة له. كما أنه لاحتوائه على معلومات مفيدة لدراسة المجتمع الإباضي بجبل نفوسة فقد أفاد دراستنا على المستوى الاقتصادي. والاجتماعي. والديني. فضلا عما تعرض له في التاريخ السياسي عن بعض الصراعات المحلية والداخلية بالجبل وإظهار العلاقة بين إباضية تاهرت. وغيرهم من إباضية المشرق.

ثانيا – المصادر المطبوعة:

1 - المصادر الإباضية

أ- أبو زكريا (أبو زكريا يحي بن أبي بكر الوارجلاني (ت في النصف الثاني من ق 4هـ).

- سير الأئمة وأخبارهم المعروف "بتاريخ أبي زكريا". تحقيق إسماعيل العربي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. 1982م.

عاش أبو زكريا في وارجلان عقب سقوط الإمامة الرستمية بتاهرت على يد الفاطميين

سنة 296هـ/908م. ومن المحتمل أنه عاصر آخر أيامها الأمر الذي جعله يسهب في كتابه عن تاريخ الدولة الرستمية. ويبدو أنه وضع كتابه أساسا لهذا الغرض الذي يحمل في ثنايا كتاباته مادة جيدة عن إباضية جبل نفوسة فترة البحث. لذا يعتبر هذا المصدر من أقدم كتب السير الإباضية التي وصلتنا من شمال افريقية. فقد اعتمد عليه كثير من المؤلفين المتأخرين مثل الدرجيني والشماخي.

ومع ذلك فإنه يمدنا بمادة يسيرة عن علاقات التنظيم الإباضي في البصرة بالدعاة في جبل نفوسة. أضف إلى ذلك إكثاره من الأساطير. والكرامات المنسوبة إلى الأئمة والمشايخ الإباضية في المشرق والمغرب. ومع ذلك تعتبر سيرة أبي زكريا مصدرا أساسيا وهاما عن تاريخ الفرقة الإباضية في جبل نفوسة خاصة على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والفكري. فضلا عما تناوله عن إباضية تاهرت وعلاقتهم بإباضية جبل نفوسة.

ب- الدرجيني (أبو العباس احمد بن سعيد بن يخلف (ت في ق 7هـ)

- طبقات المشايخ بالمغرب. المعروف "بطبقات الإباضية". تحقيق إبراهيم طلاي. البليدة. الجزائر. 1974م.

والدرجيني يسير في كتابه على نفس نهج أبي زكريا. فينقله ويضيف إليه إضافات من عنده. ومع ذلك يظهر في كتاباته بعض الكرامات الأسطورية التي كانت معروفة منذ زمن المؤلف. إلا أنها لا تقلل من أهمية الكتاب واستفادتنا منه فترة الدراسة على المستوى السياسي. والاقتصادي. والفكري. والاجتماعي. فضلا عن ترجمته المتميزة لسير علماء المذهب الإباضي الذي كانت أكثرهم خاصة بإباضية جبل نفوسة وتاهرت والمشرق حسب طبقاتهم جيلا بعد جيل. وهو ما سهل علينا دراسة هذا الكتاب والنهل منه.

كما يضيف الدرجيني مادة تاريخية عن الحركة الإباضية بجبل نفوسة وبداية انتشار المذهب بالجبل ثم وضح علاقاتهم التجارية مع بلاد السودان وغيرها من أقطار العالم الإسلامي مشرقا ومغربا.

جـ- الشماخي (أبو العباس احمد بن عثمان سعيد بن عبد الواحد (ت 928هـ/1521 – 1522م)

- السير. تحقيق. احمد السيابي. وزارة التراث القومي والثقافي. عمان. 1987م وباعتباره نفوسيا من يفرن. تناول الشماخي في كتابه هذا سيرة علماء إباضية جبل

نفوسة وتاهرت منذ بداية دخول المذهب الإباضي بجبل نفوسة حتى عصره. ولذلك كانت الاستفادة كبيرة من هذا الكتاب لما أورده لنا عن الثورات الإباضية الأولى بجبل نفوسة، وضواحي طرابلس فضلا عن أهميته على المستوى الديني والفكري والاجتماعي والاقتصادي خاصة الزراعية والتجارة معتمدا في ذلك على مصادر قديمة منها مقرين بن محمد البغطوري، وابن سلام وأبي زكريا، والربيع من حبيب، والسوفي، والرقيق، وابن الصغير. لذا اتبع الشماخي طريقة مغايرة عن سابقيه أبرزهم الدرجيني إذ جعل طبقاته فيما يخص علماء وإحداث الدولة الرستمية مقترنا بأحداث إباضية جبل نفوسة وكل طبقة تتبع إمام من أئمة الرستميين. أي إذا جاءت طبقة الإمام عبد الوهاب بن رستم ذكر كل من عاصره من مشايخ إباضية جبل نفوسة والواقع أن منهج الدرجيني المعتمد في طبقاته أكثر دقة، واضبط رواية من الشماخي وإن كان الأسلوبان يتكاملان في عدة مناسبات ومع ذلك فقد كان لعلم الشماخي بأصول الفقه الإباضي فضلا عن معرفته لتاريخ ظهور المذهب بالمغرب ما جعله ينتخب رواياته من كتب السابقين-مثل ابن الصغير وأبي زكريا بصورة متميزة طرحا وعرضا. وحتى تلك التي تتسم بالطابع الأسطوري، يعرضها عرضا مقبولا لا يجافي العقل وسلامة الحس.

<u>د - النفوسي (سليمان بن الشيخ عبد الله الباروني (ت 1359هـ/1940م)</u>

- الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق محمد صليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1987م.

لقد اطلعنا على مجلد القسم الثاني من الكتاب وهو الخاص بمدينة تاهرت وأئمة بني رستم التي تناول في ثناياه حقائق تاريخية هامة عن ظهور بعض لفرق الإباضية الخارجية بجبل نفوسة عن أئمة تاهرت كالفرقة الخلفية والنفاثية، فضلا عن اهتمام المؤلف بتوثيق روايته برسائل الأئمة إلى عمالهم ورعاياهم، خاصة بين إباضية تاهرت وإباضية حبل نفوسة، هذا بالإضافة إلى توضيح العلاقات بين إباضية المشرق والمغرب عن طريق الرسائل المتبادلة بينهم. وهو ما أعطى الكتاب قيمة وثائقية كبيرة. كما برزت أهميته في الجانب الحضاري من دراسة البحث، فضلا عن جانبه السياسي.

ولقد أدرج معظم الباحثين هذا الكتاب ضمن قائمة المصادر القديمة نظرا لأسلوب طرحه، وأسلوب كتابته، والمصادر التي اعتمد عليها خاصة الإباضية كابي زكريا، والدرجيني، والشماخي.

2 - المصادر العامة:

<u>أ- ابن الأثير (عز الدين بن محمد (ت سنة 630هـ/1232م).</u>

- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965م.

اعتمد ابن الأثير في مادته التاريخية على مصادر قديمة، منها: الرقيق، ومحمد بن يوسف الوراق، والبكري، وبرغم اعتبار ابن الأثير مؤلفا موهوبا ومحققا جديرا بالثقة، فقد جاءت أهمية كتابه على الصعيد المشرقي والمغربي، وظهرت أهميته المغربية جليا فيما تعرض له من أحداث سياسية هامة لائمة إباضية جبل نفوسة قبل تبعيتها للدولة الرستمية بتاهرت ثم تطرق لبعض ولاته عقب تبعيته لإباضية تاهرت.

كما جاءت أهمية هذا الكتاب على وجه الخصوص في موضوع البحث، ما ذكره ابن الأثير عن أهم ثورات إباضية جبل نفوسة وضواحي طرابلس في القرن الثاني الهجري ضد الأمويين في أواخر أيامهم، وبداية أيام العباسيين.

<u>ب - ابن الصغير المالكي (ت أواخر ق 3هـ)</u>

- أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق د. محمد ناصر وآخرون، بدون دار نشر، الجزائر، 1985م.

هو مؤرخ مالكي من أهل تاهرت دون كتابه أواخر أيام الرستميين أي حوالي سنة 290هـ/902م، وبذلك يكون ابن الصغير معاصرا للأحداث، فضلا عن أنه في موقف يسمح له بالكتابة بإنصاف إذ جمع بين حبه لبلده تاهرت، وعدم التحيز لائمتها الإباضية بصفته مالكيا، ولا يعيب كتاب ابن الصغير سوى أنه تاريخ قصصي، وليس تاريخا سياسيا بالمعنى المطلوب، فهو يعتمد على الروايات الشفوية التي يسمعها من الإباضية عن الأحداث الخاصة بالائمة منذ تأسيس الإمامة الرستمية في تاهرت، ومع ذلك فقد انفرد ابن الصغير عن غيره من المؤرخين بمعلومات ثمينة لا نجدها عند غيره من كتاب الإباضية، فلقد أفاد هذا الكتاب موضوع بحثي عن أهمية القضاء في جبل نفوسة، فضلا عن علاقة إباضية جبل نفوسة بتاهرت في بعض الأحيان، ودورهم السياسي بها.

<u>جـ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)</u>

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تعليق تركي فرحان، دار إحياء التراث، بيروت -لبنان، 1999م.

يعتبر ابن خلدون من أعظم مؤرخي العالم الإسلامي حيث حوت موسوعة العبر

بين طياتها أخبار العالم الإسلامي مشرقا ومغربا. فضلا عما أمدنا به هذا الكتاب من معلومات تاريخية هامة فترة الدراسة، وقبلها وبالذات عن أنساب البربر، وعوائدهم، وتقاليدهم، وتاريخهم قبل الإسلام وبعده. لذا لا يعتبر هذا الكتاب مهما بالنسبة للفترة المعاصرة له فحسب؛ بل لأقدم عصور المغرب الإسلامي، بالإضافة إلى اعتماده على مؤرخين قدامى مثل: ابن رشيق، وابن الرقيق، وابن عذارى، والمسعودي، وغيرهم. أما ما إستفدناه تحديدا من هذا المصدر حول فترة دراستنا عن نسب قبيلة نفوسة بشيء من التفصيل، وبطونها المتشعبة منها مثل ماطوسة، وزمور، ومكسور. فضلا عن بعض الثورات الإباضية الأولى في منطقة جبل نفوسة.

د - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث المصري (ت 257هـ/870م)

- فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1961م.

اعتمدت مصادر ابن عبد الحكم إلى حد كبير على الرواية الشفوية التي يتناقلها الرواة، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، بل اتبع المؤلف في كتابه بصفة عامة ذكر الرواية وإسنادها الكامل دون تعرض إلى مناقشة مصادرها الشفوية، فضلا عما أورده من القصص الشائع والأساطير، كذلك اعتمد المؤلف على معلومات من الأصول الأولى للتاريخ الإسلامي، وتتمثل هذه المعلومات من مخطوطات يحي بن عبد الله بن بكير، وفيما كتبه الواقدي، وابن لهيعة الذين توفيا قبل مولد المؤلف، وتأتي أهمية كتاب ابن عبد الحكم قبل فترة الدراسة وأثنائها وبعدها، لما أورده المؤلف من معلومات تاريخية عن قبيلة نفوسة قبل الفتح الإسلامي ومواقعها الجغرافية، ثم الفتح الإسلامي لها، فضلا عن ذكر عسف الولاة الأمويين بالبربر؛ مما تمخض عنه ثورات إباضية في منطقة جبل نفوسة وغيرها في النصف الأول من القرن الثاني الهجري.

هـ - ابن عذارى المراكشي (ت في ق 7هـ)

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان واليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت - لبنان د.ت

يعتبر كتاب البيان المغرب لابن عذارى من أهم المصادر التاريخية التي اعتمدت عليها في موضوع بحثي، نظرا لقيمته التاريخية العالية التي تحتوي على روايات قدامى المؤرخين من المغاربة، والأندلسيين التي لم تصل إلينا، التي يحرص على ذكر أصحابها

في كل مناسبة ومع ذلك فقد جاءت بعض أحداث الكتاب مختصرة جدا، إلا أنه لم يقلل من مكانته بين المصادر التي اعتمدت عليها.

ولقد أمدني هذا الكتاب بمادة تاريخية جيدة خاصة في بداية دراستي، لما تناوله من ثورات الإباضية في جبل نفوسة، وضواحي طرابلس، فضلا عن اشتراك الإباضية، والصفرية لأول مرة في حصار طبنة، ثم حصار الإباضية بمفردهم تحت إمامة أبي حاتم الملزوزي للقيروان ثم مقتله سنة 155هـ/771م على يد يزيد بن حاتم المهلبي.

و - الرقيق (إبراهيم بن القاسم المشهور بالرقيق القيرواني (ت في ق 5هـ)

- تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، مطبعة الوسط، تونس، 1968م.

ينتسب الرقيق إلى مدينة القيروان لذا لقب بالقيرواني، ويعتبر أشهر مؤرخي افريقية والقيروان ولقد جمع الرقيق إلى جانب العناية بالتاريخ حب الأدب، وهواية الشعر، والسمر، وكتاب الرقيق لم يصل إلينا كاملا، وإنما وجدت قطعة من تاريخ المغرب المبكر يرجح أنها بعض الكتاب، أو أنها نقلت من بعض كتب الرقيق، وهذه القطعة التي تبدأ من أواسط القرن الأول الهجري، وتنتهي إلى أواخر القرن الثاني الهجري، حيث تناولت في طياتها جور الولاة الأمويين على رعاياهم من البربر وإساءتهم، وأثر ذلك على قيام ثورات إباضية في جبل نفوسة، وبلاد المغرب، ثم تناول إمامة أبي الخطاب المعافري الإباضي، وخطته في فتح طرابلس، وما جرى في افريقية من أحداث.

ز - النويري (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت سنة 736هـ/1331م)

- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م.

رغم نقل هذا المؤلف الكثير من رواياته عن ابن الأثير إلا أنه زاد عليه في كتاباته مما جاء كتابه هذا موسوعة عامة في الأدب والجغرافيا والتاريخ والاجتماع.

ولقد خصص النويري الجزء الرابع والعشرين من أجزائه لتاريخ المغرب والأندلس من الفتح العربي حتى أيامه، وهو ما إستفدته في موضوع البحث خاصة في الفترة الزمنية الأولى، لما تناوله لأهم ثورات الإباضية في جبل نفوسة، وضواحي طرابلس، فضلا عن الأحداث السياسية الهامة التي ذكرها مرتبطة ارتباطا وثيقا بموضوع البحث، أضف إلى ذلك ما أشار إليه عن تعريف لبعض المواقع الجغرافية المجاورة لجبل نفوسة.

3 - المصادر الجغرافية:

أ- البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م)

- المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت

رغم الصفة العلمية الدقيقة التي تغلب على معلومات البكري، إلا انه تناول بعض المعلومات ذات الطابع الخرافي الأسطوري، إلى جانب بعض المعلومات التاريخية الأساسية الخاطئة التي اقتبسها دون أن يعرضها للنقد، مما كان موضع ملاحظة من المتأخرين الذين نقلوا عنه كابن خلدون، والتجاني، وابن عذاري، والإدريسي، ومع ذلك، فلقد احتوى هذا الكتاب معلومات دقيقة جدا وقيمة عن الطرق والمسالك التي لا يحتمل أن تكون وليدة المشاهدة الشخصية، حيث اعتمد عليها من نقله لبعض الكتب القديمة التي كانت موجودة قبل الإسلام.

ولقد أفادني البكري بصفة خاصة في هذا الكتاب عن وصف دقيق لمسالك جبل نفوسة خاصة في تجارته مع السودان، وهو ما اعتمدت عليه بصورة كبيرة في موضوع بحثي، فضلا عن تحديد المواقع الجغرافية لبلاد المغرب والقريبة من جبل نفوسة.

ب - الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله عبد المنعم (ت 833هـ/1461م)

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د.إحسان عباس، دار السراج، بيروت.

يعتبر كتاب الحميري من أهم الكتب الجغرافية التي اعتمدت عليها في دراستي، نظرا لترجمته الكثير من المدن المغربية، فضلا عن تعريف بعض المواقع المبهمة أو التي تتعرض لها المصادر السابقة، أضف إلى ذلك سهولة عملية البحث الجغرافي في هذا الكتاب لوجود كشاف للمدن والأماكن المختلفة، كما أمدنا هذا الكتاب ببعض المعلومات التاريخية عن قبيلة نفوسة، وما جاورها من قبائل، ولذلك نستطيع القول أن هذا المصدر جاء موسوعة شاملة للأحداث التاريخية والجغرافية من كونه مصدر جغرافي فحسب.

جـ - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 284هـ/897م)

البلدان، مطبعة بريل، لندن 1860م.

لقد كان لمكانة كتاب البلدان لليعقوبي، أهمية خاصة بين كتب الجغرافية لتي اعتمدت عليها فترة الدراسة نظرا لمعاصرته تلك الفترة، ولا يستبعد أن يكون اليعقوبي قد زار منطقة جبل نفوسة لما أورده عنها من معلومات جغرافية، وتاريخية دقيقة جدا

لا يستطيع أي جغرافي أن يبرزها إلا إذا كان قد عايشها بالفعل، فلقد قدم معلومات دقيقة حول طبيعة جبل نفوسة الزراعة، والعمرانية، والسكانية، واللغوية، والمذهبية، هذا بالإضافة إلى ما أورده عن بعض ولاة الجبل مثل أبي منصور إلياس النفوسي.

ثالثا: المراجع العربية:

أ - إبراهيم بكير: الدولة الرستمية أوضاعها الاقتصادية والفكرية، بدون دار نشر، بغداد، 1983م.

تتضح أهمية هذا الكتاب في دراستي من خلال عنوانه، فرغم انه تحدث عن الأوضاع الاقتصادية والفكرية للدولة الرستمية، إلا أنه تناول قدرا كبيرا من هذه الأوضاع لإباضية جبل نفوسة على اعتباره احد ولايات الدولة الرستمية وأهمها، لذلك جاءت استفادتي من هذا الكتاب على وجه الخصوص في الجانب الحضاري استفادة كبيرة، ساعدتني على إنجاز هذا البحث خاصة من جانبه الحضاري وهو ما سهل علي عملية الدراسة.

ب - السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

ولم يكن كتاب المغرب الكبير استفادة لباحث بعينه، وإنما جاءت الاستفادة منه لأي باحث في تاريخ المغرب نظرا لأهميته على الجانب السياسي والحضاري.

ولقد استفاد الباحث من إشارته الواضحة لبداية ظهور المذهب الإباضي في بلاد المغرب خاصة في جبل نفوسة، كما جاءت أهميته أيضا لما افرده مؤلفه عن الدولة الرستمية الإباضية، والذي تناول في ثنايا عرضه لأحداثها بعضا من التاريخ السياسي والحضاري لها، والذي اتضح فيه دور إباضية جبل نفوسة على اعتباره أهم ولايات الدولة الرستمية الإباضية.

ح - تادايوس ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، دراسة لسنيه في الانوميا والطوبونوميا الأمازيغية، ترجمة عبد الله زارو، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، د.ت.

برزت أهمية هذا الكتاب من خلال عرضه لقائمة من الشخصيات الإباضية المشهورة ما بين القرن الثاني والسادس الهجريين المنحدرة من جبل نفوسة، هذا بالإضافة إلى اهتمام المؤلف البالغ بتحديد دقيق لجغرافية معظم قرى جبل نفوسة وهو ما أفاد موضوع البحث، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت دراسته متغاضية عن ترجمة لبعض

قرى الجبل وتحديد أماكنها مثل "قرية تيمتي النفوسية"، كما جاءت في بعضها مختصرة لبعض مشائخ الجبل الذي تعرض لهم في الفترة المذكورة رغم تحليل المصادر الإباضية لهم آنذاك، مثل "عبد الله بن الخير: احد علماء جبل نفوسة والقائم بشئونهم الإدارية والقضائية عقب موقعة مانو الشهيرة 283هـ/896م ومع ذلك فهذا لا يقلل من قيمة الكتاب التاريخية على المستوى السياسي والحضاري لإباضية جبل نفوسة لاعتماد مؤلفه على وثيقة لكاتب مجهول قارن فيها مؤلف الكتاب بين ما جاء بالوثيقة وما ذكره أبو زكريا والدرجيني والشماخي في مؤلفاتهم وغيرهم من المؤلفات الإباضية القديمة، مما كبدني مشقة كبيرة في الحصول عليه من مؤسسة تاوالت الثقافية عن طريق احد الأصدقاء العاملين بها.

د - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب)، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م.

يعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع التي اعتمدت عليها خلال دراستي خاصة الجزء الأول والثاني منها لما تناوله في الجزء الأول من ثورات الإباضية الأول في جبل نفوسة، وضواحي طرابلس، فضلا عن إبراز دورهم في الصراع مع المهالبة أثناء حصارهم لطبنة.

وفي الجزء الثاني ابرز سعد زغلول دور إباضية جبل نفوسة في صفحات خاصة بهم من ورقات هذا الجزء، لذا فقد ناقش أحداث تاريخية هامة فترة البحث.

هـ - علي يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ، مكتبة وهبه، القاهرة، 1964م.

تأتي أهمية هذا الكتاب فيما أورده مؤلفه، من تراجم وافية لعلماء ومشايخ جبل نفوسة، كل حسب طبقتهم التي ينتمون إليها ناقلا من مصادر قديمة مثل أبي زكريا، والدرجيني، والشماخي، ومع ذلك فإن كتاباته في بعض الأحيان قد تخرج عن الطابع التاريخي لها نظرا لتدخلاته الخارجة عما قصده في حديثه أثناء سرده لبعض الحوادث التاريخية، هذا بالإضافة إلى كثرة استخدامه الكرامات وبعض الروايات الأسطورية لإباضية جبل نفوسة. ومع ذلك فهذا لا يقلل من قيمة الكتاب التاريخية فضلا عن أهميته كمرجع جغرافي هام عن مدن وقرى جبل نفوسة التي لم يتعرض لها احد مثله على اعتبار أن جبل نفوسة موطنه مما أفاد دراستي.

و - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، بدون دار نشر، عمان 1978م.

لقد برزت أهمية هذا الكتاب أثناء عرضه المتميز لبعض رواد الفرقة الإباضية الأول،

والذين كان لهم دور كبير في نشره ببلاد المغرب، وخاصة في منطقة جبل نفوسة عن طريق دعاتهم وتلاميذهم الذين وجهوهم إلى هذه المناطق، فضلا عما أوضحه عن بعض العلاقات المذهبية بين إباضية المغرب والمشرق، بالإضافة إلى تعرضه لجذور الحركة الإباضية منذ بدايتها حتى تأسيسها للإمامة الإباضية، سواءا في المغرب أو المشرق، وهو ما أفادني في موضوع بحثي ولذلك يعتبر الباحث من ابرز من تحدثوا عن نشأة الحركة الإباضية وأثارها السياسية خاصة في بلاد المغرب.

ز - محمد حسن: حول إحدى القبائل البربرية: "نفوسة فضاؤها الجغرافي وعلاقتها بالسلطة المركزية"، مقال ضمن مجلة أوراق، المعهد الثقافي الاسباني العربي، 1982-1983م، عداد 5-6.

لقد كان لهذا البحث القيم أثره الكبير في موضوع دراستي لما كشفه عن أهمية قبيلة نفوسة في التاريخ الإسلامي فضلا عن أهمية موقعها الجغرافي، ثم اتساع أرضها لتمتد تسميتها إلى قبائل أخرى، ودورها في قيام الدولة الرستمية الإباضية التي أصبحت تمثل عمودها الفقري.

ح - محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1963م.

لقد كان لهذا الكتاب من الأهمية في موضوع بحثي لما قدمه من مادة تاريخية هامة عن إباضية جبل نفوسة في ثنايا كتابه، خاصة في الجزء الثاني والثالث منه، ولقد كان اعتماد المؤلف على عملية التوثيق التاريخي ضئيلا جدا، بل كاد أن ينعدم تماما، وهو ما كبدني مشقة كبيرة في البحث، نتيجة لما قمت به من عملية تطابق بين ما جمع "دبوز" من مادة علمية تاريخية، ومدى صحة مطابقتها للمصادر الإباضية الرئيسية التي اعتمدت عليها كالبغطوري، وأبي زكريا والدرجيني، والشماخي.

كما أن أسلوب المؤلف في كتابه لم يأخذ شكل الكتابة التاريخية بمعناها الدقيق حيث جاءت بعض ألفاظه عامية أضف إلى ذلك إبرازه لأهمية الكرامات، والروايات الأسطورية لعلماء إباضية جبل نفوسة وتاهرت، ومع ذلك فلقد كان لهذا الكتاب من الأهمية التاريخية على المستوى السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي والفكري وما أفادني في موضوع بحثي وتكمله لغيره من المراجع.

ط - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، 1985م.

لقد كان لهذا الكتاب أهمية كبرى في إبراز جور ولاة الأمويين على البربر وأثره على اعتناقهم لمذهبي الإباضية والصفرية، ثم تطرق بعد ذلك لإظهار الثورات الإباضية الأولى بجبل نفوسة وضواحي طرابلس بالإضافة إلى إشارته إلى أهمية إباضية جبل نفوسة بالنسبة لائمة تاهرت، فضلا عن أهمية جبل نفوسة الذي أصبح دار هجرة للمذهب الإباضي في بلاد المغرب.

- رابعا : المراجع الأجنبية:

Despois, Le Djebel Nefausa (Tripolitaine Etude Géographique, Paris, 1935).

لقد كان لأهمية تحديد الموقع الجغرافي لجبل نفوسة موضوع دراستنا أن نرجع إلى الدراسة الوافية الذي قدمها لنا المستشرق الفرنسي (Despois) حيث ابرز فيه السمات العامة لجغرافية جبل نفوسة، ومع ذلك فلم تكن الدراسة دراسة جغرافية بحتة لموقع الجبل وتضاريسه ومناخه بل تعرض بصورة كبيرة للجانب التاريخي للجبل على المستوى السياسي والفكري والاقتصادي والاجتماعي فترة الدراسة فضلا عما قدمه لنا عن أهمية الجبل قبل الفتح الإسلامي وهو ما أفاد دراستي في التمهيد التاريخي لجبل نفوسة هذا بالإضافة إلى الخرائط التوضيحية لمدن وقرى الجبل.

التمهيد

جبل نفوسة الأصل والتسمية

الخصائص الجغرافية لجبل نفوسة

تمهيد تاريخي.

التمهيد

أ - جبل نفوسة الأصل والتسمية:

قبيلة نفوسة[1] واحدة من أكبر قبائل البربر البتر وأوسعها. فهي تنتسب إلى نفوس بن زحيك بن مادغيس الأبتر[2] وتتشعب إلى بطون كثيرة أبرزها: ماطوسة، وزمور، مكسور[3]

وقد استوطنت نفوسة إقليم طرابلس منذ أقدم العصور ثم ما لبثوا أن نزحوا إلى الجبال تاركين سكنى المدن للروم[4] مثل مدينة صبراته[5] التي كانت من أهم مواطنهم وتنتسب إليهم.[6] وهذا وقد نزلت نفوسة بين جبل القيروان (تونس)[7] وغريان.[8] وقد أضفوا اسمهم على المنطقة الجبلية التي استوطنوا بها فعرف باسم جبل نفوسة.[9] والذي

1- نفوسة: بفتح أوله وضم الفاء ثم السكون. فسين مهملة (ياقوت الحموي: معجم البلدان. تحقيقي فريد الجندي، دار الكتب. بيروت - لبنان. 1410هـ. جـ5. ص 343.

2 - ابن حزم: جمهرة انساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف. القاهرة. 1971. ص 496. ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. دار المنصور. الرباط. 1972. ص 16. ولحقت الهاء بنفوس فصارت نفوسة على عادة العرب (ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. تعليق تركي فرحان. دار إحياء التراث. بيروت -لبنان. 1999. جـ6. ص 118.

3 - ابن خلدون: نفس المصدر. جـ6. ص 116. انظر أيضا: عبد الوهاب منصور. قبائل المغرب. المطبعة الملكية. الرباط. 1968م. جـ1. ص 308.

4 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب. تحقيق عبد المنعم عامر. الهيئة العامة لقصور الثقافة. القاهرة. 1961م. جـ1. ص 339. ابن خرداذبه: المسالك والممالك. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. د.ت. ص 92.

5 - صبراته: تكتب بسين مكسورة بدلا من الصاد أحيانا. وهي مدينة حصينة تقع غرب طرابلس بحوالي 76كلم على ساحل البحر. فتحها عمرو بن العاص بعد طرابلس بواسطة الله بن الزبير.

(التجاني: رحلة التجاني تونس-طرابلس 706-708هـ. قدمها حسن حسني عبد الوهاب. الدار العربية للكتاب. ليبيا-تونس. 1982. ص 212. انظر أيضا: الطاهر الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا. دار المعارف. القاهرة. د.ت. ص 40.

6 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق. جـ1. ص 229. ابن خلدون: المصدر السابق. جـ6. ص 116. انظر أيضا: الزاوي: المرجع السابق. ص 11.

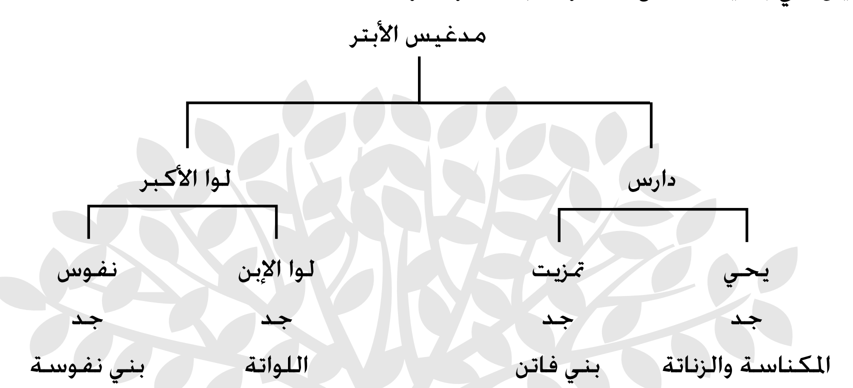
7 - جبل تونس: يقع شرق القيروان بحوالي 30كلم (البكري" المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. مكتبة المثنى. بغداد. د.ت. ص 24.

8 - جبل غريان: يبعد عن جنوب غرب طرابلس بحوالي 75كم (الوزان: وصف افريقية. ترجمة د/عبد الرحمن حميدة. بدون دار نشر. السعودية. 1399هـ. ص 479. انظر أيضا: Despois, Le Djebel Nefausa (Tripolitaine) (Etude Géographique, (Paris, 1935), P.282

9 - ابن خلدون: العبر. ج.6. ص 116. انظر أيضا: محمد حسن: المدينة والسيادية بافريقية في العهد الحفصي. مطبعة جامعة تونس الأولى. 1999. جـ1. ص 143.

مازال يحمل الاسم نفسه إلى الآن.[1] وقد استقطب قبائل نفوسة عدة قبائل أخرى من بني يفرن،[2] وهوارة،[3] وغيرهم، وإن انصهرت هذه العناصر تدريجيا داخل قبائل نفوسة،[4] التي ابتعدت عن الساحل، واستقرت بالجبل،[5] فأصبحت ذات مكانة إستراتيجية لمواجهة الصراع الذي منيت به عبر العصور الأموية والعباسية والفاطمية.[6]

وهو ما سوف يتناوله الباحث طوال فترة البحث، دون التطرق إلى العصر الفاطمي إلا بالقليل في بدايته لانتهاء فترة البحث والدراسة.



ب - الخصائص الجغرافية لجبل نفوسة:

أولا: الموقع.

يعتبر جبل نفوسة امتدادا لسلاسل جبال أطلس[7] المعروفة بجبال درن في المغرب

1 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 44.
2 - يفرن: إحدى قبائل البربر البتر من زناتة، وأطلق اسم يفرن على مجموعة من المدن المتناثرة التي تتقارب مع بعضها حتى تصبح مدينة واحدة، وكانت تسمى بالبيضاء وتقع في الجهة الشرقية لجبل نفوسة أو شرق وادي الرومية احد أودية الجبل (ابن حزم: جمهرة انساب العرب، ص 496، انظر أيضا: علي يحيى معمر: الإباضية ف موكب التاريخ، مكتبة وهبة، القاهرة، 1964م، الحلقة الثانية، القسم الثاني، ص 219).
3 - هوارة: إحدى قبائل البربر البرانس، وتنسب إلى هوار بن برانس وكان ساكنا بالحجاز فضلت إبله، فظل يبحث عنها إلى أن وصل ارض افريقية، فقال لغلامه "لقد تهورنا" فسموا هوارة (التجاني: الرحلة، ص 216، انظر أيضا: محمد الطيب: موسوعة القبائل العربية بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2001م، المجلد الثاني، ص 262-263).
4 - محمد حسن: حول إحدى القبائل البربرية نفوسة، فضاؤها الجغرافي وعلاقتها بالسلطة المركزية، ضمن مجلة أوراق المعهد الثقافي الاسباني العربي، 19882-1983، عدد (5-6)، ص 106.
5 - ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص 92، انظر أيضا: محمد حسن: المرجع السابق، ص 107.
6 - الأنصاري: نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تعليق د.محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1994، ص 18.
7 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 43.

الأقصى، التي تمتد من الغرب إلى الشرق،[1] ويمثل الظاهرة المورفولوجية البارزة في شمال غرب ليبيا، على اعتباره يواجه الشمال بحافة هضبية مقوسة، ومتقطعة، ومتباينة الارتفاع على طول امتداده،[2] التي تقدر بحوالي 200 كم بين الجبل التونسي في الغرب[3] بالقرب من وازن آخر قرية نفوسية متاخمة للحدود التونسية[4] إلى جبل غريان شرقا[5] حيث تنتهي حدوده بمدينة الخمس[6] الساحلية.[7]

وإذا علمنا أن متوسط عمق جبل نفوسة هو 20 كم، وطوله حوالي 200 كم، فإننا نحصل على مسافة تقدر بحوالي 4000 كم2 للجبل مجملا.[8]

كما يظهر جبل نفوسة على شكل مثلث قاعدته في الغرب، ورأسه في الشرق[9] غرب مدينة الخمس تحدده حافات مستقيمة لا ترتفع عن 350 م، أما في الوسط بين غريان ويفرن[10] فيصل أقصى ارتفاع له 850م تقريبا من مستوى سطح البحر، أما في الغرب فيقل الارتفاع ليتراوح فيما بين 650-700م.[11] وتنتشر فوق هذه الحافات المنجرفة[12] شبكة من الوديان تجري داخل الجبل وتنحدر معظمها من الجنوب إلى الشمال أهمها "وادي لالوت" (نالوت)، "وشروس"، و"أنكراين"، و"أمسين"، و"الزرقاء"، و"الرومية"، و"الآخرة"،[13] و"وادي الجينين"، تنحدر معظمها إلى جنوب سهل الجفارة،[14] الذي يحد جبل نفوسة شمالا بطريقة فجائية وغير منتظمة.[15] ومن هنا تتبين لنا أهمية جبل نفوسة في تغطية التربة الفيضية جنوب سهل الجفارة وخصوبتها نتيجة لوجود المجاري المائية

1 - البكري: المغرب، ص 160.
2 - جودة حسنين وآخرون: جغرافية الدول الإسلامية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1993، ص 276.
3 - Despois, Le Djebel Nefausa, P. 282.
4 - عبد الله الباروني: رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، القاهرة، 1290هـ، ص 33، معمر: الإباضية في موكب التاريخ، حـ2، ق2، ص 174.
5 - عبد العزيز شرف: موسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، إقليم شمال أفريقيا (ليبيا)، الإدارة العامة للثقافة والنشر، السعودية، 1997م، مجلد9، ص 50، انظر Despois, op. cit. p.4.
6 - مدينة الخمس: تقع شرق طرابلس بحوالي 90 كم (الزاوي: المرجع السابق، ص 31)
7 - عبد العزيز شرف: المرجع السابق، مجلد 9، ص 50.
8 - عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وانثروبولوجية، المكتبة العصرية، صيدا -بيروت، 1969م، ص 18.
9 - عبد العزيز شرف: الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، مجلد 9، ص 50
10 - جودة حسنين وآخرون: جغرافية الدول الإسلامية، ص 276.
11 - عبد العزيز شرف: المرجع السابق، مجلد 9، ص 50.
12 - جودة حسنين وآخرون: المرجع السابق، ص 276.
13 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص171-221.
14 - جودة حسنين: قارة أفريقيا ودراسات في الجغرافيا الإقليمية، دار المعرفة، الإسكندرية، 2000، ص 283.
15 - جودة حسنين وآخرون: جغرافية الدول الإسلامية، ص 275-286.

المنحدرة من المناطق المرتفعة في الجبل إلى أجزاء السهل الجنوبية.[1] وللجبل نفوسة دور كبير في التقسيم الجغرافي لبلاد المغرب، كحد سياسي هام من جهة الشرق[2] وهو ما أكده بالفعل الجزنائي في تقسيمه للمغرب موضحا أهمية جبل نفوسة كحد من حدوده الشرقية.[3]

أما عن المسافات المقدرة بين الجبل، وما يقترب منه من مدن المغرب، فنجد بينه وبين مدينة طرابلس 100 كم تقريبا.[4] حيث يحيط بالمدينة على شكل هلال جعله حاجزا بينها وبين الصحراء في فزان التي تمثل الحد الجنوبي لجبل نفوسة. لذلك كان اتصال فزان ببرقة،[5] وتونس، والجزائر أسهل من اتصالها بطرابلس، نظرا لموقع جبل نفوسة الجغرافي،[6] ومن قفصة إلى جبل نفوسة جنوبا 200 كم تقريبا.[7] ويبعد عن شرق جزيرة جربة بحوالي 65 كم،[8] أما في الشمال الغربي لجبل نفوسة يقع جبل دمر،[9] التي يبعد عنه بحوالي 100 كم،[10] في حين يقع جبل مسلاتة شرق جبل نفوسة،[11] بينما نجد المسافة بين جبل نفوسة إلى قصطيلية حوالي 200 كم أما بينه وبين صفاقس حوالي 300 كم[12] وبين

1 جودة حسنين: قارة أفريقيا، ص 283.
2 - المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، القسم الأول، دار المنصور، الرباط، 1973، ص 12.
3 - زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001، ص 35.
4 - مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق د.سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1982، ص 110.
5 - برقة: مدينة كبيرة قديمة بين الإسكندرية وافريقية. تبعد عن البحر بنحو 9 كم تقريبا، وتبعد عن شرق طرابلس بحوالي 200 كم، وعاصمتها بنغازي، فتحها عمرو بن العاص سنة 22هـ/624م دون قتال (الاصطخرى: مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1937م، ص 64، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د.إحسان عباس، دار السراج، بيروت، د.ت، ص 91، انظر أيضا: محمد بازامة: ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، مؤسسة ناصر، بنغازي، 1972م، ج8،ق1، ص 105).
6 - سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا، وتونس، والجزائر والمغرب) منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ج1،ص 74.
7 - محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1988، ج1،ص 106.
8 - ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق د.جوان قرنيط وآخرون، مطبعة كريماديس، تطوان، المغرب، 1958م، الإقليم الرابع، ج3، ص 79أ انظر أيضا مارمول كاربخال: أفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989م، ص 131.
9 - ابن سعيد: الجغرافيا إسماعيل العربي، المكتب التجاري، بيروت، 1971م، ص 145، انظر أيضا: محمد علي دبوز: المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1963م، ج3، ص 500.
10 - الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م، المجلد الأول، ج2، ص 299.
11 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 144.
12 - الإدريسي: المصدر السابق، مجلد 1، ج2، ص 299.

جبل نفوسة وواحة وارجلان 380 كم تقريبا،[1] ومنه إلى واحة غدامس 220 كم تقريبا.[2] ويشكل جبل نفوسة دور كبير في تكوين الساحل الصخري لطرابلس، نتيجة انهيار صخور الجبل الكلسية على الساحل[3] ونظرا لكثرة الرمال التي تتجمع على شكل كثبان رملية بالجبل، فقد يؤثر سلبا على عملية الزراعة في بعض الأحيان لابتلاع الرمال مياه الأمطار،[4] إلا أنه بفضل وجود العيون والآبار على جوانب الأودية التي تجري بالجبل قد ساعد على ازدهار الزراعة،[5] وذلك عكس جنوب جبل نفوسة، حيث توجد أرض جدباء تتميز بكثرة رمالها، ويطلق عليها الحمادة الحمراء.[6]

ويتميز جبل نفوسة أيضا بتعدد القرى والمواضع المختلفة، فيوجد به منبران لمدينتين كبيرتين إحداهما شروس، وتقع وسط هذا الجبل فضلا عن أنها اكبر مدنه،[7] ومن أعمالها ما يزيد عن ثلاثمائة قرية، لذلك سميت "بأم قرى" جبل نفوسة.[8] وأما المدينة الثانية فهي جادو وتقع على حافة الجبل الجنوبية،[9] بل أنها كانت عاصمة الجهة الشرقية للجبل،[10] لذا قال عنها ابن حوقل "مدينة ثانية تعرف بجادو من ناحية نفزاوة،[11] وفيها منبر وجامع، والجبل بأجمعهم دار هجرتهم على قديم الأيام".[12]

وهناك العديد من المدن الأخرى مثل: مدينة "الالوت (نالوت)" التي تبعد عن شرق "وازن" حوالي 30 كم،[13] ومدينة "كباو" التي تقع في الجزء الغربي للجبل،[14] ومدينة فساطو الواقعة في الجانب الشرقي لجبل نفوسة، بين الرحيبات، والرجبان، حيث أنها تمثل

1 - الإدريسي: المصدر السابق، مجلد 1، ج2، ص 279.
2 - الحميري: الروض المعطار، ص 327.
3 - أنور الرفاعي وآخرون: المغرب العربي جغرافيا، مكتبة العلوم والآداب، دمشق 1949م، ص 13.
4 - أنور الرفاعي وآخرون: نفس المرجع، ص 14.
5 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 181، جودة حسنين: قارة أفريقيا، ص 283.
6 - أنور الرفاعي وآخرون: المرجع السابق، ص 14.
7 - ابن حوقل: صورة الأرض، الفاروق، القاهرة، د.ت، ص 192، انظر أيضا: سعد زغلول: هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب دراسة لكتاب السير، بحث ضمن أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، 1979، ج1، ص 65.
8 - البكري: المغرب، ص 9.
9 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 200، عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي،ص 15.
10 - تادايوس ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، دراسة لسنية في الانوميا والطوبونوميا الأمازيغية، ترجمة عبد الله رارو، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، د.ت، ص 106.
11 - نفزاوة: مدينة جليلة بينها وبين القيروان 180 كم تقريبا وبها صور صخر وطوب وجامع وحمام وأسواق حافلة، وهي على نهر كثيرة النخل والثمار، وتبعد عن قابس بحوالي 100 كم، ومن نفزاوة تسير إلى بلاد قصطيلية.
12 - صورة الأرض، ص 93.
13 - معمر: المرجع السابق، ح2، ق2، ص 174، ليفيتيسكي: المرجع السابق ص 144.
14 - معمر: نفس المرجع ، ح2، ق2، ص 175، ليفيتيسكي: نفس المرجع ص 80.

مقاطعة كبيرة تحوي العديد من مدن الجبل الشرقية مثل: مدينة طرميسة، وأجناون، وتمزدا، وغيرها من مدن الجبل الأخرى.[1]

ثم إن ديار نفوسة كثيرة تتصل بعضها ببعض من طرابلس إلى القيروان[2] ويتمركزون في جبال طرابلس.[3]

ثانيا : المناخ

يتميز مناخ هذه المنطقة بالقحط الشديد، وتفاوت شديد في درجات الحرارة، لذلك يندرج جبل نفوسة تحت المناخ الصحراوي المتوسطي التي يمثل حوض بحري يتميز بوجود الأمطار والرطوبة، فيجذب خلال فصل الشتاء ضغط الجو الذي يعبر الأطلسي شمالا، ويتجه للتقارب المباشر بين هاتيت الكتلتين الأولى بريه، والأخرى بحرية، مما نتج عن ذلك عدم استقرار في حالات الجو، فضلا عن تغيرات مناخية شديدة، وهنا تظهر دون شك السمات العامة لمناخ جبل نفوسة،[4] وعلى الرغم من قلة سقوط الأمطار في منطقة الجبل، إلا أن الأدوية تأخذ نصيبا مناسبا منها في السنوات العادية.[5]

أضف إلى ذلك تأثير الرياح الشمالية الغربية الرطبة[6] الحاملة للأمطار على عملية توزيعها إلى السواحل البحرية، ومنطقة الجبل، وهذه الأمطار عادة ما تسقط في فصل الشتاء،[7] الذي يسود فيه جبل نفوسة جو بارد.[8]

---

1 - ليفيتيسكي: نفس المرجع، ص 125.

2 - القيروان" مدينة تقع غرب قابس بحوالي 120 كم، أول من بناها معاوية بن حديج، فلم يعجب بموضعها عقبة بن نافع، فاختط قيروانا في موضع أخر سنة 60هـ/679م وهو المعروف بهذا الاسم إلى اليوم (ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص -264 265، اليعقوبي: البلدان، مطبعة بريل، لندن، 1860، ص 136، ابن رستة: الأعلاق النفسية، تحقيق المكتبة الجغرافية العربية، مطبعة بريل، ليدن، 1967، مجلد 7، ص 346

3 - اليعقوبي: المصدر السابق، ص 136، انظر أيضا: محمد يوسف نجم وآخرون: ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات، دار ليبيا بنغازي، 1968م، ص 12، (وفي تقديري من خلال ما ذكره اليعقوبي عن جبال طرابلس أن المقصود هنا جبل نفوس بدليل ما ذكره في أول حديثه عن ديار نفوسة، خاصة أن المنطقة كلها يطلق عليها من الغرب إلى الشرق منطقة الجبل ككل، أي التي تبدأ من جبل نفوسة في الغرب حتى جبل مصراته في الشرق، وما بينها من جبل غريان، وترهونة، ولذلك نجد نوعا من التخصيص المحلي عند إطلاق اسم الجبل على المنطقة المقصود بها هذا المصطلح ففي منطقة نفوسة يذكرون جبل نفوسة، وفي مصراته يذكرون جبل مصراته، وهكذا (حسن محمود: ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1962م، ص 272، جودة حسنين وآخرون: جغرافية الدول الإسلامية، ص 277).

4 - Despois, Le Djebel Nefausa, P. 46.

5 - حسن محمود: المرجع السابق، ص 274.

6 - أنور الرفاعي وآخرون: المغرب العربي جغرافيا، ص 14.

7 - حسن محمود: الرجع السباق، ص 274.

8 - مارمول كاربخال: أفريقيا، ص 131.

كما أدى اتجاه جبل نفوسة بصورة كبيرة ناحية الغرب، إلى قلة تعرضه لكمية كبيرة من الأمطار التي يتعرض لها سهل الجفارة بقدر كبير، ولذلك فنادرا ما يتعرض الجبل لأمطار مسببه للأعاصير[1] أما بالنسبة لدرجة الحرارة في منطقة جبل نفوسة، فيغلب عليها المناخ المعتدل.[2]

<u>جـ - تمهيد تاريخي:</u>

أولا: جبل نفوسة قبل الفتح الإسلامي.

كان جبل نفوسة مقصدا للهجرة، فقد وفد إليه العديد من الناس مع مطلع العصر الحجري الحديث، نتيجة القحط الشديد الذي أصاب مواضيعهم، شأنه شأن الواحات، ووادي النيل.[3]

أما في العصر الفينيقي فقد استولى الفينيقيون على بعض أجزاء من جبل نفوسة لقرون عديدة، معتمدون على موارده الاقتصادية، سواء كانت زراعية، أو صناعية، أو تجارية،[4] ولكن نظرا لقوة الروابط الدموية والجغرافية بين أفراد قبيلة نفوسة التي كان لها دور كبير في الاتحاد ضد الكوارث الطبيعية، والاقتصادية، والسياسية... وهو ما وقع بالفعل بين الاستعمار الروماني، والقبائل البربرية، مما أدى إلى ترك أراضيهم متجهين نحو الجنوب،[5] حيث المناطق المنعزلة البعيدة عن النفوذ الروماني[6] مثل منطقة جبل نفوسة التي أسهمت الكثافة السكانية فيها في توطيد أقدام البربر بالصمود أمام المستعمر، وجعلها أرض ترحال لكثير من البربر.[7]

ومن هنا كون هؤلاء النواة الأولى للزناتيين المناوئين للرومان في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وهو ما سمي بتجمع البربر المتمثل في "اتحاد زناتة"،[8] حيث اعتمدوا على الرعي والسلب والنهب على طول الساحل، ففي فصل الصيف كانوا يتوجهون إلى

---

1 - Despois, Le Djebel Nefausa, P. 50.

2 - جودة حسنين وآخرون: جغرافية الدول الإسلامية، ص 288.

3 - Despois, Le Djebel Nefausa, P. 280.

4 - Ibid, P. 281.

5 - محمد حسن: حول إحدى القبائل البربرية نفوسة، عدد (5-6)، ص 107.

6 - محمد بازامة : ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، ج8، ق1، ص 59.

7 - محمد حسن: المرجع السابق، عدد (5-6)، ص 107.

8 - زناتة: إحدى قبائل البربر البتر من القبيلة القديمة المعروفة من بطون مادغيس التي ما تزال بقاياها منتشرة في شمال طرابلس الغرب بغريان، والرجبان والزنتان، والحوض، والنوايل (المكناسي: جذوة الاقتباس، ص 15، انظر أيضا: خليفة محمد التليسي: معجم سكان ليبيا،دار لريان، ليبيا، 1991م، ص 185.)

الرعي في جبل نفوسة التي كان يشكل عنصر قبلي هام شارك في هذا الاتحاد، وفي الشتاء كانوا يتوجهون إلى الجنوب.[1] هذا وقد شاركت قبيلة نفوسة مع قبيلتي هوارة ولواتة[2] بثورة ضد البيزنطيين في عامي 545-546م، آلت زعامة هذه الثورة إلى قبيلة لواتة؟[3] إلا أنها لم تقلل من مشاركة نفوسة فيها، بل ساهمت في تكوين كيان بربري معها أشبه بالدويلة استطاعوا من خلاله تكوين جيش مشترك لا يقل عن ستة عشر ألف مقاتل.

وعلى الرغم من ذلك بدأت هذه القبائل تضعف مع بواكير الفتح الإسلامي،[4] وفي العهد البيزنطي خربت منطقة طرابلس، وتقلص سكانها، وكانت معظم المناطق المأهولة بالسكان، تعيش على الحدود الرومانية القديمة مثل منطقة جبل نفوسة،[5] ومع مجيء العرب الفاتحين كانت نفوسة قد تمركزت في جبلها، بعد تركهم أهم مراكزهم الساحلية المتمثلة في مدينة صبراتة[6] وسرعان ما اندمجوا في الإسلام نظرا لسماحته، وما أظهره قادته الفاتحون من الورع والتقوى[7] وما وجده البربر من تقارب اجتماعي بينهم وبين العرب.[8]

ثانيا: الفتح الإسلامي لجبل نفوسة

ما لبث عمر بن العاص أن استولى على برقة سنة 22هـ/642م،[9] حتى يمم وجهه شطر طرابلس ليفتحها ولقد كان أمامه طريقان: -

أولهما: إما أن يسير بحذاء الساحل فيستولي على طرابلس، وما جاورها من مدن

1 - جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ترجمة عبد الحفيظ الميار وآخرون، دار الفرجاني، طرابلس- ليبيا، 1972م، ص 68-69.

2 - لواتة: من اكبر قبائل البربر وأشهرهم، ومن أهم مراكزهم برقة خاصة أيام الفتح الإسلامي، (العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب) تحقيق د. حمزة عباس، أبو ظبي، 2002م، السفر الرابع ص 372، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 118، السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1986م، 428).

3 - حسين مؤنس ك فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص 50.

4 - حسين مؤنس: نفس المرجع، ص 51.

5 - جون رأيت: المرجع السابق، ص 70.

6 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 229، انظر أيضا: إسماعيل كمالي: سكان طرابلس الغرب، تعليق حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1989م، ص 25.

7 - حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2004م، ص 43.

8 - حسين مؤنس: نفس المرجع، ص 35.

9 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 299، انظر أيضا: محمد بازاحة: ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، ج8، ق1، ص105.

الساحل مثل سرت،[1] وصبره.

ثانيهما: أو يتجه إلى الداخل حتى يستولي[2] على كثير من مراكز العمران الصحراوية التي تقطنها بعض القبائل بما فيها الآبار والواحات منها قبيلة نفوسة وهوارة ولواتة.

ورأى أن يقوم بالأمرين معا،[3] فسار في طريقه الأول إلى أن وصل طرابلس فامتنع أهلها عن التسليم، فحاصرها المسلمون،[4] ومع تشديد الحصار عليها استغاث أهلها بقبيلة نفوسة، حيث كانوا على ملتهم النصرانية،[5] مما جعل عمرو بن العاص يوجه كل اهتمامه إلى التفاهم مع قبيلة نفوسة، وتم له ذلك[6] وتمكن عمرو من فتح المدينة عن طريق رجل من بني مدلج[7]هو ونفر من أصحابه، كانوا قد خرجوا في رحلة صيد، وعند عودتهم عن طريق البحر، وجدوا سفن الروم شارعة إلى بيوتهم، فدخلوا المدينة من جهة البحر لعدم وجود أسوار من هذه الناحية، فأبصرهم عمرو بن العاص، ولحق بهم، وفتحت المدينة، وهرب الروم إلى سفنهم.[8]

وفي أثناء حصار طرابلس أرسل عمرو بسر بن أبي أرطأة[9] على رأس قوة ليفتح ودان،[10] وجبل نفوسة عام ثلاثة وعشرين للهجرة /643م[11] وفتح ودان كان يعني فتح جبل

1 - سرت: مدينة كبيرة تقع شرق طرابلس بحوالي 545 كم، وتبعد عن ساحل البحر بحوالي 3 كم (البكري: المغرب في ذكرى بلاد افريقية والمغرب، ص 6، الإدريسي: نزهة المشتاق، مجلد1، ج2، ص 298، انظر أيضا: الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 26).

2 - حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص 56.

3 - حسين مؤنس: نفس المرجع، ص 57.

4 - الزاوي: المرجع السابق، ص 37.

5 - ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان واليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1983م، ج1، ص 8، التجاني: الرحلة، ص 239.

6 - حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 34.

7 - مدلج: بطن من بطون كنانة، تقع ديارهم بين الإسكندرية وأعمال ليبيا، اسلموا في عهد عمر بن الخطاب (البعقوبي: البلدان، ص 131-132، القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د.ت، ص 372.

8 - التجاني: الرحلة، ص 239، الحميري: الروض المعطار، ص 390.

9 - هو أبو عبد الرحمن بسر بن أبي أرطأة القرشي العامري، ولد بمكة قبل الهجرة، واسلم صغيرا، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثه في مسند احمد، وكان من رجال معاوية في فتح مصر، توفي سنة 86هـ/705م (ابن عساكر: تاريخ دمشق، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج5، ص 182، 184، 185).

10 - ودان، مدينة قديمة من مدن البربر تقع جنوب شرق طرابلس بحوالي 769 كم وهي قصبة فزان (البكري: المغرب، ص 11-12، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 148، الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 47).

11 - ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، ص 37.

نفوسة[1] خاصة لوقوعها في الطرف الشرقي له[2] واستطاع عمرو فتح مدينة صبراتة تحت قيادة عبد الله بن الزبير[3] منتهزا فرصة خروج أهلها لرعي السائحة، فانقض عليهم، وفتح المدينة عنوة.[4]

وكانت مدينة صبراته تابعة لجبل نفوسة قبل الفتح.[5] ويبدو أن عمرو لم يضع وقتا في انتظار رد الخليفة بشأن فتح افريقية فسار إلى شروس وفتحها، وكان ذلك يعني تمام فتح جبل نفوسة[6] لأن مدينة شروس أكبر مدنه،[7] بل هي كما ذكرها البكري "أم القرى" جبل نفوسة.[8] ومنها بعث عمرو رسالة إلى عمر ابن الخطاب[9] يقول له:"إن الله قد فتح علينا أطرابلس، وليس بينها وبين افريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل"[10]

وبقي عمرو في شروس ما يقرب من شهرين وهي المدة التي تستغرقها الرحلة بين طرابلس والمدينة ذهابا وإيابا،[11] إلى أن جاءه رد الخليفة عمر قائلا: لا إنها ليست بافريقية، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت".[12] وبفتح شروس انتهت مرحلة الفتح العربي الأول لافريقية، وانتهت ولاية عمرو على طرابلس[13] ورجع عمرو بن العاص بكتاب عمر رضي الله عنه من جبل نفوسة[14] إلى مصر سنة 23هـ/643م تاركا

1 - سعد زغلول: المرجع السابق/ ج1، ص 149، الزاوي: المرجع السابق، ص 47.
2 - سعد زغلول: نفس المرجع، ج1، ص 148.
3 - هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن صفية عمة رسول الله صلى الله وسلم، وأمه أسماء بنت أبي بكر، روى عنه احمد في مسنده ستة وثلاثين حديثا، احد العبادلة شهد اليرموك وغزا مع ابن أبي السرح بافريقية، وقتل على يد الحجاج بن يوسف القفي سنة 73هـ/692م (الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1997م، ص 459-471، انظر أيضا حسين سعيد: الموسوعة الثقافية، مطابع دار الشعب، ومؤسسة فرانكلين للنشر، القاهرة، نيويورك، 1972م، ص 651-652).
4 - التجاني: المصدر السابق، ص 212، انظر أيضا: سعد زغلول: المرجع السابق، ج1، ص 147، حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص 64.
5 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 116.
6 -البكري: المغرب، ص9، الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 343، انظر أيضا: صالح مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، الشركة لعامة للنشر والتوزيع، ليبيا، 1978م، ص 37.
7 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص 92.
8 - المغرب ص 9.
9 - الزاوي: تاريخ الفتح العربي، ص 44.
10 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1،ص 232.
11 - الزاوي: ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، دار الفتح، بيروت، 1970م، ص 13.
12 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ج1، ص 232.
13 - الزاوي: المرجع السابق، ص 14.
14 - البكري: المصدر السابق، ص، الحموي: المصدر السابق، ج5، ص 343.

عقبة بن نافع (23-55هـ/643م674-م)، (62-63هـ/681-682م) واليا على برقة وطرابلس[1]

ثالثا: الجذور التاريخية للفرقة الإباضية

الإباضية إحدى الفرق الإسلامية، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية، لاعتدال مذهبهم، وتسامحهم مع مخالفيهم،[2] وهي جماعة قائمة بذاتها في الإسلام إلى جانب مذهبي السنة والشيعة[3] لها عقائدها وشرائعها[4] التي تتفق بوجه عام مع أهل السنة[5] لذا يعتبر المذهب الإباضي خامس المذاهب الأربعة في المغرب.[6]

وكان أول ظهوره بالبصرة[7] إبان عملية التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في أعقاب معركة صفين[8] سنة 37هـ/657م، إذ رفض نفر من جند علي بن أبي طالب قبوله التحكيم،[9] وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم الخوارج.[10]

1 - الزاوي: المرجع السابق، ص 14.
2 - عامر النجار: الإباضية ومدى صلتها بالخوارج، دار المعارف، القاهرة، 1993م، ص 85.
3 -الشيعة: الذين شايعوا عليا رضي الله عنه، وقالوا بإمامته نصا ووصية إما جليا وإما خفيا، كما قدموه على سائر الصحابة، وكلمة شيعة من حيث مدلولها اللغوي تعني القوم والأصحاب والأتباع، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى:)ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) صدق الله العظيم، (القصص: 15)، وإن كانت كلمة الشيعة قد ظهرت بوضوح بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية، فبعضهم يميل إلى، الاعتزال والآخر إلى السنة والتشبية، (الشهر ستاني: الملل والنحل ، تحقيق محمد كيلاني، مطبعة الحلبي، القاهرة د.ت، ص 146-147، انظر أيضا: ربيع السعودي: الشيعة الإمامية الاثنى عشرية في ميزان الإسلام، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1414هـ،ص 9، 158،13، على الصلابي: الدولة العبيدية في ليبيا، دار البيارق، الأردن، 1998م ص 12.).
4 - موتيلينسكي" دارة المعارف الإسلامية، مادة إباضية، دار الشعب، القاهرة، 1933م، ص 128.
5 - السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، تحقيق د.سيدة كاشف، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1986، ص 86، انظر أيضا: موتيلينسكي، المرجع السابق، ص 128.
6 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 324.
7 - البصرة: مدينة تقع في جنوب العراق، بنيت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة 14هـ/635م أسس بها عمر بن غزوان المنازل وبنى بها مسجدا، وهي مدينة لها مكانة علمية وتاريخية بارزة مما جعلها مظهرا من مظاهر الآثار الإسلامية (المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، مجلد2،ج5، ص 175، الحميري: الروض المعطار، ص 105.)
8 - صفين: موضع بالقرب من الفرات ما بين الرقة وبالس، وهو الموضع الذي كان به حرب علي بن أبي طالب مع معاوية بن أبي سفيان (ابن حوقل: صورة الأرض، ص41، الحميري: المصدر السابق، ص 363.)
9 - الازكوي: كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 12968ح، ورقة 279، انظر أيضا: نايف سهيل: الإباضية في الخليج العربي في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1992م، ص 11.
10 - الخوارج: هم جماعة من جيش علي بن أبي طالب، خرجوا عليه بعد موقعة صفين، وهو أول حزب سياسي تكون في تاريخ الإسلام بعد هذه الموقعة وذلك استنكارا لقبوله التحكيم، فأطلق عليهم المحكمة على حد

فحاربهم على بن أبي طالب وانتصر عليهم في معركة النهروان سنة 38هـ/658م،[1] فلم ينج منهم إلا القلة القليلة[2] على رأسهم أبو بلال مرداس[3] فتوجه هو ومن معه إلى البصرة،[4] حيث أقام مع أبناء عمومته من قبيلة تميم[5] وكانوا يشكلون جزءا

قولهم عملا بقوله تعالى :"إن الحكم إلا لله" يوسف: (40)، وسموا بالحرورية لنزولهم بقرية حروراء من أعمال الكوفة بعد اعتزالهم لسيدنا علي عقب صفين، وكانوا يقومون بقتل كل من خالفهم فأصبحوا جماعة سياسية لها أميرها ومذهبها الديني الخاص بهم، فحاربهم على بن أبي طالب في النهروان وانتصر عليهم إلا أنه لم يستطع القضاء عليهم نهائيا، فانتموا منه باغتياله سنة 40هـ/660م، كما سموا بالشراة عملا بقوله تعالى :"إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقران ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم" (التوبة: 111) . فالمذهب الخارجي وإن بدأ تبلوره بعد التحكيم، فإن جذوره ترجع إلى وقت مبكر منذ بداية فتنة عثمان رضي الله عنه، أي منذ الوقت الذي نسب فيه بعض المتعصبين أو المتزمتين من أصحاب الضمائر الحساسة إلى عثمان تهمة الخروج على التقاليد الإسلامية التي عرفت على أيام النبي صلى الله عليه وسلم، فرماه هو بالخروج عن الطاعة ومنها اشتق اسم الخوارج" . (مجهول: قطعة من كتاب الأديان والفرق، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 22298ب، ورقة 96، البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين، دار التراث، القاهرة، د.ت، ص 94، انظر أيضا: سالم السيابي: اصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج، تحقيق د.سيدة الكاشف، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 1979م، ص 21-22، احمد السقا: الخوارج الحروريون، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1980م، ص 12-13، وندل فيليبس: تاريخ عمان، ترجمة محمد عبد الله، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 1981م، ص 19، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 292، البير نصري نادر: أهم الفرق الإسلامية لسياسية الكلامية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1958م، ص 12.)

1 - النهروان: مدينة عامرة على بعد 18 كم من بغداد، وهي الموضع الذي انتصر فيه علي بن أبي طالب على الخوارج في بداية نشأتهم، (ابن حوقل" صورة الأرض، ص 218، الحميري: الروض المعطار، ص 582-583، انظر أيضا: الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص 144.)

2 - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1988م، المجلد الرابع، ص 29.

3 - هو أبو بلال مرداس بن عمرو حدير التميمي، نسب إلى أدية وهي جدته "وهو احد القلائل الذين نجوا من معركة النهروان فأصبح زعيمهم، وكان قد حضر صفين مع علي رضي الله عنه، وخرج أيام عبيد الله بن زياد إلى فارس، فأرسل إليه عباد بن اخضر فقتله أثناء صلاته سنة 61هـ/680م، (ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1983م، ج1، ص182-183، الشماخي: كتاب السير، تحقيق: احمد السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1987م، ص 61-64، الرقيشي: مصباح الظلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 20549 ب، ورقة 21.).

4 - محمد عليان، نشأة الحركة الإباضية في البصرة ومناقشة دعوى تأسيس جابر بن زيد وعلاقتها بالخوارج، دار الهداية، القاهرة، 1994م، ص 9.

5 - تميم: قبيلة عربية شمال بطن من طابخة بن إلياس بن مضر والتميم في اللغة الشديد كانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هناك على البصرة واليمامة، وامتدت إلى الكوفة ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر، وورث مساكنهم غزية من طيء، ونفاجة من بني عقيل بن كعب، أنجبت أعظم شعراء الجاهلية، وكانت لغتها العربية حجة بين القبائل، ارتدوا عن الإسلام بعد موت النبي صلة الله عليه وسلم فأعادهم خالد بن الوليد واشتركوا في فتح الكوفة والبصرة وخرسان، (ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق عبد العزيز السديدي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، السعودية، 1989م، ج1، ص 441، السويدي: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ص 86، انظر أيضا: مجموعة من العلماء: المنجد في الإعلام، دار المشرق، بيروت، 1980، ص 193.).

كبيرا من سكانها أنذاك[1] واخذوا يدعون لمذهبهم سرا خوفا من بطش الأمويين حتى كثرت جموعهم، وزاد أنصارهم،[2] وبعد مقتل أبي بلال مرداس على أيدي الأمويين سنة 61هـ/680م،[3] انضم أتباعه إلى عبد الله بن الزبير في مكة لمقاومة الجيش الأموي الذي أرسل لقتاله[4] ثم سرعان ما انصرفوا عن ابن الزبير إثر نشوب الخلاف سنة 64هـ/683م[5] ويرجع ذلك إلى أن الخوارج كانوا يرون أن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) كان على حق في السنوات الست الأولى من حكمه أما بعدها فقد اعتبروه مخالفا واحلوا سفك دمه وقتله، كما تبرؤوا من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لأنه حكم الرجال في دين الله يوم صفين، وكفر الخوارج الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله (رضي الله عنهما).[6]

وهكذا انقسم الخوارج إلى فريقين: فريق منهم فضل الإقامة في الجزيرة العربية متخذا من اليمامة[7] مقرا له[8] وعرفوا باسم النجدات[9] وأما الفريق الآخر فقد عاد إلى البصرة نظرا لاضطراب أحوال البلاد بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية سنة 64هـ/683م[10] وهروب عبيد الله بن زياد[11] رغم سيطرته على الخوارج وأخذهم بالشدة والعنف حتى أنه كان يقتل كل من كان على رأيهم[12] فثار هذا الفريق وكسروا أبواب السجون، واخرجوا

---

1 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، بدون دار نشر، عمان، 1978، ص 65.

2 - محمد قرقش: عمان والحركة الإباضية، مكتبة مسقط، عمان، 1990، ص 11.

3 - ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج، 1، ص 183.

4 - المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تعليق د.محمد إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، جـ3 ص 201.

5 -الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص 397.

6 - الدينورى: الأخبار الطوال، تحقيق. عبد المنعم عامر، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة، 1959، ص 203، المبرد: الكامل في اللغة والأدب، جـ3، ص 202).

7 - اليمامة مدينة متصلة بأرض عمان من جهة المغرب مع الشمال، وكان اسمها أولا جوا وهو بلد كبير فيه قرى وحصون وعيون ونخل (البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على محمد، دار المعرفة، بيروت -لبنان، 1957م، جـ3، ص 1251.

8، القاهرة، 1994، ص 51. - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ4، ص 398، انظر أيضا: عامر النجار: الخوارج عقيدة وفكرا وفلسفة، دار المعارف

9 - النجدات فرقة من فرق الخوارج تنتسب إلى أميرها نجدة بن عامر الحنفي، الذي أنكر على نافع بن الأزرق بعض مبادئه من قتل الأطفال وغيرها، فخرج إلى اليمامة هو وأصحابه وبايعوه عليهم (البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 105، الشهرستاني: الملل والنحل، جـ1، ص 122-125).

10 - الطبري: المصدر السابق، ج4، ص 362.

11 - هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ولد بالبصرة وكان بصحبة والده عند موته بالعراق ثم توجه إلى الشام فولاه عمه معاوية خراسان سنة 53هـ/672م. ثم أمره على البصرة سنة 55هـ/674م فقاتل الخوارج، واقره يزيد بن معاوية على إمارته سنة 60هـ/679م ولما مات يزيد بايع أهل البصرة عبيد الله ثم لم يلبثوا أن وثبوا عليه فهرب إلى الشام ثم عاد إلى العراق فقتله ابن الاشتر في أرض الموصل سنة 61هـ/680م. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ5، ص 55-57، انظر أيضا الزركلي: الإعلام، جـ4، ص 193).

12 - الدينوري: المصدر السابق، ص 203.

أتباعهم فتصدى لهم أهل البصرة،[1] على رأسهم عبد الله بن إباض المري التميمي واليه انتسب الإباضية[2] ورغم ذلك فإن المصادر الإباضية تنسب إليه دورا ثانويا بالمقارنة بجابر بن زيد[3] الذي تعتبره الإباضية فقيههم وإمامهم الأول، ومؤسس المذهب الحقيقي[4] أما عن انتساب الإباضية إلى عبد الله بن أباض، لأنه كان المجاهد علنا والمناضل في إظهار المذهب والرد على المخالفين فيما أحدثوه. فضلا على أنه كان ينتمي إلى قبيلة تميم اكبر وأقوى قبائل البصرة آنذاك[5] أضف إلى ذلك أنه ابرز تلاميذ جابر بن زيد.[6] ولا نعرف من المصادر التي رجعنا إليها أين ومتى ولد عبد الله بن إباض، كذلك لا تتفق المصادر على حد علمنا على سنة وفاته. والمؤرخ الوحيد الذي انفرد بتاريخ وفاته هو الشهرستاني حيث ذكر أنه قتل أيام مروان بن محمد (126-132هـ/734-739م)[7] وقد يكون ذلك مجانبا للصواب، لأنه يتنافى مع ما أكدته المصادر الإباضية نفسها من أنه ينتمي إلى طبقة التابعين الذين توفوا قبل عام 100هـ/718م[8] وهو ما قد تبين صحته استنادا لما أكده باحث محدث[9] وكل ما استطعنا أن نتوصل إليه عن سيرة عبد الله بن أباض أنه عاصر معاوية بن أبي سفيان، وعاش إلى أواخر عبد الملك بن مروان (65-76هـ/684-705م).[10] وأول ما نسمع عن اشتراك عبد الله بن إباض في أمور الدولة الإسلامية حين خرج للدفاع عن مكة مع عبد الله بن الزبير ضد جيش يزيد بن معاوية سنة 64هـ/683م ثم رجوعه إلى

1 - المبرد: الكامل، جـ3، ص 206، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 78

2 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق، إبراهيم طلاي، البليدة، الجزائر، 1974م، ج2، ص 214، انظر أيضا: السيد المصري الإباضي: الهدية الأولى الإسلامية للملوك والأمراء في الداء والدواء، المطبعة البارونية، القاهرة، 1328هـ، ص 79.

3 - هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الازدي الجوفي البصري (21-93هـ641--711م) من ولد عمر بن اليحمد الازدي ولد بمدينة الفرق بالقرب من مدينة نزوى في بلاد عمان. تولى الإفتاء بالبصرة، وعُد من بحور العلم فيها. أخذ العلم عن ابن عباس وعن السيدة عائشة (رضي الله عنهما) وعن سبعين من أهل بدر، وكان ابن عباس يقول لو نزل أهل البصرة عند قول جابر بن زيد لوسعهم علما. وأما عن كنيته بابي الشعثاء فهي ابنته (الأصفهاني: خلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1996م، جـ3، ص85-91، المزى: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق د.بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، جـ4، ص 434-435، الرقيشي: مصباح الظلام، مخطوط، ورقة 20، انظر أيضا: سالم السياني: إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء، تحقيق د.سيدة كاشف، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1979، ص 1، 14-23).

4 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، جـ2، ص 205، الشماخي: السير، جـ1، ص 67.

5 - الدرجيني: نفس المصدر، جـ2، ص 214، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 82.

6 - الشماخي: المصدر السابق، جـ1، ص 73.

7 - الملل والنحل، ج1، ص 134.

8 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 214، الشماخي: السير، جـ1، ص 72.

9 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 76-77.

10 - الأزكوي: كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، مخطوط، ورقة 295، انظر أيضا: الزركلي" الإعلام، ج4، ص 62، عوض خليفات: المرجع السابق، ص 76-77.

البصرة بعد أن أمنت مكة[1] وفي نفس العام وقع الخلاف بينه وبين ابن الأزرق وابن الزبير فاعتزلهم عبد الله بن إباض وانفصل عنهم، مكونا مذهب الإباضية الذي لم يعرف بهذا المسمى آنذاك[2] بل كانوا يسمون أنفسهم "أهل الدعوة" أو "جماعة المسلمين".[3]

هذا ولم يقبل الإباضية في بداية الأمر تسميتهم بهذا الاسم، ولكنهم قبلوه منذ خلافة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-719م) وبدأ اسم الإباضية يظهر في كتبهم وكتاباتهم بعد ذلك.[4]

أما عن لفظة اباض في اللغة، فتارة تكتب (إباض) بهمزة مكسورة، وتطلق على اسم الرجل، وتارة تكتب (أباض) بهمزة مضمومة، وهي أرض باليمامة كثير الزروع[5] وتارة ثالثة تكتب (أباض) بهمزة مفتوحة، وتطلق على البعير عندما يشد رسغ يده إلى عضده حتى ترتفع يده عن الأرض.[6]

أما عن وجه الخلاف بين نافع بن الأزرق وأتباعه المعروفين بالازارقة وبين الإباضية فيرى نافع بن الأزرق أن مخالفي الخوارج مشركون كفرة[7] وحرم الزواج منهم، والموارثة فيما بينهم، وهم عنده مثل (كفار العرب وعباد الأوثان)، ودارهم دار حرب يجب الهجرة منها كما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم عن مشركي مكة،[8] كما أنكروا رجم الزاني، وذلك حسب قولهم :"أن حد الرجم لم يذكر في القرآن"،[9] وأباحوا قتل أطفال المخالفين ونسائهم.[10]

1 - المبرد: الكامل، ج3، ص 202، السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، ج2، ص 326.

2 - المبرد: نفس المصدر، ج3، ص 205، انظر أيضا: الزركلي: المرجع السابق، ج4، ص 62، عوض خليفات: المرجع السابق، ص 77.

3 - صالح الصوافي : الإمام جابر بن زيد العماني وآثاره في الدعوة ن وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1997م، ص 182.

4 - السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، ج2، ص 326.

5 - ابن منظور: لسان العرب، دار صادرن بيروت، د.ت، ج 7، ص 110-111، انظر أيضا: ليلى عبد العظيم: تاريخ الحركة الإباضية في جزيرة العرب في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، القاهرة، 2000م، ص (أ).

6 - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ، ص 82، انظر أيضا: ليلى عبد العظيم: المرجع السابق، ص (أ).

7 - البرزلي: فتاوي البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل بالمفتين والحكام، تحقيق د.محمد الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م، ج6، ص 191. السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، ج2، ص 85..

8 - النعمان القاضي: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، 1970م، ص 2.9.

9 - عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين الخوارج-الإباضية- الشيعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005م، ص 93.

10 الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص 121.

حروب عنيفة حتى استطاع الأمويون كسر شوكتهم والقضاء على كثير من قوتهم.[1]

اتجه الإباضية إلى المسالمة والابتعاد عن الفتن والثورات والدعوة لمذهبهم في سرية وهدوء حتى تحين الفرصة لتقويض الحكم الأموي، وإقامة الإمامة الإباضية طبقا لمبادئهم.[2] وسميت هذه المرحلة بمرحلة الكتمان، وهي المرحلة الأولى من مراحل مسالك الدين[3] عند الإباضية، وعملا بمبدأ الكتمان آثر جابر ابن زيد إخفاء أمره وأسنده إلى تلميذه عبد الله بن اباض[4] وهو ما ذكرناه آنفا رغم أن جابر بن زيد هو المؤسس الحقيقي للمذهب الإباضي،[5] وبوفاة عبد الله بن إباض خلفه في رئاسة الدعوة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة،[6] الذي يعزى إليه الدور الكبير في تثبيت دعائم المذهب في كافة الجوانب سواء كانت دينية أو عسكرية أو غيرها، وهو الذي ترتب عليه ارتفاع شأن الدعوة الإباضية واشتداد ساعدها.[7]

ولم يقتصر دور أبو عبيدة مسلم على نشر المذهب داخل البصرة فحسب بل انتشرت

1 - صفاء عبد الفتاح : الحركة الإباضية في المدينة المنورة (129-130هـ/746-774م)، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، 1995م، ص 24.

2 - عوض خليفات: نشأة الحرة الإباضية، ص 74.

3- مسالك الدين عند الإباضية تتكون من أربع مراحل هي الكتمان، والدفاع، والشراء، والظهور، ومرحلة الكتمان هي مرحلة الدعوة السرية ومثلوا لها بحالة الفقيه جابر بن زيد رئيسا لها. مرحلة الدفاع هي مرحلة بين الظهور والكتمان. فإذا كان الإباضية في طور الكتمان، وداهمهم العدو، فيجب عليهم أن يعلنوا حالة الدفاع عن أنفسهم، ويعقدوا إمامتها لمن يعرف بالشجاعة والخبرة العسكرية ويطلق عليه اسم أمام دفاع. ويمثل لها في المغرب أبو حاتم الملزوزي. ومرحلة الشراء: وهم الذين شروا أنفسهم بالجنة والخروج لحرب الحكام الظالمين ويجب ألا يقل عددهم عن أربعين رجلا بل يزيد وهذه المرحلة ممثلة في أبي بلال مرداس عندما خرج سنة 60هـ/680م ضد ولاة بني أمية بالمشرق ومرحلة الظهور هي التي يتم فيها انتخاب إمام للمسلمين من بين أتباع الدعوة عندما يكون لهم دولة خاصة بهمز (معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح1، ص 93-96، إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية أوضاعها الاقتصادية والفكرية، بدون دار نشر، بغداد، 1983م، ص 79-80).

4 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 92.

5 - عوض خليفات: نفس المرجع، ص 86.

6 - هو أبو عبيدة مسلم بن كريمة (45-145هـ/665-762م) مولى بني تميم، وأحد تلاميذ جابر بن زيد البارزين. ظل يتلقى العلم أربعين عاما ثم تفرغ لتعليمه. سجن في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي ثم أفرج عنه ليكون له دور كبير في نشر المذهب مشرقا ومغربا (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 238-248، الشماخي: السير، ج1، ص 78-80، انظر أيضا: معمر: المرجع السابق، ج1، ص 153، صفاء عبد الفتاح: الحركة الإباضية في المدينة المنورة، ص 25).

7 - عامر النجار: الإباضية ومدى صلتها بالخوارج، ص 125.

وقد رأى ابن إباض في نافع مخالفا للقران والسنة الأمر الذي جعل ابن إباض يخالفه وينشق عنه نظرا لآرائه المتطرفة، آثر عبد الله بن إباض القعود على الخروج معه،[1] ولهذا أطلق عليهم اسم "القعدة" تحقيرا لهم من وجهة نظرهم لأنهم قعدوا عن الجهاد في سبيل الله ومحاربة الولاة الظالمين.[2] وبذلك أصبح الإباضية مشركين في نظر الأزارقة،[3] ثم ما لبث أن انفصل عبد الله بن إباض عن عبد الله بن الصفار[4] الذي تنسب إليه فرقة من الخوارج عرفت باسم (الصفرية) نتيجة كتاب نافع بن الأزرق إليهما الذي بين فيه مبادئه السابقة، فلما قرأه عبد الله بن الصفار وضعه خلفه، ولم يقرأه على أصحابه خوفا من الفرقة، إلا أن عبد الله بن إباض أخذه وقرأه فقال: (قاتله الله ! أي رأي رأى فإن القوم كفار بالنعم والأحكام؟ وليسوا مشركين، ولا تحل لنا إلا دمائهم، وما سوى ذلك فهو علينا حرام)، فقال ابن الصفار "برئ الله منك فقد قصرت، وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا".[5]ففارقهم عبد الله بن إباض، وأنكر ما أظهروه من الشرك،[6] وتزعم فرقة الإباضية المعتدلين،[7] الذين ابتعدوا عن فرق الخوارج من حيث الغلو في دينهم على مخالفيهم.[8] ففي الوقت الذي اتجه فيه غلاة الشيعة، إلى إعلان الثورة المسلحة وواصلوا انتفاضاتهم التي اتسمت بطابع العنف والقسوة، واصطدموا مع الجيوش الأموية في

1 - محمد الرشيد: الخليج العربي في العصور الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى مطلع العصور الحديثة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1983م، ص 109 .

2 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 67، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، ص 141.

3 -البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 101

4 - اختلفت المصادر في تحديد نسبه فمنهم من ذكره أنه عبد الله بن صفار الذي انتسبت إليه الفرقة الصفرية ومنهم من ذكر أنه زياد بن الأصفر وهو ما اتفقت عليه كتب الفرق. وفي تقديرنا أن زياد بن الأصفر هو عبد الله وذلك حيث من عادة العرب المسلمين إضافة عبد الله إلى بعض الأسماء، وإطلاق الصفة على المعنى، في حين يرجع البعض الآخر سبب تسميتهم بالصفرية نظرا لكثرة العبادة التي أدت إلى اصفرار ألوانهم، وهم اقل تطرفا من الأزارقة في أرائهم، ولا يبيحون قتل النساء أو أطفال مخالفيهم. (المبرد: الكامل، ج3، ص 201 ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج1، ص 187، الأشعري: مقالات الإسلامية واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1969م، ج1، ص 182، البغدادي: المصدر السابق، ص 108، الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص 137، انظر أيضا: محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، 1985م، ص 44-45).

5 - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص 399.

6 - السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان، ج2، ص 85.

7 - المبرد: الكامل، ج3، ص 201، انظر أيضا: فيليب حنى وآخرون: تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت-لبنان، 1950م، ج3، ص 315.

8 - حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961م، ج 3، ص 392.

الدعوة إلى خارجها[1] من خلال التنظيم والتخطيط السليم،[2] لحملة العلم[3] الذين كانوا يختارونهم من بين أهالي المناطق التي يوفدون إليها لنشر المذهب الإباضي،[4] وذلك لمعرفتهم بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم ومستواهم الفكري والحضاري.[5] وهو ما جعلهم قادرين على جذب عدد كبير من الأنصار والمؤيدين للمذهب وإظهاره.[6] كذلك اهتم أبو عبيدة بالجانب المالي، حيث أقام بيت مال في البصرة، تجمع فيه الأموال عن طريق التبرعات حتى يستطيع دعم دعاته في مختلف الأمصار بالمال والرجال والسلاح ليكون عونا لهم على الصمود وإظهار أمرهم[7] واسند الإشراف عليه إلى أحد ثقاته أبي مودود حاجب الطائي[8] الذي أناط إليه كافة المهام المالية والعسكرية.[9]

1 - مثل عمان وحضرموت واليمن وخراسان وإفريقيا الشرقية وبعض أطراف الجزيرة العربية، وزنجبار. (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم المعروفة بتاريخ أبي زكريا، تحقيق: إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص 14).

2 - أبو زكريا: نفس المصدر، ص 14.

3 -- حملة العلم: هم الأشخاص المكلفون بنشر المذهب الإباضي من منبعه الأصلي بالبصرة إلى باقي الأقاليم الإسلامية. وحملة العلم في المغرب خمسة هم: عاصم السدراتي من غرب الأوراس، وأبو داود التفزاوي من نفزاوة جنوب افريقية، وإسماعيل بن درار الغدامسي من غدامس جنوب طرابلس، وعبد الرحمن بن رستم من القيروان، وأبو الخطاب المعافري إمام جبل نفوسة والذي تولى إمامة الظهور. (الشماخي: السير، ج1، ص 113، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 108، سيف البوسعيدي: حملة العلم إلى المغرب ودورهم في الدعوة الإسلامية، منشورات دائرة الوعظ والبحوث الإسلامية مسقط، 2003م، ص 21-35.)

4 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 55.

5 - عوض خليفات: المرجع السابق، ص 108.

6 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 13.

7 - صفاء عبد الفتاح: الحركة الإباضية في المدينة المنورة، ص 26-27.

8 - هو أبو مودود حاجب الطائي من علماء المذهب الإباضي، كان موصوفا بالزهد والورع، وكان الرجل الثقة الأول لدى أبو عبيدة مسلم أبي كريمة (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 248-253، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 84).

9 - الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 86، انظر أيضا: عوض خليفات: الأصول التاريخية للفرقة الإباضية؟، مطبعة دار الشعب، عمان-الأردن، 1978م، ص 10.

الفصل الأول

الدور السياسي لإباضية جبل نفوسة حتى سنة 144هـ/761م

الظروف والملابسات الانتشار المذهب الإباضي بجبل نفوسة

ثورات إباضية جبل نفوسة وضواحي طرابلس (أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي).

اتساع نفوذ الإباضية في المغرب الأدنى وموقف الخلافة العباسية منه

مقتل أبي الخطاب

الظروف والملابسات الانتشار المذهب الإباضي بجبل نفوسة

لما كانت بلاد المغرب ملاذا لأصحاب المذاهب الخارجة على طاعة الخلافة الأموية،[1] وجد الإباضية فيها أرضا بكرا لانتشار مذهبهم الذي صعب عليهم نشره في بلاد المشرق، مستغلين سوء تصرف عمال الدولة الأموية مع البربر، وعدم إقرار المساواة بين العرب والبربر، والنظر إليهم على أنهم أقل منهم، هذا في الوقت الذي رأى فيه البربر تطبيق مبدأ المساواة وفقا لقواعد الإسلام الذي جاءوا بها.[2]

ومع ذلك فالظاهر أن تسامح عمر بن عبد العزيز، ومحاولة مصالحة الخوارج كان هدنة أو نوعا من الهدوء هيأ لهم استعادة قواهم كما جعلهم يعدلون أيضا عن أراء المتعصبين منهم مثل الأزارقة، مما كان له أثر كبير في ظهور جماعتي الصفرية والإباضية وانتشارهم بالمغرب،[3] ومن هنا شكل أوائل القرن الثاني الهجري البدايات الحقيقية لانتشار المذهب الإباضي ببلاد المغرب عامة،[4] وجبل نفوسة بصفة خاصة.[5]

لذا بدأ مسمى لإباضية يظهر بشكل واسع أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز خاصة في كتبهم وكتاباتهم، ولكن بانتهاء فترة خلافة عمر بن عبد العزيز أخذ الشعور بالعصبية عند البربر في الظهور، لما لحقهم من ظلم على أيدي بعض الحكام الجائرين،[6]

1 - عبد الرحمن بشير: المعتزلة في المغرب الأوسط عصر الدولة المستقلة (140-296هـ/757-908م)، بحث ضمن مجموعة أبحاث دراسات في تاريخ العصور الوسطى، القاهرة، 2003م، ص 28.

2 - الجيطالي: شرح قواعد الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 22067ب، ورقة 22، انظر أيضا: عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الراشدين، ص 288.

3 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 111، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 292.

4 - السيد سالم: المغرب الكبير (العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ج2، ص 534، جمال مدكور: موسوعة الأديان في العالم (الفرق الإسلامية)، دار كريبس انترناشيونال، القاهرة، د.ت، ص 90.

5 - سليمان النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق، محمد الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافي، سلطنة عمان، 1987م، ج2، ص 35.

6 - احمد مختار عمر: النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، مطبعة دار

مثل: يزيد بن أبي مسلم (101-102هـ/719-720م) الذي أراد أن يقوم بإحياء ذكرى الحجاج بن يوسف الثقفي (40-95هـ/660-714م) ويسير مسيرته[1] في المغرب، ففرض الجزية على من اسلم من البربر، وادعى أن بلادهم فتحت عنوة لا صلحا،[2] ثم جاءت ولاية بشر بن صفوان (102-109هـ/720-727م) بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم،[3] وكان شغله الشاغل جمع لأموال من البربر وإرسالها كهدايا إلى بيت الخلافة،[4] وعندما علم هشام بن عبد الملك (105-125هـ/723-742م) بوفاة بشر بن صفوان في أوائل (110هـ/728م) عهد بولاية افريقية والمغرب[5] إلى عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (110-114هـ/728-732م) الذي أسرف في غزو البربر وسبي نسائهم.[6]

فعزله هشام لاستبداده بالبربر واضطهاده لعمال بشر بن صفوان،[7] وولى عبد الله بن الحبحاب (116-123هـ/728-732م) ولم يكن أحسن حالا من سابقيه، بل لقد عانى البربر طوال عهده من الظلم والشدة والطغيان،[8] وإن كان الدافع الحقيقي الذي دفع ابن الحبحاب وعماله إلى تلك القسوة هي الرغبة في إرسال المزيد من الأموال والسبي إلى الخلافة.[9]

فيقول ابن عذارى "وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل لإفريقية فيبعثون لهم بالبربريات السنيات، فلما أفضى الأمر إلى أن ابن الحبحاب مناهم بالكثير، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة".[10]

ومن أساء السيرة أيضا عمر بن عبد الله المرادي عامل ابن الحبحاب على طنجة،[11] حين

الكتب، بيروت-لبنان، 1972م، ص 78.

1 - الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء افريقية، مطبعة بيكاريونس، ليبيا، 1323هـ، ص 13.

2 - احمد مختار: المرجع السابق، ص 87.

3 - البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق عبد الله الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987م، ص 324.

4 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب/ ج1، ص 290، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ح1، ص 277.

5 - السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: أ/جعفر الناصري وآخرون، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج1، ص 93.

6- صالح مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 67.

7 - الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، مطبعة الوسط، تونس، 1968م، ص 106.

8 - احمد أمين: ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1945م، ص 293.

9 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 290.

10 - البيان المغرب، ج1، ص 52.

11 - طنجة: مدينة كبيرة تقع على آخر حدود افريقية في الغرب وبالتحديد غرب مدينة سبتة بحوالي 1,5 كم وتعرف طنجة بالبربرية "وليلي"، سكانها من أهل صنهاجة إحدى بطون البربر البرانس، فتحها عقبة بن نافع في آخر ولايته (البكري: المغرب، ص 104،108-109)

أراد تخميس البربر كما يفعل بأموال المشركين زاعما أن البربر و أموالهم غنيمة للأمويين، وهو ما لم يرتكبه عامل قبله،[1] وإنما كان الولاة يخمسون ما لم يجب إلى الإسلام،[2] هذا ولم يقتصر ظلم ولاة بني أمية على سائر البربر، بل تجاوز ليشمل المنخرطين في الجيش،[3] فقد كان لا يسوى بين العرب والبربر أثناء الحرب، فيجعل المسلمين من البربر في المقدم مع حرمانهم من حقوقهم في تقسيم الغنائم الذي يتحصلون عليها خلال الحملات العسكرية.[4]

ولقد عمد الولاة أيضا إلى الماشية فجعلوا يبقرونها عن السخال،[5] يطلبون الفراء العسلي لأمير المؤمنين مما جعلهم يذبحون ما يقرب من مائة شاة وربما لم يوجد فيها جلد واحد فيزيدون، فكان من الطبيعي أن يتعذب صاحب قطيع الغنم إذ يرى غنمه تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ويعز عليه ضياع كل ماله بهذه الكيفية الوحشية.[6]

ولم يقتصر عمر بن عبد الله المرادي عند هذا الحد بل وصلت به درجة الامتهان بالبربر أنه كان يتخير الجميلات منهن ويرسلهن كهدايا إلى بيت الخلافة في الشام، والبربر أهل نخوة وشرف لا يحبون الخضوع لأحد بل اخذ يتصرف في أموالهم وحريمهم دون رأيهم.[7]

وبذلك لم يكن هناك أي مساواة في الحقوق بين العرب والبربر التي اقرها الإسلام،[8] فنجم عن هذه السياسة الغاشمة التي اتبعها الأمويون تجاه رعاياهم[9] قيام الثورات البربرية في افريقية نظرا إلى حبهم للاستقلال الذي يتمتع به جنسهم.[10]

1 - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د.حسن نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م، ج24، ص 59.

2 - ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 52.

3 - لطيفة البكاي: الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي (37-132هـ) دار الطليعة، بيروت، د.ت، ص 217.

4 - لقبال موسى: الحركة الخارجية المغربية، مقال ضمن مجلة المجاهد الثقافي، مطبعة المجاهد، ببليس- الجزائر، 1986م، ع99 (5)، ص 29.

5 - السخال: جمع سخله وهو ولد الشاة (خليا الجر: معجم لاروس، مكتبة لاروس، باريس، 1973م، ص 654.).

6 - مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق د.محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م، ص 68، انظر أيضا إبراهيم العدوى: تاريخ العالم الإسلامي، مطبعة جامعة القاهرة، 1984م، ص 123، السيد سالم: المغرب الكبير ، ج2، ص 1982م، ص 2132.

7 - لقبال موسى: المرج السابق، ص 29.

8 - عبد الرحمن بشير: المعتزلة في المغرب الأوسط، ص 29.

9 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 31.

10 - صالح مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 67.

وكان سوء الحالة الاقتصادية إبان الحروب التي استمرت أكثر من سبعين عاما التي استغرقها فتح العرب للمغرب،[1] تم في بعضها تخريب المزارع، وإحراق الأشجار عمدا وهي ما فعلته الكاهنة[2] في حربها مع حسان بن النعمان (67-68هـ/695-705م)،[3] مما أدى إلى اندلاع ثورات الخوارج في كل مناطق الشمال الإفريقي الذي كان سببا في تفاقم هذه الأزمة،[4] وكانت من أهم هذه الثورات: ثورة ميسرة المدغري[5] سنة 122هـ/739م، وهي أول ثورة في المغرب تكون سببا في إلهاب حماس بقية البربر،[6] حيث انتهز البربر فرصة خروج حبيب بن أبي عبيدة والي طنجة من قبل عبيد الله بن الحبحاب إلى الروم،[7] وقامت ثائرتهم التي أودت بعزل ابن الحبحاب بعد انهزام الجيش الأموي أمام البربر في موقعة الأشراف[8] سنة 122هـ/740م أو أوائل سنة 123هـ/741م[9] وعندما وصلت أنباء الهزيمة إلى الخليفة هشام بن عبد الملك اختار لولاية افريقية شيخا من أعيان القيسية المخلص هو كلثوم بن عياض القشيري وجعل له نائبين احدهما ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، وجهز لهما جيشا عظيما انهزم أمام البربر في موقعة بقدورة[10] سنة 123هـ/741م.[11]

ومما لا شك فيه أن إخفاق ولاة الأمويين في افريقية إنما يرجع إلى إساءتهم معاملة

1 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 271.

2 - الكاهنة: هي داهية بنت تاتيت الزناتية، كبيرة قبيلة جراوة والبتر، وصاحبة جبل أوراس ملكت عليهم خمس وثلاثون سنة وعاشت مائة وسبعا وعشرين سنة، وسميت بالكاهنة لأنها كانت بارعة في الكهانة وأعمال السحر (السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 82-83).

3 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص 36.

4 - محمود إسماعيل: المرجع السباق، ص 271.

5 - هو ميسرة المدغري أو (المضغري) نسبة إلى بني مضغرة بطن من فاتن بن تامصيت بن ضري بن زحيك لن مادغيس الأبتر، وكان يعرف بالحقير وهو إمام الصفرية وشيخهم، ولقب بأمير المؤمنين، قاد البربر في ثورة عارمة باحواز طنجة إلا أنه قتل من قبل أتباعه لسوء سيرته رغم نجاح ثورته، (ابن عذارى: المصدر السابق، ج1، ص 52-53، السلاوي، المصدر السابق، ص 97-98).

6 - مجهول : تاريخ البربر المعروف "بمفاخر البربر"، تحقيق د.محمد زينهم، جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ج1، ص 52، انظر أيضا: صالح مفتاح: الرجع السابق، ص 67.

7 - الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 109.

8 - الإشراف: مكان بالقرب من طنجة، وسمي بذلك لهزيمة حماة العرب وفرسانهم تحت قيادة خالد بن أبو حبيب الفهري أمام البربر الذي قد ولاه عبيد الله بن الحبحاب عليهم لإخضاع البربر بعد ثورتهم بقيادة ميسرة المدغري، فقتل خالد بن أبو حبيب ومن معه حتى لم يبق من أصحابه رجل واحد. (ابن عذارى: ليبيا المغرب، ج1، ص 53-54، انظر أيضا سعد زغلول: المغرب العربي، ج1، ص 297).

9 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 192، النويري: نهاية الأرب/ ج24، ص60، انظر أيضا: سعد زغلول: المرجع السابق، ج1، ص 302.

10 - بقدورة: موضع على واد نهر سبوا يبعد عن مدينة فاس بحوالي 6 كم (البكري: المغرب، ص 141، انظر أيضا: سعد زغلول: المرجع السابق، ج1، ص 302).

11 - ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 294، انظر أيضا: سعد زغلول: نفس المرجع، ج1، ص 299.

البربر، وإرهاقهم بالجبايات والمغارم، واعتبار دارهم دار حرب حتى بعد اعتناقهم الإسلام، جريا على سياسة الأمويين في مختلف الأمصار الإسلامية، وذلك خلاف عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي قام بإلغاء ضريبة الرؤوس والجزية من كافة الأمصار المفتوحة[1] ومما سبق يتبين مدى استياء البربر من هذه الأفعال القبيحة التي لا تنطبق مع تعاليم الإسلام، ومن سلوك هؤلاء العمال مما زاد من عمليات التمرد.[2]

ومن البديهي أن يلاقى بربر جبل نفوسة ما لاقاه إخوانهم من ظلم الولاة الأمويين سواء كان في افريقية أو غيرها من بلاد المغرب لخضوعهم لنفس الولاة، ذلك، ولم تسعفنا المصادر التاريخية على حد علمنا بمادة كافية لإيضاح مدى الظلم الواقع على بربر جبل نفوسة صراحة مثلما ذكرته في طنجة وغيرها من بلاد المغرب الأقصى، وما ذكره احد الباحثين في هذا الشأن ظهور مدى الأهمية الإستراتيجية لطرابلس حيث أصبحت قاعدة خلفية للعرب لحماية وجودهم في افريقية، مما جعل العرب يتمسكون بها، وزادهم في الإساءة إلى البربر، وتضييق الخناق عليهم، وكان أشد البربر إحساسا بهذا الظلم بربر جبل نفوسة الذي وقع عليهم من جانب ولاة العرب السابق ذكرهم، وكل ذلك كان سببا في محاولتهم تقويض الحكم الأموي، وتدميره بأي وسيلة كانت[3] هذا في حين كان طغيان الأمويين يلاحق دعاة الإباضية في كل مكان ففكروا في الفرار عنهم[4] من المشرق إلى أطراف الدولة الإسلامية وعلى الأخص بلاد المغرب، فاختار أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة سلمة بن سعد أنجب تلاميذه لنشر المذهب هناك خاصة بعدما أدرك أبو عبيدة مسلم صعوبة الدعوة له في المشرق الإسلامي.

وكان اختيار سلمة بن سعد للقيام بهذه المهمة الشاقة نظرا لعلمه الغزير فضلا عن حماسه الشديد للإباضية[5] فهو القائل "وددت لو ظهر هذا الأمر (المذهب الإباضي) يوما واحدا من أول النهار إلى آخره، فلا آسف على الحياة بعده"،[6] وتوجه سلمه بن سعد إلى المغرب في أوائل القرن الثاني الهجري[7] وبالتحديد بعد عام 95هـ/713م[8] ليتقصى

1 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 34.

2 - علي محمد الصلأبو: عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، دار البيارق، عمان- الأردن، 1998م، ص 54.

3 - صالح مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 6.

4 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح1، ص 145.

5 - السيد سالم: المغرب الكبير، ج1، ص 534.

6 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 12.

7 - السيد سالم: المرجع السابق، ج2، ص534.

8 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 35.

أمور هذه البلاد البكر في إقامة إمامة إباضية هناك، ونظرا لذكاء الداعية سلمه بن سعد وحنكته السياسية والجغرافية فقد أوصله ذلك إلى الاستقرار بمنطقة جبل نفوسة[1] لأنه رأى أن من خصائص الأماكن ذات التضاريس الوعرة أن تصبح ملاذا وملاجئ لأصحاب المذاهب الرافضة لحكم السلاطين، وخلفاء الدولة الاستبدادية كالأمويين وغيرهم[2] هذا فضلا عن بعد جبل نفوسة عن السلطة المركزية الحاكمة للأمويين في المشرق ثم العباسيين بعد ذلك.

ومن هنا أصبح جبل نفوسة منطقة استقرار للإباضية ومركزا أساسيا في ميدان الصراع بين البربر وجند الخلافة[3] وهو ما أكده "الأنصاري" عندما ذكر أن الإباضية كان مركزهم الكبير في تلك الآونة في جبل نفوسة ثم امتد عمرانهم ليصل من المناطق الممتدة من جبل نفوسة إلى تاهرت[4] بالمغرب الأوسط الذي قامت فيه دولة الرستميين (160-296هـ/776-908م).[5]

ومما ميز جبل نفوسة عن غيره من المناطق: أنه منطقة جبلية واسعة جنوبي طرابلس، كما أنه جبلا واسعا حصينا وعر المسالك، وكثير الزروع، كذلك كان لوقوعه في الجناح الغربي للدولة الإسلامي ما جعله يتمتع بفراغ سياسي أتاح الفرصة لجماعة المتحمسين لنشر المذهب الإباضي، وإنشاء دولة بعيدة عن متناول خلفاء بني العباس، التي لم يكن لها سلطان على جبل نفوسة، أو حتى ولاتهم لشدة تضاريسه ووعورته[6]

وبذلك استطاع سلمه بن سعد أن يكسب أنصارا كثيرين عن طريق تشويقهم للمذهب الإباضي فكان له أثر كبير في انتشاره بالمغرب،[7] حيث أرسل جماعة من معتنقي الإباضية في جبل نفوسة وافريقية،[8] إلى البصرة وهو ما تم ذكرهم آنفا باسم "حملة

1 - النفوسي: الأزهار الرياضية/ ج2، ص35، انظر أيضا: صالح الصوافي، الإمام جابر بن زيد العماني وآثاره في الدعوة، ص 199، حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن السادس إلى القرن التاسع الميلاديين، العصر الحديث، بيروت-لبنان، 1992م، مجلد1، ج1، ص 321.

2 - الأنصاري: نفحات النسرين والريحان، ص 18.

3 - محمد حسن: حول إحدى القبائل البربرية نفوسة، ص 107.

4 - مدينة قديمة تقع في سفح جبل يسمى قرقل، تتميز ببردها الشديد وكثرة ثلوجها، وفي غربها بنحو 7,5 كم تقريبا أسس عبد الرحمن بن رستم مدينة تاهرت الحديثة (البكري: المغرب، ص 67-80، مجهول: الاستبصار، ص 178)

5 - نفحات النسرين والريحان، ص 7، انظر أيضا جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة. محمود هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991م، ج1، ص 10.

6 - حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 115.

7 - السيد سالم: المغرب الكبير/ ج2، ص 535.

8 - الجربي: مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تحقيق محمد المرزوقي، المطبعة الرسمية، تونس، 1960م، ص 45، انظر

العلم" ليأخذوا العلم من منبعه الصافي على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة[1] ولما لم يمتد الأجل طويلا بسلمه بن سعد،[2] خلفه في دعوته وحل محله ابن مغطير الجناوني[3] الذي سافر من موطنه بجبل نفوسة إلى البصرة ليغترف العلم من الأصول الأولية للمذهب الإباضي[4] على يد أستاذه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة[5] وبعدما أتم دراسته: عاد إلى جبل نفوسة، وأصبح مرجعا في التدريس والفتوى حتى تخرج "حملة العلم" من البصرة وعادوا إلى المغرب الإسلامي[6] فاعتذر ابن مغطير الجناوني عن الفتوى مشيرا إلى أن حملة العلم" أولى منه بذلك لأنهم أخذوا عن أبي عبيدة مسلم بعد أن حرر جميع الأقوال وفندها،[7] وبذلك يتبين أن أول بعثة علمية لتعلم المذهب الإباضي في بلاد المغرب كانت من جبل نفوسة ممثلة في ابن مغطير الجناوني، ثم تتابع بعده بعثة "حملة العلم".[8]

ولقد كانت الصفات التي تمتع بها ابن مغطير الجناوني من شدة الشكيمة وقوة العريكة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[9] دور كبير في تسهيل انتشار المذهب الإباضي بين بربر جبل نفوسة خاصة في مستهل القرن الثاني للهجرة[10] ومنذ ذلك الحين أصبح جبل نفوسة دار هجرة للمذهب الإباضي في بلاد المغرب.[11]

أيضا: صالح الصوافى الإمام جابر بن زيد، ص 199.

1 - مقرين البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط حصل عليه الباحث من مكتبة احمد الفساطوي، بجزيرة جربة، تونس، ورقة (4)

2 - لا نعرف من المصادر التي رجعنا إليها أين ومتى ولد سلمه بن سعد أو حتى وفاته، وفي تقديرنا أنه ينتمي إلى الطبقة الثالثة أي الذين ترفوا قبل عام 150هـ/767م، وهي نفس الطبقة التي ينتمي إليها أبو عبيدة مسلم بن أبو كريمة على اعتبار أن سلمه بن سعد كان أحد تلاميذه وتوفوا قبله. (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 12، الشماخي: السير، ج1ظن ص90-91، انظر أيضا: معمر: بالإضافة في موكب التاريخ، ح2، ق1 ص 25-26).

3 - هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني من إجناون أجمل قرى جبل نفوسة واجناون لفظ بربري معناه الجنان جمع جنة وبها عين ثرارة تسقي القرية حدائقها الغناء. (الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 290، الشماخي: مقدمة التوحيد وشروحها، تعليق. إبراهيم اطفيش، القاهرة، 1353م، ص 8).

4 معمر: المرجع السابق، ح2، ق1، ص 28.

5 - الشماخي: السير، ج1، ص 128.

6 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 28.

7 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 128

8 - الصوافي: الإمام جابر بن زيد، ص 199.

9 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، 128.

10 - الوسياني، سير الربيع بن عبد السلام الوسياني، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 9113ح، ورقة 89، انظر أيضا: محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 54.

11 - ابن حوقل: صورة الأرض، ص 68، انظر أيضا: محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية، القاهرة، 1973م، ص 35.

فضلا عن اعتبار جبل نفوسة المركز الرئيسي في بلاد المغرب الذي انتقلت منه أشعة المذهب الإباضي إلى القبائل الأخرى مثل هوارة ولماية[1] وزناته وسدراته،[2] وزواغة،[3]، ولواته.[4]

وإن كان يرجع الفضل في انتشار المذهب الإباضي أولا بين كثير من قبائل المغربين الأدنى والأوسط إلى سلمه بن سعد، وابن مغطير الجناوني[5] فلقد أصبح اعتناق البربر للإباضية احد أسباب مناوئة العرب الفاتحين، والثورة في وجوههم[6] فيبدو أن نجاح حركات الصفرية في المغرب الأقصى كما رأينا آنفا قد أغرى إباضية المغرب الأدنى بالتعجيل للقيام بثورات مماثلة قبل أن يتهيؤا له، أو تتوافر الظروف المناسبة لتي تساعد على نجاحها.[7]

1 - لماية: هي بطون فاتن بن تمصيت إخوة مطغرة، وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط معا يلي الصحراء (ابن خلدون: العبر، دج6، ص 122.)

2 - سدراته: قبيلة من قبائل البربر البتر. واهم مواطنها جبال أوراس. (ابن خلدون: العبر، ج6، ص 92، انظر أيضا: البوسعيدي: حملة العلم إلى المغرب، ص 25.)

3 - زواغة: قبيلة من البربر البتر وهم اوزاع في قبائل ن منهم جماعة بنواحي طرابلس ومدينتهم تعرف بزواغة تقع غربي صبراته بنحو 10 كم تقريبا، وهي الآن أطلالا (ابن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص 131، انظر أيضا: الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 12.).

4 - ابن خلدون: نفس لمصدر، ج6، ص 122، انظر أيضا: صالح مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 74.

5 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 55.

6 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 43.

7 - محمود إسماعيل: المرجع السابق ن ص 82.

ثورات إباضية جبل نفوسة وضواحي طرابلس

في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي

أولا: ثورة عبد الله بن مسعود التجيبي 129هـ/747-748م.

عندما كانت الدولة الأموية تصارع سكرات الانهيار والضعف، اعتزم عبد الرحمن بن حبيب الفهري (127-138هـ/744-755م) المتغلب على افريقية: احتلال القيروان، وضمها إلى تونس[1] فأرسل إلى حنظلة بن صفوان (124-129هـ/741-746م) يطلب منه تسليم المدينة دون قتال، فاستجاب حنظلة لمطلب عبد الرحمن بن حبيب حقنا لدماء المسلمين، وتم له ذلك سنة 126هـ/743م[2] واستقل عبد الرحمن بن حبيب بأمر افريقية وخاصة بعدما كتب إليه مروان بن محمد (127-132هـ/744-749م) آخر خلفاء بني أمية بإقرار ولايته عليها[3] هذا في الوقت الذي كان فيه لمكانة الإباضية الواسع الانتشار في جبل نفوسة، وضواحي طرابلس أثر كبير في توجيه أغراضهم وصياغة أفكارهم لتأسيس إمامة إباضية خاصة بهم، وذلك بواسطة دعاة مهرة اكتفوا في أول عهدهم بلقب الشيوخ أو الرؤساء، وقادوا أتباعهم للحروب دفاعا عن نظرياتهم المذهبية، كان أولهم عبد الله بن مسعود التجيبي[4] الذي كان أحد رجال الإباضية البارزين آنذاك فضلا عن عمله وورعه وتقواه، فقد كان صاحب شخصية قوية، حسن التدبير فتعلقت آمال الإباضية به وعزموا على تنصيبه إماما لهم، وما أن نما إلى علم عبد الرحمن بن حبيب ذلك ولى أخاه إلياس بن حبيب على طرابلس وأحوازها مدعما إياه بقوة عسكرية كبيرة، ليحول بين الإباضية، ويمنعهم من تأسيس دولة لهم[5] وعندما وصل إلياس إلى طرابلس استطاع القبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله سنة 129هـ/747-748م[6] وقد

1 - على الصلأبو: عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص 68.

2 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 301.

3 - البلاذري: فتوح البلدان، ص 325.

4 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 43.

5 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق ج1، ص 301، انظر أيضا: محمد علي دبوز: المغرب الكبير، در إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1963م، ج2، ص 410.

6 - ابن عبد الحكم : المصدر السابق ن ج1، ص 301، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 326، الزاوي: ولاة طرابلس، ص 43.

أثار مقتل عبد الله بن مسعود التجيبي غضب الإباضية فأعلنوا الثورة على عبد الرحمن بن حبيب الذي حاول بدوره أن يحتوي غضبة الإباضية ويعمل على تهدئة الأمور فعزل أخاه إلياس بن حبيب عن طرابلس، وولى مكانه حميد بن عبد الله العكي.[1]

ثانيا ثورة الحارث بن تليد الحضرمي سنة 130هـ/747م.

على الرغم مما فعله عبد الرحمن بن حبيب لإرضاء الإباضية، إلا أن ذلك لم يوقف انتفاضتهم فرفعوا راية الثورة والعصيان ضد عبد الرحمن بن حبيب، لأ هدفهم الأول هو تأسيس دولة لهم، فاختاروا الحارث بن تليد إماما لهم خلفا، قام فيها إباضية جبل نفوسة وهوارة وزناتة وغيرها، واتخذ الحارث بن تليد عبد الجبار بن قيس المرادي قاضيا ووزيرا له.[2] وبدأ عبد الجبار العمل على الفور فاتجه بجموع الإباضية إلى حصار حميد بن عبد الله العكي في بعض قرى طرابلس، وزاد من سوء حالته وقوع الوباء في عسكره فاضطر إلى مفاوضة الثوار، وتم الاتفاق على أن يخرج هو ورجاله من طرابلس بأمان[3] ورغم هذا الاتفاق فلم يهدأ لعبد الجبار بن قيس بالا إلا بقتل أحد كبار أصحاب حميد بن عبد الله ويدعى نصير بن راشد الأنصاري، انتقاما وثأرا لمقتل رئيسهم عبد الله بن مسعود التجيبي[4] ومما زاد من قوة الإباضية نجاحهم في ضم قبيلة زناتة للمذهب الإباضي بعد أن وقفت بجانبهم وساندهم في جبل نفوسة،[5] خاصة وأن زناتة تعتبر من أكبر قبائل البربر البتر غلبة وقوة.[6]

ونتيجة لما سبق وجه عبد الرحمن بن حبيب واليا جديدا إلى طرابلس هو يزيد بن صفوان، واختار رجلا من هوارة يدعى مجاهد بن مسلم ليبعدهم عن تأييد الإباضية، ويدخلهم في مناصرة عبد الرحمن بن حبيب، ولكن باءت مساعيه بالفشل بطرد هوارة لمجاهد بن مسلم الذي توجه إلى يزيد بن صفوان بطرابلس.[7]

وبذلك قرر عبد الرحمن بن حبيب استبدال الترغيب بالترهيب، فسير إلى طرابلس فرقة من خيالته بقيادة محمد بن مفروق، وكتب إلى يزيد بن صفوان بالمسير معه ضد

1 - أحسان عباس: تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري، دار ليبيا بنغزي، 1967م، ص 43.

2 - الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 129، انظر أيضا دبوز: المغرب الكبير، ج2، ص 411.

3 - ابن عبد احكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 301، انظر أيضا صالح مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 79.

4 - ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ح1، ص 301.

5 أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 16.

6 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 147.

7 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب/ ج1، ص 301، انظر أيضا: زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 327.

الثوار، وتم اللقاء بين قوات عبد الرحمن بن حبيب، وبين قوات عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد بموضع من أرض هوارة.[1]

ولما رأى عبد الرحمن بن حبيب انهزام قواته على هذا النحو المخزي، أعد جيشا أكثر عددا وعدة ووضع عليه عمرو بن عثمان غير أن هذا الجيش لم يكن أحسن حالا من سابقيه إذ مني بالهزيمة أيضا[2] وولى عمرو بقواته هاربا فتتبعهم الحارث بن تليد وأدركه عند بلدة دغوغا،[3] حيث أوقع بهذا الجيش هزيمة ثانية عند سرت قتل فيها عدد كبير من أصحاب عمرو بن عثمان، وفر الباقون على رأسهم عمرو الذي أسخنته الجراح،[4] واستولى الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس على جميع الأراضي الطرابلسية،[5] وبذلك اتسعت حدود دولتهم من سرت إلى قابس[6] بما فيها جبل نفوسة وطرابلس،[7] ولكن سرعان ما نشب الخلاف بين الحارث، وعبد الجبار فاقتتلا سنة 131هـ/748م وقتل كل منهما الآخر.[8]

وهنا تختلف المصادر[9] حول دوافع هذا الحادث، وفي تقديرنا من خلال ما تطرقت إليه المصادر التاريخية وعلى الأخص الإباضية منها، أن عبد الرحمن بن حبيب قد سأم من محاربتهما فدبر لهما مكيدة حيث أغرى كلا منهما بالحكم فتنازعا فيما بينهما مما أدى إلى اختلافهما، فقتل كل منهما الآخر، ونستند في ذلك إلى الاختلاف الذي وقع فيه الإباضية من أهل المشرق في هذه المسألة، مما جعل جهابذة علماء المذهب الإباضي آنذاك

1 - المكان هنا غير معلوم حيث لم تحدده لمصادر، ولكن ارض هوارة تمتد من ساحل طرابلس شمالا إلى ما وراء جبل نفوسة حيث كانت تقطن جبل مسلاته، وبرقة، وسرت، ومسراته.

2 - إحسان عباس: تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي، ض 44.

3 - قارن ابن خرداذبة حيث كتبها رغوغا بالراء وهي على بعد 127 ميلا تقريبا غرب سرت، ميلا غرب قصور حسان (المسلك والممالك، ص 86).

4 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 302.

5 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 44.

6 - قابس: مدينة جليلة عامرة تقع غرب طرابلس بنحو 150 ك تقريبا، أهلها أخلاط من العرب والعجم، والبربر (اليعقوبي: البلدان، ص 136، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن، 1909م، ص 224.)

7 - دبوز: المغرب الكبير، ج2، ص 312.

8 -أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 16.

9 - لقد اتفقت بعض المصادر إنهما اختلفا فاقتتلا ووضع كل منهما سيفه في جسد صاحبه (البرادي: الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبو العباس الدرجيني، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 8456ح، ورقة 87، الشماخي: السير، ج1 ص 114، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، هامش ص 328) في حين ذكرت مصادر أخرى أن عبد الرحمن بن حبيب حاربهما فقتلهما (الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 129، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 313) بينما نجد في رواية ثالثة أن عبد الرحمن بن حبيب اغتالهما خفية وأوصى القتلة بوضع سيف كل منهما تجاه الآخر (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 24).

أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وأبا مودود حاجب الطائي يأمران بالكف عن ذكرهما[1] هذا فضلا عن ذلك شرط أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري عند توليه إمامة الإباضية في جبل نفوسة بعدم ذكر مسألة الحارث وعبد الجبار في عسكره فوافقوا له على طلبه،[2] ونحن نعلم جيدا أنه عندما يؤمر بالنهي عن شيء فهو في الغالب غير محمود ومنبوذ. في حين يأتي رأي باحث محدث اجتهادا منه في هذه المسألة: أن عبد الرحمن بن حبيب دس عليهما من قتلهما، وقد جعل القتلة مقبض سيف كل منهما إلى صاحبه، ليتوهم الناس إنهما تنازعا فقتل كل منهما الآخر.[3]

ثالثا: إمامة إسماعيل بن زياد النفوسي (132هـ/749م)

عقب مقتل الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس بادر إباضية جبل نفوسة بمبايعة إسماعيل بن زياد النفوسي إماما عليهم[4] لعظم شأنه وكثرة مؤيديه،[5] منتهزين فرصة اضطراب أمر المغرب على الأمويين[6] فتوجه إسماعيل على رأس إباضية جبل نفوسة إلى قابس واستولى عليها[7] سنة (132هـ/749م) وأطلق أيضا عليه لقب "إمام دفاع" ومع ذلك لم يهنأ إسماعيل بن زياد بإنجازاته طويلا حيث قتل قرب قابس[8] في إحدى المعارك التي خاضها ضد جيش القيروان بقيادة عبد الرحمن بن حبيب الذي انتقم من ثوار الإباضية بصلبهم وضرب أعناقهم[9] ويشير الرقيق إلى ذلك بشيء من التفصيل فيقول "امتحن الناس بهم، وابتلاهم بقتل الرجال صبرا يؤتي بالأسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله"،[10] كما عهد إلى عمر بن سويده المرادي[11] عامله على طرابلس بتوزيع المغانم التي غنمها من الإباضية على جنده[12] وبذلك استعاد عبد الرحمن بن حبيب طرابلس سنة 131هـ/748م، وعمر سورها في العام التالي،[13] لتحصينها من

1 - البرادي: الجواهر المنتقاة، ورقة 87، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 24، الشماخي: السير، ج1،ص 114.

2 - أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم، ص 58.

3 - دبوز: المغرب الكبير، ج2، ص 413.

4 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 53.

5 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 302.

6 - الجربي: المصدر السابق، ص 53.

7 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 113.

8 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 16.

9 - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 302.

10 - تاريخ افريقية والمغرب، ص 129.

11 - ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ج1، ص 302.

12 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 84.

13 - الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، القاهرة، 1961م، ص 51.

خطر الإباضية،[1] وانتقل الناس إليها من كافة الأرجاء،[2] وعاد عبد الرحمن بن حبيب بعد قضائه على هذه الثورة إلى القيروان، وظل عمر بن سويده واليا على طرابلس[3] إلى أن ثار عليه إمام جبل نفوسة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني سنة 140هـ/757م،[4] أحد حملة العلم إلى المغرب[5] ولذا قام أبو الخطاب بالقبض على والي طرابلس السابق وخيره بين البقاء مع الأمان أو الخروج، فاختار الخروج ورحل إلى المشرق.[6]

رابعا: إمامة أبي الخطاب الإباضي (140-144هـ/757-761م)

كان عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على افريقية - عندما تأكد من انتصار العباسيين والبيعة للخليفة أبي العباس عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح (132-136هـ/749-753)، - قد بادر بالاعتراف بخلافته، ووافق أبو العباس من جهته على إقراره في ولاية افريقية، في نظير تقديم الأموال السنوية إلى دار الخلافة وإشراكه فيما يحصل عليه من المغانم حسب ما يقرره القانون.[7]

ثم توفي السفاح وولى الخلافة بعده أبي جعفر المنصور (136-158هـ/753-774م) أقر عبد الرحمن بن حبيب على افريقية وأرسل إليه خلعة سوداء فلبسها، وهي أول سواد دخل افريقية، فأرسل إليه عبد الرحمن برسالة له قائلا "إن افريقية اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها والمال، فلا تطلب مني مالا"،[8] مما اغضب الخليفة أبا جعفر المنصور من لهجة هذه الرسالة، وكتب إليه يتوعده، فاثأر غضب عبد الرحمن بن حبيب، فجمع الناس وخطب فيهم قائلا "إني ظننت أن هذا الخائن يدعونا إلى الحق حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل واني قد خلعته كما خلعت نعلي وقذفه من رجله" ثم دعا بخلع السواد.[9]

وقد استغل أخوه إلياس بن حبيب الخلاف الواقع بين أبي جعفر وعبد الرحمن بن حبيب، فتآمر مع أخيه عبد الوارث على قتل عبد الرحمن، وكان سبب تآمرهما عليه أنه

1 - محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 84.

2 - بن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص 63.

3 - الزاوي: ولاة طرابلس، ص 46.

4 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 45، انظر أيضا: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجم بعض فصوله د.سيدة الكاشف وآخرون، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1951م، ج1، ص 101.

5 - البوسعيدي: حملة العلم إلى المغرب، ص 21.

6 - الزاوي : ولاة طرابلس، ص 46.

7 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 313، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 332.

8 - ابن الأثير : نفس المصدر، ج5، ص 314.

9 - الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 134.

كان يبعث أخاه إلياس إلى ثائر يخرج عليه فيقاتله حتى يظفر بالنصر. فينسبه عبد الرحمن إلى ابنه حبيب. وظل على هذا إلى أن ولاه العهد.[1] واستطاع الإخوان إلياس وعبد الوارث قتل أخاهما عبد الرحمن. وتولى إلياس الحكم من بعده. غير أنه لم يهنأ طويلا في الحكم. فقد ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب وتولى زمام الأمور. وما كاد الأخير يستقر في القيروان حتى ثارت عليه ورفجومة الصفرية.[2] ولم يصمد أمامهم عبد الرحمن بن حبيب طويلا حيث قتل سنة 140هـ/757م. على يد قائدهم آنذاك عبد الملك بن الجعد اليفرني الذي توجه على الفور إلى القيروان واستولى عليها[3] وقد تصادف في ذلك الحين عودة بعثة "حملة العلم" إلى المغرب بعد أن امضوا في مدينة البصرة خمس سنوات تلقوا خلالها العلم وتعاليم المذهب الإباضي على يد أستاذهم أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة.[4] كان من بينهم أبو خطاب عبد الأعلى المعافري الذي قدم إلى جبل نفوسة بصحبة زملائه إثر مقتل إسماعيل بن زياد النفوسي[5] وسيصبح هؤلاء فيما بعد

1 - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب. ج24. ص 64.

2 - بعد مقتل إلياس بن حبيب تمكن أخوه وحليفه الوارث من الإفلات بمن بقي معه من المنهزمين من أصحاب إلياس. والجأ إلى قبيلة من بربر الخوارج الصفرية تسمى ورفجومة (بطن من بطون قبيلة نفزة التي تنتمي إلى لواتة البترية) حيث رحب بهم زعيمها عاصم بن جميل. وكتب حبيب إلى عاصم يطلب منه تسليم عمه عبد الوارث وأصحابه. وهدده وكان رد عاصم بن جميل هو التحالف مع يزيد بن سجوم (سكوم) أمير قبيلة ولهاصه. وبفضل إعلان الولاء والطاعة إلى الخليفة العباس الشرعي أبو جعفر المنصور انضمت كل قبائل نفزاوة إلى الحلف. وقررت الخروج لاستخلاص القيروان. وسار حبيب بن عبد الرحمن نحو نفزاوة للقاء عاصم بعد أن استخلف على القيروان القاضي أبا كريب جميل بن كريب المعافري. ولكن القتال انتهى بانهزام حبيب نحو قابس. والاعتصام بها وزحف عاصم وبصحبته أخوه مكرم نحو قابس ولكنه تركها وراء ظهره وسافر إلى القيروان مباشرة. كما كان لتظاهر البربر بالدعوة للخليفة المنصور أثره في انقسام أهل القيروان. فعندما اقترب عاصم من عاصمة افريقية كتب إليه والى أشياخ ورفجومة بعض أعيان القيروانيين برغبتهم في الدعاء للخليفة أبو جعفر المنصور وهم يظنون أن ذلك منجاة لهم من انتقام البربر. وهذا ما يفسر كيف انهزم القيروانيون بمجرد خروج بعض عساكر عاصم إليهم. فتفرقوا إلى القيروان. وتركوا قاضيهم "أبا كريب في نحو ألف رجل من أهل الدين مستسلمين للموت. فقاتلوا حتى قتل أبو كريب وأكثر أصحابه". وذلك في موضع عرف فيما بعد (بوادي أبو كريب) في ناحية الحبلى من القيروان سنة 139هـ/756م وبذلك دخلت قبيلة ورفجومة وحلفائها من نفزاوة القيروان. وينص الكتاب على أن الصفرية أساءوا السيرة "فاستحلوا المحارم. وارتكبوا الكبائر ونزل عاصم بمصلى روح". ثم ترك عاصم بن جميل القيروان. بعد أن استخلف عليها عبد الملك بن أبو الجعد اليفرني. وسار نحو حبيب بن عبد الرحمن بقابس. ولم يستطع حبيب الوقوف أمام الصفرية فانهزم إلى جبل أوراس عسى ان يعصمه الجبل العتيد من مطاردة عاصم التي لا تعرف الهوادة. وفي أوراس حقق حبيب أول انتصاراته على الصفرية. وتمكن من قتل عاصم عدد كبير من أصحابه ورأى حبيب بن عبد الرحمن ان يتتبع انتصاره هذا بانتزاع القيروان ن بين أيدي عبد الملك بن الجعد. ولكنه انهزم وقتل سنة 140هـ/757م بعد ولاية دامت حوالي سنة ونصف (ابن عذارى: البيان المغرب. ج1. ص 69-70. ابن خلدون: العبر. ج6. ص 113. انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي. ج1. ص 343-346.).

3 - الباجي المسعودي: الخلاصة النقية. ص 17.

4 - الشماخي: السير. ج1. ص 113. انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير. ص 535.

5 - الجربي: مؤنس الأحبة. ص 45.

من ابرز القيادات الإباضية في جبل نفوسة خاصة وبلاد المغرب عامة[1] ويشير الشماخي إلى أنهم قبل عودتهم من البصرة قد استشاروا أبا عبيدة في أنهم إذا تعاظمت قوتهم فمن يكون إمامهم فأشار إلى أبي الخطاب وقال "إن أَبَى فاقتلوه".[2]

وما إن عاد حملة العلم من أئمة الإباضية إلى جبل نفوسة.[3] إلا وقد اضطلعوا بدورهم في بيعة أبي الخطاب. واخذوا يعدون العدة لذلك. فيذكر أبي زكريا أنهم اجتمعوا بموضع يقال له "صياد" غرب مدينة طرابلس. فأجالوا النظر وأطالوا الفكر فيمن يولونه أمرهم. ويعقدون له إمامتهم. وذلك في سرية تامة حتى تتم الأمور وتسير في مجراها. فكانوا يظهرون أنهم يجتمعون لتقسيم ارض بين أصحابها وقع بينهم خلاف. وقيل أنهم يجتمعون على أمر رجل وزوجته تخاصما أرادوا إصلاحهم. وكانوا إذا فرغوا من اجتماعاتهم هذه ذهبوا إلى عامل مدينة طرابلس ليسلما عليه. ويبعدوا تفكيره عنهم حتى اتفق رأيهم على عقد الإمامة لأبي الخطاب.[4] لأنه أقوى الشخصيات الإباضية آنذاك. وأمضاهم عزمة. وأقدرهم على قيادة الجماهير.[5] وما أن استقرت الأمور بتنصيب أبي الخطاب. إلا واتفق الإباضية على أن يحددوا يوما يجتمعون فيه. يحضره شيوخ البربر من نفوسة وهوارة. وزناته وغيرهم لإتمام البيعة له.[6]

وفي اليوم المحدد: توافد الناس من كل مكان لإتمام البيعة[7] دون أن ينمي ذلك إلى علم أبي الخطاب. وأشار احدهم بإتمام البيعة بالإمامة. فقامت طائفة منهم متناجين فيما بينهم ساعة ثم رجعوا.[8] وقالوا لأبي الخطاب "ابسط يدك لنبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- وآثار الصالحين من عباده" وقد قبل منهم ذلك بشرط ألا يذكروا مسألة الحارث بن تليد. وعبد الجبار بن قيس خوفا من تجدد الاختلاف والفرقة بين جماعة المسلمين فأقره الناس بشرطه[9] سنة 140هـ/757م.[10]

1 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة. ورقة 5.

2 -السير. ج1. ص 113.

3 - الجربي: المصدر السابق. ص 45

4 - سير الأئمة وأخبارهم. ص 57.

5 - البوسعيدي : حملة العلم إلى المغرب. ص 36.

6 - أبو زكريا : المصدر السابق. ص 58. الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب. ج2. ص 23.

7 - أبو زكريا: نفس المصدر. ص 58.

8 - الدرجيني: المصدر السابق. ج1. ص 23.

9 - أبو زكريا: المصدر لسابق. ص 58.

10 - الشماخي: السير. ج1. ص 115.

وبموافقة أبي الخطاب بايعه أهل جبل نفوسة ونواحيه، وعاهدوه على مناصرته، فنظم الإدارة، وجمع الجيوش.[1]

<u>أ- خطة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري للاستيلاء على طرابلس.</u>

بدأ الإمام أبو الخطاب أول أعماله بمحاولة الاستيلاء على طرابلس، وقد بنى خطته للاستيلاء عليها بالخديعة وذلك بحمل الرجال مع أسلحتهم على ظهور الجمال كأنهم بضائع فيحمل كل جمل رجلين، ويدخل أصحاب الجمال في زي التجار لإيهام أهل المدينة أنهم يحملون بضاعة لبيعها، ومع دخول الجمال قام إباضية طرابلس بمفاجئة أهلها شاهرين أسلحتهم[2] وبذلك نجح أبو الخطاب في خطته بالاستيلاء على طرابلس[3] فأحسن السيرة، واظهر العدل، ولم يتعرض للسكان بسوء،[4] واخرجوا والى طرابلس آنذاك عمرو بن عثمان القرشي من المدينة.[5] وفي سنة 141هـ/758م ولى أبو الخطاب على طرابلس عبد الله بن رحيمة،[6] كما ولى على سرت عمرة بن يمكتن أحد علماء إباضية جبل نفوسة[7] ويبدو أن عمرو كان يتحلى بمواصفات خاصة أهلته لولاية سرت،[8] إذ كانت تقع على أول الطريق إلى القيروان إضافة إلى ذلك فقد كان عمرو بن يمكتن من أهل جبل نفوسة، وهؤلاء كانوا أدرى الناس بطباع أهل سرت بحكم صلة الجوار[9] وبذلك دانت لأبي الخطاب ولاية طرابلس بالإضافة إلى جبل نفوسة، فأخذ يعد العدة للزحف على القيروان سنة 141هـ/758م للقضاء على ثورة ورفجومة.[10]

<u>ب- استنجاد أهل القيروان بابي الخطاب ضد ورفجومة الصفرية:</u>

فكما سبق القول استولت ورفجومة على القيروان بقيادة عبد الملك بن الجعد اليفرني عقب مقتل حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب سنة 140 هـ/757م[11] وعاثت فسادا

---

1 - الجربي : مؤنس الأحبة، ص 45.
2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 59.
3 - الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 142.
4 - عوض خلفيات: نشأة الحركة الإباضية، ص 149.
5 - الرقيق: المصدر السابق، ص 142.
6 - الأنصاري : المنهل العذب، ص 53، انظر أيضا الزاوي: ولاة طرابلس، ص 47.
7 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 40، Norris (H.T) : The Berbers in Arabic Litarature. London. 1980. P.78.
8 - الشماخي: السير، ج1، ص 127.
9 - معمر: المرجع السابق، ح2، ق1، ص 41.
10- إحسان عباس: تاريخ ليبيا، ص 47.
11 - الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص 17.

في القيروان[1] فربطوا دوابهم في المسجد، وقتلوا كل من كان بالمدينة من قريش، وساموا أهلها اشد أنواع الظلم[2] مما أجبرهم على الفرار إلى غيرها[3] وكان أبو الخطاب المعافري قد قرر الاستيلاء على القيروان لتخليصها من أفعال الورفجوميين وعقابهم على ما اقترفوه بحق أهلها، وتعزى بعض المصادر التاريخية السبب المباشر في ذلك إلى أن رجلا من الإباضية رأى رجالا من ورفجومة يأخذون امرأة غصبا وأدخلوها الجامع على مرأى من الناس الذين لم يحركوا ساكنا، فما كان من الرجل الإباضي إلا أن ترك حاجته التي قد جاء من أجلها، وخرج حتى وصل إلى أبي الخطاب وأخبره بذلك فثارت حميته وخرج إليهم قائلا: "لبيك اللهم لبيك"[4] هذا والمصادر الإباضية تعزي السبب في ذلك إلى أن إمرأة من نساء القيروان كتبت إلى أبي الخطاب كتابا تشكو له فيه جور ورفجومة قالت له فيه: "أما بعد (يا أمير المؤمنين) فإن لي ابنة وقد بلغت في الخوف عليها من ورفجومة والحوطة عليها أن حفرت حفرة تحت سريري ووضعتها فيها عنهم خشية أن يفسدوها كما فعلوا بأمثالها، فانظر إلينا، والسلام". حث أصحابه على الجهاد والاستعداد للحرب، وقد سل سيفه وكسر غمده وقال: "لا حكم إلا لله" لحث أصحابه على الجهاد.[5]

وفي تقديري أنه قد تزامن مع الدوافع السابقة لغزو الإباضية للقيروان دافع آخر ربما يتمثل فيما أصاب من جدب هذه البقاع مما دفع قبائل مثل: زناته وهواره، مع اقتناعها بالمذهب الإباضي وحبها له إلى سرعة الانضمام إلى أبي الخطاب للغزو في المغرب الأدنى خاصة وأن عام غزو القيروان 141هـ/758م عام قحط وجوع، وهو ما أكدته المصادر الإباضية نفسها عندما قالت: "فخرجوا في سنة قحلة ذات قحط وجوع وجدب، فأمرهم الله فيها بالجراد، فإذا نزلوا نزل عليهم، وإذا ارتحلوا ارتحل معهم".[6]

وعلى الرغم من اختلاف الروايات السابقة لغزو القيروان، إلا أنها تتفق على مدى الجرم الذي اقترفته ورفجومة في حق أهلها، مما اضطرهم إلى الاستنجاد بإباضية جبل نفوسة بقيادة إمامهم أبي الخطاب المعافري[7] الذي خرج في ستة آلاف من خيرة رجاله

---

1 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 316.
2 - ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص 70، انظر أيضا: عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة العرب، تونس، 1344هـ ص 167.
3 - ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 316.
4 - الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 141-142، ابن الأثير: نفس المصدر، ج5، ص 316، النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 72-73.
5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 60، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 26-27.
6 - أبو زكريا : نفس المصدر ص 61، قارن الشماخي: السير، ج1، ص 116.
7 - شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وآخرون، الدار التونسية، تونس، 1978م، ج2، ص 38، حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 79-80.

إلى القيروان سنة 141هـ/758م[1] وعسكر في طرف المدينة حتى أتته جموعه، وتبعه عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي (160-171 /776-787م) مؤسس الإمامة الإباضية الرستمية في تاهرت فيما بعد.[2]

ولم ينحصر مقصد الإباضية في إجابة استغاثة القيروان فحسب، بل كان على الإمامة الناشئة أن توطد نفوذها وتبسط سيطرتها على بقية المنطقة[3] وذلك عندما قامت بفرض سيطرتها واحتلال جبل دمر وجزيرة جربة التي أصبحت منذ ذلك الحين أي منذ سنة 140هـ/757م تابعة لأئمة جبل نفوسة.[4]

كذلك استولى أبو الخطاب على مدينة قابس بعد حصارها أثناء مروره بها في طريقه إلى القيروان ونصب عليها عاملا من قبله سنة 141هـ/758م[5]، ثم اتجه إلى القيروان وضرب عليها حصارا شديدا مما دفع أهلها إلى الانتقام من أبي الخطاب بقتل أحد أصحابه ويدعى عاصم السدراتي[6] ورفيقه في رحلته العلمية، وأراد أبو الخطاب أن يخدعهم بالكيد لهم فانسحب بجنده ليلا إلى رقادة،[7] متظاهرا بالهزيمة لإيهام العدو بانسحابه، وفي الصباح لم تجد ورفجومة أبا الخطاب في موقعه فاعتقدوا أنه سأم الحصار وقرر الانسحاب، فما

- Corneirn (R) : Histoire de L 'Afrique. Paris. 1967. P. 263.

1 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 28، انظر أيضا: السيد سالم" المغرب الكبير، ج2، ص 536.

2 - أبو زكريا: نفس المصدر ص 61، قارن الشماخي: السير، ج1، ص 116.

3 - إحسان عبد الله: الدولة الرستمية في تاهرت، رسالة ماجستير غير منشورة، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1986م، ص 20.

4 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 45، انظر أيضا: مصطفى العمري: الحياة السياسية والحضارية بطرابلس الغرب في عهد بني خزرون 391-541هـ/1000-1145م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، 1992، ص 29.

5 - الشماخي: السير، ج1، ص 116.

6 - عاصم السدراتي: أحد حملة العلم إلى المغرب حيث تعلم على يد أبو عبيدة مسلم في البصرة، ويذكر أبو زكريا أنه مات أثناء حصار القيروان نتيجة قثاءه مسمومة قد باعها له أحد أهل القيروان عندما علم أنه يشتهيها فمات على آثرها (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 62)، وفي تقديري أن هذه الرواية مشكوك فيها أن عاصم السدراتي ذكر أثناء ولاية أبو حاتم الملزوزي إمام الإباضية بعد أبو الخطاب أثناء حصاره للقيروان سنة 154هـ/770-771م، بل أسهم عاصم السدراتي في الحصار بستة آلاف رجل ونستند في ذلك إلى اقرب تلك الروايات معاصرة للأحداث ممثلة في سليمان بن زرقون أحد علماء إباضية جبل نفوسة والذي ينتمي إلى الطبقة السابعة (300-350هـ) حيث ذكر الشماخي على لسانه أن عاصم السدراتي كان من اشد الناس على الأعداء مع أبو حاتم الملزوزي، وبهذا يكون الأمر قد اختلط على أبو زكريا في روايته فبدلا من أن يذكرها في عهد أبو حاتم ذكرها في عهد أبو الخطاب فكلاهما حاصر القيروان (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 29، ج2، ص 349، ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص75، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 121-122.

7- رقادة: تبعد عن القيروان بحوالي أربعة أميال بناها إبراهيم بن احمد الأغلبي وسميت برقادة لأن إبراهيم بن احمد قد أصابه الأرق وشرد عن لنوم فأخذ يمشي إلى أن وصل إلى هذا المكان فنام به فسمي رقادة، ويقال سميت بذلك لطيب هوائها ونقائه (البكري: المغرب، ص 27).

إن وطأت أقدامهم رقادة إلا وقد فوجئوا لكمائنه،[1] ودار بينهم قتال شديد انتصر فيه أبو الخطاب لسخطه على ورفجومة، ورغبتهم في التخلص من سيطرتهم وبذلك تغلب أبو الخطاب على القيروان ودخلها سنة 141هـ/758م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم[2]، عاملا عليها ثم عاد إلى طرابلس،[3] وبذلك صارت طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس ومن البحر شمالا إلى الصحراء الكبرى بما فيها فزان جنوبا منضوية تحت إمامة أبي الخطاب المعافري.[4]

ج - اتساع نفوذ الإباضية في المغرب الأدنى وموقف الخلافة العباسية منه.

اتسع نفوذ الإباضية في عهد أبو الخطاب، وأصبحت قوة كبرى يخشى بأسها، فأثارت مخاوف الخلافة العباسية في المشرق، مما شجع المنصور للعمل على استرداد القيروان بعد أن أرسل أهلها وفدا من فقهائهم وعلمائهم إلى بغداد ليطلبوا جنود الخلافة ويحثونهم على إنقاذهم من جور ورفجومة، وكان على رأس هذه السفارة قاضي افريقية عبد الرحمن بن زياد بن أنعم[5] وجميل السدراتي[6] أحد جنود أبي الخطاب والذي حنق عليه[7] من اجل ذلك كله قرر أبو جعفر المنصور القضاء على ثورة أبي الخطاب، فولى محمد بن الأشعث الخزاعي (144-148هـ/761-765م) ولاية افريقية، وأمره أن يتولى أمر القضاء على أبي الخطاب، فأرسل محمد بن الأشعث جيشا بقيادة أكبر قواده وأشجعهم وهو العوام بن عبد العزيز البجلي، وكان أبو الخطاب على أهبة الاستعداد لملاقاة العوام فخرج جيشه حتى أتى ورداسة (شرق طرابلس) ووجه إلى العوام مالك بن سحران الهواري

1 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 63، الشماخي: السير، ج1، ص 117.

2 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 317، ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص 71، انظر أيضا: مسعود مزهودي: العلاقات الثقافية بين إباضية جربة وإباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة، ضمن أعمال الملتقى العلمي الدولي، (حوليات الجامعة التونسية في خدمة الثقافة العربية)، المطبعة الرسمية، تونس، د.ت، عدد 39، ص 307.

3 - حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 115.

4 - السيد سالم : المغرب الكبير، ج2، ص 536، دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 3.

5 - محمد عبد المولى : القوى السنية في المغرب من الفتح حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1977م، ص 95.

6 - خرج جميل السدراتي على أبو الخطاب بعد حربه مع ورفجومة الصفرية نتيجة سلبه كساءة سفسارية وقيل جبه حرير من أحد قتلى ورفجومة، فنادى أبو الخطاب بردها فلم يردها السارق، فدعا عليه أبو الخطاب بأن يفضح الله أمره واستجاب الله لدعائه، أثناء حلقة سباق للخيل نظمها أبو الخطاب فقطع سرج السدراتي أثناء السباق، ووقعت الكساءه أمام أعين الناس فأتى به أبو الخطاب وأدبه وأثار حنقه مما جعل جميل يتجه إلى جعفر المنصور ليثيره ضد أبو الخطاب. (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص31، الشماخي: السير، ج1، ص 117).

7 - الدرجيني: نفس المصدر، ج1، ص 31.

فانهزم العوام وقتل عددا كبيرا من أصحابه في سرت.[1] فأرسل ابن الأشعث جيشا آخر أقوى من سابقه بقيادة أبي الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي سنة 143هـ/ 759-760م)[2] فالتقى بابي الخطاب عند مغدامس[3] والحق به هزيمة مروعة فر على آثرها الأحوص إلى مصر، وبذلك فرض أبو الخطاب سيطرته على افريقية.[4]

ولما وصلت أنباء الهزيمة إلى أبي جعفر المنصور سير جيشا كبيرا عدته أربعين ألف رجل[5] من خير أجناد العباسيين منهم: الأغلب بن سالم بن عقال التميمي، والمحارب بن هلال الفارسي، والمخارق بن غفار الطائي، وعليهم طاعة أميرهم فإن حدث به مكروه كان عليهم الأغلب فإن حدث به حدث فالمخارق، ومن بعده المحارب بن هلال، غير أن المحارب بن هلال قد توفي قبل وصولهم إلى افريقية.[6]

وجمع ابن الأشعث قواته وتوجه لملاقاة أبي الخطاب بعد أن استخلف على مصر محمد بن معاوية بن ريسان سنة 142هـ/759م[7] ولما علم أبو الخطاب بخروج ابن الأشعث استعان بأصحابه في كل ناحية، وحشد حشودا عظيمة[8] وعسكر بهم في أرض سرت[9] سنة 143هـ/760م، وقد أصيب ابن الأشعث بالهلع من كثرة هذه الجموع، غير أن الحظ وقف بجانبه، فقد تنازعت حين ذلك قبيلة زناته مع هوارة قتيل من زناتة، فاتهمت زناته أبا الخطاب بالميل إلى هوارة، فتخلى عنه جماعة منهم.[10]

---

1 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 118، انظر أيضا: دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 8.

2 - ابن وردان: تاريخ مملكة الأغالبة ن تحقيق د.محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص 19، ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص 71.

3 - مغدامس: مكان يقع في منتصف المسافة بين قصور حسان وسرت (البكري: المغرب، ص 7، الشماخي: السير، ج1، ص 118)

4 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 71.

5 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 74، ابن عذاري: نفس المصدر، ج1، ص 72، السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 115.

6 - النويري: المصدر السابق، ج24، ص 74.

7 -الكندي: ولاة مصر، تحقيق د.حسين نصار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2001م، ص 131.

8 - ذكر ابن عذاري أن جموع أبو الخطاب بلغت مائتي ألف مقاتل وقد تبين لنا مدى مبالغة هذه الرواية خاصة لانفراد ابن عذري بها عن غيره من المؤرخين بالمقارنة بابن الأثير الذي لم يحدد عدد الحشود بل أشار إلى كثرتها فحسب، هذا كما أشارت معظم المصادر التاريخية أن عدد جيش أبو الخطاب لا يزيد عن 90 ألف مقاتل، وقد يكون هذا صحيحا لأن طاقة الإباضية لم تكن قد بلغت هذا الحد الكبير من العدة الذي ذكرها ابن عذاري في ذلك الوقت على اعتبار أنها دويلة ناشئة حديثة التكوين (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 68، ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج5، ص 317، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 33، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 71، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 153)

9 - ابن عذاري: نفس المصدر، ج1، ص 71.

10 - ابن الأثير : المصدر السابق، ج5، ص 317.

د - مقتل أبي الخطاب:

عندما علم ابن الأشعث بما دار في معسكر أبي الخطاب بين كل من زناتة وهوارة سر بذلك وازداد حماسا لمواجهة أبي الخطاب[1] فبث عيونه وجواسيسه ليتفقدوا أخبار أبي الخطاب وأحوال جيشه[2] فلما رجعوا إليه إرتاع من أخبارهم فقالوا له: "رأينا رهبانا بالليل، وأسدا بالنهار، يتمنون لقاءك كما يتمنى المريض الطبيب، لو زنى صاحبهم لرجموه، ولو سرق لقطعوه، خيلهم من نتاجهم، ليس لهم بيت مال يرتزقون منه، وإنما معاشهم من كسب أيديهم"[3].

لما سمع ابن الأشعث ذلك خاف من تشتت جمعه، فعمد إلى رجال من عسكره غير معروفين للجيش، وأمرهم أن يتزيوا زي الرسل، كأنهم قدموا من أرض المشرق وأعطاهم كتابا كتبه على لسان أبي جعفر المنصور، وأمرهم أن يتنحوا عن العسكر، فإذا كان وقت الضحى من الغد اقبلوا كأنهم قادمين من بغداد بكتاب خليفتهم لإبن الأشعث[4] فلما كان الوقت الذي أمرهم فيه بالظهور، توافد عليه الجند وأعطوا له كتابا فقرأه ابن الأشعث وأمر الناس بالرجوع إدعانا لأمر الخليفة[5] وأبدى لهم تخوفه من أبي الخطاب، لكثرة جيوشه، وقوة جنده[6] ولكن وجد ابن الأشعث معارضة من اكبر قواده، واحد أركان جيشه المحارب بن هلال الذي أبى الرجوع، حيث رأى أن ذلك لا يليق بكبرياء الجيوش العباسية، وأنه على استطاعة لمواجهة أبي الخطاب، ولما أدرك ابن الأشعث أن المحارب سيفسد حيله، قتله تأكيدا لأصحابه على إمتثالهم لأمر الخليفة بعودتهم إلى المشرق[7] ورجع ابن الأشعث متباطئا في سيره، فإذا ارتحل أول النهار نزل عند انتصافه، وإذا كان غدا ارتحل وعيون أبي الخطاب تراقبه، فكلما ارتحل مرحلة رجعت منهم طائفة، وكلما ارتحل ابن الأشعث مرحلة أمر خيلا تقطع الأثر خلفه لتتأكد هل في عسكره من عيون أبي الخطاب أم لا؟، وذلك في الوقت الذي كانت فيه عيون ابن الأشعث مقيمة في عسكر أبي الخطاب، ونجح ابن الأشعث في خطته، فسرعان ما وصلت جواسيس أبي الخطاب لتبلغه بعودة خصمه، وكان قد اجتمع حول أبي الخطاب ما يقرب من تسعين

---

1 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 72.

2 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 12.

3 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 32.

4 - الدرجيني: نفس المصدر: ج1، ص 32، انظر أيضا: عوض خليفات: المرجع السابق، ص 153.

5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 67، النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 75.

6 - دبوز: المغرب الكبير: ج3، ص 13.

7 - الشماخي: السير، ج1، ص 119، انظر أيضا: دبوز: نفس المرجع، ج3، ص 14.

ألفا[1] أرادوا معظمهم الرجوع إلى مساكنهم لحلول وقت الحصاد الذي ينتظرون فيه جمع زروعهم، وكان أبي الخطاب قد فطن إلى مكيدة ابن الأشعث، وأوضح ذلك إلى أصحابه ونصحهم بعدم التفرقة لأن العرب أصحاب مكر وخديعة، إلا أنه مع شدة إلحاحهم أذن لهم بالرحيل فتفرقوا إلى ديارهم.[2]

وما أن نمى إلى علم ابن الأشعث بتفرق جند أبي الخطاب، إلا وقد طوى المراحل التي كان قد سارها ليلا ونهارا حتى فوجئ أبي الخطاب بجند ابن الأشعث داخل حيز طرابلس عند (سرت)[3] وهكذا انطلت الحيلة على أصحاب أبي الخطاب منهم: عمرو بن يمكتن عامل أبي الخطاب على سرت وأحد أبناء جبل نفوسة الذي اطمأن إلى عدم لجوء ابن الأشعث إلى عنصر المباغتة، وذلك بإيعاز من أحد الأعراب الذي أكد له ذلك بقوله: "لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة، وهو في جند أمير المؤمنين برجال مشمرين، زخيل مضمرات، وسيوف مهندات، بل يأتيكم جهارا نهارا"[4].

ومن هنا أرسل أبو الخطاب رسله في البلدان لتستمد عسكره الذين قد تفرقوا، وكان قد أرسل إلى عبد الرحمن بن رستم يستنفره، ومع ذلك فلم ينتظر أبو الخطاب مجيئ أتباعه، رغم إشارة بعض أصحابه بانتظارهم حتى يقووا على محاربة ابن الأشعث فقال: "لا يسعني المقام، وقد دخل العدو حريمي ورعيتي، حتى ادفع عنها فأغشيها أو الحق بالله" فخرج بمن حضر معه من أصحابه خاصة من كان قريبا من المدينة أمثال: إباضية جبل نفوسة وهوارة وغيرهم لقتال ابن الأشعث[5] وكان عددهم يتراوح ما بين أثنى عشر إلى أربعة عشر ألفا[6] والتقى الجيشان سنة 144هـ/761م في موضع بتاورغة[7] يسمى "ورداسة" وكان ابن الأشعث قد اخبر جنوده بأهمية إستراتيجية المكان عن طريق النزول على مكان الماء، والسيطرة عليه، قبل أبي الخطاب وتم لهم ذلك، واشتبك الفريقان في قتال شديد استشهد فيه أبو الخطاب وأصحابه،[8] ولم ينج منهم إلا النزر اليسير، وذلك

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص33، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 153.
2 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 119.
3 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 68، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 352.
4 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1،ص42، انظر أيضا: الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 120.
5 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب/ ج1، ص 34، الشماخي: السير، ج1، ص 119.
6 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 69، الدرجيني: نفس المصدر/ ج1، ص 34؟، الشماخي: نفس المصدر/ ج1، ص 120.
7 - تاروغة: (تاورغا): موضع يبعد عن شرق طرابلس بحوالي 125 ميلا تقريبا (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص34، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 17.)
8 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 69، النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 74، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 352.

عندما وصل إلى مسامع أصحابه بمقتله، ففروا إلى الجبال، معتصمين بالحصون المنيعة، والقلاع العالية.[1]

واحتز ابن الأشعث رأس أبي الخطاب، وأرسلها إلى الخليفة المنصور[2] ومع هذا فإن سكان جبل نفوسة عادة ما يفخرون بتاريخهم الجيد إثر الأحداث التي خلدت ذكريات المحاربين والشهداء القدامى، والذي كان من بينهم أبو الخطاب وأسرة يمكتن[3] التي كان ينتمي إليها عمرو بن يمكتن، وموسى بن عبد الله بن يمكتن، وأخوه إبراهيم حيث كانا من خيار جند أبي الخطاب وأبرزهم، الذين وقعت عليهم الشهادة معه أثناء حرب ابن الأشعث[4] وتذكر المصادر الإباضية أن عبد الرحمن بن رستم لما بلغه خبر استنجاد أبي الخطاب به أسرع ليلحق به فلما وصل إلى قابس بلغته أنباء مقتل الإمام وعسكره، فافترقت عساكره وكر راجعا إلى القيروان،[5] حتى بلغوا في المغرب الأوسط جبل منيع يسمى سوفجج[6] فتحصنوا فيه.[7]

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 34.
2 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 18.
3 - Norris (Hit.) The Berbers in Arabic Literature, P. 74.
4 - الشماخي: السير، ج1، ص 128.
5 - أبو زكريا: المصدر السابق: ص 70، الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 120.
6 - جبل سوفجج: هو الجبل الرابع من سلسلة الجبال الممتدة بين مدينة "السوفر" في جنوب غرب تاهرت، ومدينة "شلالة" في الجنوب الشرقي منها، وحول هذا الجبل مواطن لماية، ولواتة، وهوارة، وهي قبائل قوية الصلة بالمذهب الإباضي، بل إن لماية كانت على صلة بعبد الرحمن بن رستم لذا فقد آثر أن ينزل بين أبناء هذا القبيلة (دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 257، محمد عيسى الحريري: مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي (الدولة الرستمية 160-296هـ، دار القلم، 1983، ص 86).
7 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 120.

الفصل الثاني

الدور السياسي لإباضية جبل نفوسة

حتى سنة 196هـ/813م

أبو حاتم الملزوزي إماما لإباضية جبل نفوسة وثورته في طرابلس.

دور إباضية جبل نفوسة وضواحي طرابلس في حصار طبنة.

حصار إباضية جبل نفوسة القيروان واستيلائهم عليها.

موقف الدولة العباسية من ازدياد نفوذ إباضية جبل نفوسة في افريقية.

دور إباضية جبل نفوسة في تدعيم الدولة الإباضية الرستمية في تاهرت.

1 – أبو حاتم الملزوزي[1] إماما الإباضية جبل نفوسة وثورته في طرابلس.

لم يأل الإباضية جهدا في مناهضة الجند العباسيين، فخاضوا ضدهم عدة معارك، متخذين من جبل نفوسة معقلا وحصنا يتحصنون فيه.[2]

وقد ولى أبو جعفر المنصور المخارق بن غفار الطائي (144-148هـ/761-765م) على طرابلس وجبل نفوسة بعد أن قضى على إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري سنة 144هـ/761م، وكان المخارق من اعنف رجال المنصور وأخشنهم، إذ قضى على الثورات بتلك النواحي وأخذها بالشدة[3] ومع ذلك فقد نادى إباضية جبل نفوسة وضواحي طرابلس، مرة أخرى بعمر ميمون (144-154هـ/761-770/771م) إماما لهم[4] غير أن المعلومات التي أوردتها المصادر التاريخية عن إمامة عمر ميمون شحيحة للغاية، وفي تقديري أن سبب ذلك اعتبار هذه الفترة فترة استعداد الإباضية جبل نفوسة، وضواحي طرابلس التي أصبحت بمثابة مرحلة لالتقاط الأنفاس واستجماع القوة والمنعة اللازمة لاستعادة مقاليد الأمور في الجبل خاصة بعد الضربة القاصمة التي وجهها محمد بن الأشعث لأبي الخطاب وجنده، فضلا عن فرار نائبه عبد الرحمن بن رستم أحد أهم أركان جيش أبي الخطاب إلى جبل سوفجج لتأسيس إمامة إباضية جديدة بتاهرت سنة 160هـ/776م[5] ونستند في ذلك إلى ما ذكرته المصادر التاريخية، أكثرها الإباضية من أن بقية جند أبي الخطاب المعافري عندما أنسوا في أنفسهم قوة اجتمعوا في جبل نفوسة وضواحي طرابلس وولوا عليهم أبا حاتم الملزوزي سنة 154هـ/770-771،[6] وكان إباضية جبل نفوسة قد بايعوا أبا حاتم سرا، في اجتماع عقدوه لتنصيبه إماما لهم، ولكي لا يفطن الجنيد

1 - هو أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي النجيسي مولى كنده، وينتسب إلى قبيلة ملزوزه البترية (النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 89، وقارن ابن خلدون الذي يسميه أبي حاتم (أو أبي قادم) يعقوب بن حبيب بن مدين بن يطوفت (العبر، ج6، ص 113، انظر أيضا معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 61، دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 58).

2 - اليد سالم : المغرب الكبير، ج1، ص 546.

3 - الأنصاري: المنهل العذب، ج1، ص 54، انظر أيضا: دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 54، الزاوي: ولاة طرابلس، ص 48.

4 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 46، انظر أيضا: زامباور: معجم الأنساب والأسرات، ج1، ص 101.

5 - الشماخي: السير، ج1، ص 124، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 353، الحريري: مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي (الدولة الرستمية 160-296هـ، دار القلم، الكويت، 1983، ص 91.)

6 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 36-37، الشماخي: السير، ج1، ص 121، الجربي: مؤنس الأحبة، ص 46، انظر أيضا: زامباور: معجم الأنساب والأسرات، ج1، ص 101.

بن سيار الاسدي (151-154هـ/768-770/771م) عامل طرابلس لمقصدهم، أشاعوا أنهم اجتمعوا من اجل مناقشة مشكلة نشبت بين إمرأة صالحة تدعى مسلمة وبين زوجها[1] غير أن الجنيد كشف أمرهم وأرسل إليهم خمسمائة فارس بقيادة خازم بن سليمان ليردهم إلى طاعة أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور[2] فالتقوا واقتتلوا، فانهزم خازم وأصحابه ولحقوا بالجنيد بطرابلس[3] وقد استغل الإباضية ذلك وعقدوا الإمامة لأبي حاتم وتوليته ولاية دفاع[4] في حين أرسل الجنيد بن سيار إلى أميره[5] عمر ابن حفص (151-154هـ/768-770/771م)[6] يستنجده فبعث إليه خالد بن يزيد المهلبي في أربعمائة فارس فالتقيا هو والجنيد بأبي حاتم ومع ذلك انهزم خالد والجنيد[7] فاضطروا إلى إخلاء المدينة واللجوء إلى قابس فاستولى أبو حاتم على المدينة[8] سنة 154هـ/770-771م.[9]

2 - دور إباضية جبل نفوسة وضواحي طرابلس في حصار طبنة.[10]

تعتبر مدينة طبنة قاعدة بلاد الزاب، ونظرا لموقعها الاستراتيجي بالنسبة للقيروان فإنها تمثل خط الدفاع الأول عنها، فمن يسيطر على طبنة يمكنه أن يستولي على مفاتيح القيروان[11] فضلا عن وقوع طبنة على الطريق الرئيسي إلى تلمسان[12] حيث أقام الصفرية دولة لهم بزعامة أبي قره المغيلي[13] لذلك وجه الخلفية أبي جعفر المنصور جل عنايته بتحصينها وبناء سورها على يد واليه عليها عمر بن حفص بن عثمان بن قبيضة ألمهلبي سنة 154هـ/770-771م،[14] وقد اعتبر إباضية تاهرت وصفرية تلمسان

1 - الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 121، الأنصاري: المنهل العذب، ج1، ص 55، انظر أيضا: الزاوي: ولاة طرابلس، ص 49.
2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 74.
3 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 79.
4 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 74.
5 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 598.
6 - القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، تعليق: نبيل الخطيب، بيروت-لبنان، 1987م، ج5، ص 115.
7 - النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 89، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 59.
8 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية ص 159.
9 - النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 79، ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 599 السلاوي: الاستقصا ج1، ص 117.
10 - طبنة : هي قاعدة بلاد الزاب العظمى وتتوسطه، وهي مركز الولاة. (ابن رسته: الاعلاق النفسية، ص 351).
11 - صالح مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 93، الحريري:مقدمات البناء السياسي، ص 88.
12 - تلمسان: مدينة كبيرة تقع غرب تاهرت بنحو 120 كم تقريبا وهي موطن قبائل زناته (البكري: المغرب، ص 76، الإدريسي: نزهة المشتاق، المجلد الأول، ج1، ص 255)
13 - هو أبو قرة اليفرني الصفري المغيلي ن بني يفرن من زناتة البترية، بايعه أهل تلمسان بالخلاف سنة 148هـ/765م (ابن خلدون: العبر، ج6، ص 114).
14 - السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 117.

وصول عمر بن حفص إلى طبنه وبناء سورها وتحصينها عملا عدوانيا يهدد كياناتهم ويؤدي بجهودهم.[1]

أضف إلى ذلك أن موقع مدينة طبنه غير بعيد عن تاهرت التي استقر بها عبد الرحمن بن رستم الإباضي محاولا جمع شتات الإباضية في المغرب الأوسط استعدادا لتأسيس إمامة إباضية جديدة، بعد هزيمة أبي الخطاب المعافري[2] وهنا أدرك عبد الرحمن بن رستم مدى الخطر الذي أصبح يحيق بدولته من جراء تحصين مدينة طبنة فأرسل ابن رستم إلى أنصاره في طرابلس وجبل نفوسة[3] وأفريقية وتلمسان يحضهم على الانتفاض ومحاربة العباسيين ولذلك اندلعت الثورة في طرابلس وجبل نفوسة بعد أن ولوا عليهم أبا حاتم الملزوزي[4] الذي استطاع أن يستولي على طرابلس، وأخذ في مطاردة جند الخلافة العباسية إلى قابس حيث التقوا بجيش كان قد بعثه عمر بن حفص تحت إمرة سليمان بن عباد المهلبي ولكنه سرعان ما مني بهزيمة وكر راجعا إلى القيروان فتبعه أبو حاتم وضرب الحصار على المدينة[5] ولكن سرعان ما غادر أبو حاتم القيروان متجها إلى عمر بن حفص في طبنه ليشارك في حصارها سنة 154هـ/770-771م، وبذلك اتحد الإباضية والصفرية معا لأول مرة[6] وفي ذلك يقول ابن عذاري "فاشتدت الفتنة في افريقية واشتعل نارها وأتاها أمراء القبائل من كل فج، واجتمعوا في أثني عشرة عسكرا"[7] فقد كان عبد الرحمن بن رستم في خمسة عشرة ألف فارس[8] وأبي حاتم في جمع كبير لم تشر المصادر التاريخية على حد علمنا إلى عددهم، وعاصم السدراتي في ستة آلاف، والمسور الزناتي الإباضي في عشرة آلاف فارس، أما الصفرية فقد اجتمعوا بقيادة أبي قره اليفرني الصفري في أربعين ألفا[9] ثم انضم إليهم عبد الملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري في ألفين من أتباعه[10] ويبدو أن جماعة أخرى قد انضمت إليهم فيها جرير بن مسعود فيمن تبعه من مديونة[11] فضلا عن ما انضم إليهم من هوارة وزناته ممن لا يحصى

1 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 5، ص 599، ابن عذاري: لبنان المغرب، ج1، ص 75، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 160.
2 - عوض خليفات: نفس المرجع، ص 160.
3 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 58، عوض خليفات: نفس المرجع، ص 160.
4 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 58.
5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 75، النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 80.
6 - النويري: نفس المصدر، ج24، ص 80، السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 117.
7 - البيان المغرب، ج1، ص 75.
8 - النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 80.
9 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 75.
10 - النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 80، السلاوي: المصدر السابق، ج1، ص 117.
11 - مديونة: قبيلة من قبائل البربر البتر من ولد فاتن بن تمصيت، ومواطنهم بنواحي تلمسان ما بين جبل راشد

عدده[1] في حين كان عمر بن حفص في خمسة عشر ألفا وخمسمائة فقط.[2] لذلك كان يعي أنه لا يمكن مواجهة هذه الجموع الغفيرة في معركة مفتوحة[3] لذا لجأ إلى الحيلة والخداع لإثارة الفرقة بين الإباضية والصفرية، فأرسل رجلا من مكناسة[4] يدعى إسماعيل بن يعقوب إلى أبي قره زعيم الصفرية؛ ليعرض عليهم أربعين ألف درهم وكساء وهدايا ثمينة، مقابل أن يرفع الحصار ويعود إلى بلادهم فلما قدم إليه وعرض عليه هذا العرض قال له "أبعد أربعين سنه يسلم بالإمامة؟ أباع حربكم بعرض قليل من الدنيا؟، لا حاجة لي به".[5]

ومع ذلك، فلم ييأس إسماعيل بن يعقوب من محاولة إغراء أخيه، أو ابنه بأربعة آلاف درهم وهدايا أخرى على أن يرفع الحصار وينصرف هو ومن معه، فوافق على هذا العرض وانصرف.

وما أن نمى إلى علم أبي قرة بانسحاب العسكر إلى تلمسان، إلا واضطر إلى إتباعهم،[6] وبذلك نجحت حيلة ابن حفص في انسحاب الصفرية مما كان له أثرا نفسيا ومعنويا على الإباضية فاضطروا إلى رفع الحصار وانسحب عبد الرحمن بن رستم إلى تهودة[7] عقب رفع الحصار،[8] في حين رجع أبو حاتم إلى القيروان محاولا احتلالها قبل عودة عمر بن حفص.[9]

وبرفع الحصار عن طبنة تشجع ابن حفص على توجيه قوة إلى عبد الرحمن بن رستم قوامها 1500 من رجاله تحت قيادة معمر بن عيسى السعدي، فالتقوا في تهودة وكان ابن رستم في خمسة عشر ألف فارس فانتصر معمر بن عيسى وقتل عدد كبير من أصحاب ابن رستم قدر بحوالي ثلاثمائة قتيل وفر منهزما إلى تاهرت،[10] غير أن عمر بن

وجبل مديونة المعروف باسمهم (ابن خلدون: العبر، ج6، ص 127).

1 - السلاوي: المصدر السابق، ج1، ص 117.

2 - ابن عذري: المصدر السابق، ج1، ص 75، قارن (النويري الذي يذكر أن عمر بن حفص كان في خمسة آلاف وخمسمائة فقط، المصدر السابق، ج 24، ص 80.)

3 - عوض خليفات: نشأة الحرة الإباضية، ص 160.

4 - مكناسة: قبيلة تنتسب إلى رصطف بن يحي وهي بطون كثيرة منها صولان وبنو حوان وغيرها، كانت مواطنهم على وادي ملوية بسجلماسة إلى مصبه في البحر ورئاستهم جميعا في بني أبي يزول بن مكناس ومدينة مكناسة انتسبت إلى اسم القبيلة وتقع شمال مدينة فاس (ابن سعيد: الجغرافيا، ص 141.)

5 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 80، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 76.

6 - الرقيق: تاريخ

7 - تهودة: موضع يبعد عن مدينة باديس بحوالي 30 كم، وهو الموضع الذي استشهد فيه عقبة بن نافع سنة 63هـ/682م على يد كسيلة بن عزم بمساعدة الروم (البكري:المغرب، ص 72-74).

8 - عوض خليفات: المرجع السابق، ص 161.

9 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 362.

10 - الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 143، النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 81.

حفص سرعان ما فطن إلى الخطر الذي أصبح يهدد القيروان بعد عودة أبي حاتم وأتباعه من الإباضية، فقرر عمر الرجوع إلى القيروان لإنقاذها واستخلف على طبنة المهنأ بن غفار الطائي.[1] ولما علم أبو قرة الصفري بمسير عمر بن حفص إلى القيروان هاجم طبنة وحاصر المهنأ الطائي الذي تصدى له بشجاعة فهزمه مما جعله ينسحب إلى تلمسان.[2]

3 - حصار إباضية جبل نفوسة القيروان واستيلائهم عليها.

ما أن وصل أبو حاتم إمام إباضية جبل نفوسة إلى القيروان حتى ضرب عليها الحصار بجنوده ويقال أن عددهم مائة وثلاثين ألفا.[3] وظل أبو حاتم محاصرا القيروان ثمانية أشهر عانى الناس خلالها مشقة كبيرة، فكانوا يقاتلون الإباضية طرفي النهار حتى أجهدهم الجوع وأكلوا دوابهم وكلابهم؟ مما جعل الناس يخرجون إلى الإباضية بعد انقطاع أمل النجاة عنهم، هذا في حين بلغ ذلك عمر بن حفص فاقبل يريد القيروان في نحو سبعمائة فارس من الجند.[4]

ولما علم أبو حاتم بمحاولة ابن حفص في الرجوع إلى القيروان، رفع الحصار عنها محاولا أن يلتقي به أثناء طريق عودته، لينتهي من أمره بالقضاء عليه، إلا أنه سرعان ما فطن ابن حفص إلى ذلك فسلك طريقا آخر غير معروف، وكان قد ترك على القيروان أخاه لأمه جميل بن صخر، الذي خرج من القيروان إثر رفع أبي حاتم الحصار عنها متوجها لملاقاة عمر بن حفص إلى أن التقى به في مكان يسمى "بئر السلامة" بالقرب من القيروان ثم توجها معا إلى القيروان قبل أبي حاتم.[5]

وبعد تشاور عمر بن حفص هو وأصحابه استقر رأيهم على شحن المدينة بالمؤن

---

1 - النويري: نفس المصدر: ج24، ص 81.

2 - النويري : نفس المصدر، ج24، ص 81، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 62.

3 - الرقيق: المصدر السابق، ص 144، النويري: نفس المصدر، ج24، ص 82، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 76، قارن في ذلك مع (ابن خلدون: العبر، ج6، ص 114، السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 117) حيث ذكر كل منهما أن عدد جند أبي حاتم الملزوزي بلغ 350 ألف راجل وفارس فضلا عما أوردته تلك المصادر من انضمام أبا قرة بجنده إلى أبي حاتم أثناء حصار القيروان رغم عدم ذكر المصادر التي تحدثت بإسهاب عن حصار القيروان لذلك، فربما اختلط الأمر على ابن خلدون والسلاوي بيم حصار طبنة السابق ذكره وحصار القيروان خاصة أن أبا قرة كان قد عاد بعد رجوع عمر بن حفص إلى القيروان وهاجم طبنة كما أشرنا إلى ذلك، انظر أيضا: (عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، هامش ص 162)

4 - الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب، ص 143-144، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 600، ابن عذاري: البيان المغرب ج1، ص 76.

5 - النويري: نهاية الأرب: ج24، ص 82، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 363.

والحطب استعدادا للحصار قبل مجيء أبي حاتم،[1] ثم أقبل أبو حاتم في جموعه حتى نزل عليه.[2]

ومن المحتمل أن يكون عمر بن حفص وأصحابه قد تبنوا عملية الحصار نظرا لقلة عدد قواتهم بالمقارنة بقوات أبي حاتم الذي يصعب مواجهته في معركة مفتوحة.[3]

وعلى الرغم من ذلك فبعد أن شحن القيروان بالمؤن والقوت حفر عمر بن حفص خندقا عند باب أبي الربيع احد أبواب المدينة، ورابط مع جنده خلفه، وبذلك فرض على نفسه الحصار واكتفى بالدفاع آملا أن يحل بالمحاصرين ما حل بهم أثناء حصار طبنة، ولكنه خاب ظنه ودارت عليه الدائرة.[4] وبدأت المناوشات بين الطرفين عند باب أبي الربيع، في حين أخذت عساكر أبي حاتم تسد أبواب القيروان الأخرى،[5] مما أدى إلى تفاقم الخلاف بين ابن حفص ورجاله واختلفت آرائهم حول معالجة الموقف،[6] كما ضاعف البلاء عليه أن يرى نفسه سجينا في القيروان وهو المعروف بشدته وحسن بلائه.[7] وإزاء اضطراب هذه الأحوال ساءت أخلاق عمر بن حفص، كما ساءت أخلاق العسكر الذي أخذ يشك في نواياه.[8] وفي أثناء ذلك أرسلت إليه زوجته خليدة بنت المعارك أنباء خروج الجيش الذي أرسله أبو جعفر المنصور بقيادة يزيد بن حاتم،[9] ابن عمه.[10] فعز على ابن حفص أن يقال

1 - ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص 600، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 162.
2 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 76.
3 - عوض خليفات: المرجع السابق: ص 162.
4 - الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب، ص 144، انظر أيضا: عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 162.
5 - ذكر (الرقيق) أن أبي حاتم انزل عسكرا بين باب سالم وباب أصرم وعسكرا بين باب نافع وباب عبد الله وانضم إليهم عمرو بن عثمان الفهري وسار معهم (نفس المصدر، ص 144.)
6- الرقيق: نفس المصدر، ص 145.
7 - دبوز: المغرب الكبير، ج 3، ص 64، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 364 .
8 - انظر تفصيلات ذلك في (الرقيق: المصدر السابق، ص 145، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 600.).
حيث ذكر أن عمر بن حفص قال لمن معه من الجند "قد كان أصحابكم من الجهد أمر عظيم حتى قدمت عليكم، ففرح الله عنكم بعض ما كنتم فيه، وقد ترون ما انتم الآن فيه، فإن شئتم خرجت على ذراريهم وبلادهم، وجعلت عليكم أي الرجلين شئتم ! جميلا أو المخارق وإخراج في ناس من الجند، فأغير على نواحيهم؟" ونحتكر الميرة، قالوا "قد رضينا"، فلما هم بالخروج قالوا: "تريد أن تخرج أنت ونبقى نحن في الحصار"، قال: "أقيم معكم، اسرح جميلا أو المخارق ومن أحببتم وأخرج أنا في أناس من الجند، وأغير على نواحيهم، قالوا "نعم"، فلمنا جاء إلى باب المدينة، قالوا: "تخرج أنت ونقيم نحن، لا تفعل" فغضب عمر وقال "والله لأوردنكم ونفسي حياض الموت" انظر أيضا: سعد زغلول: المرجع السابق، ج1، ص 364).
9 - هو أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيضة بن المهلب بن أبي صفرة الازدي، ولاه أبو جعفر المنصور على جيشه لإنقاذ عمر بن حفص من حصاره السابق وكان جوادا كريما، لذا قيل فيه: لشتان ما بين اليزيدين في الندا.......يزيد سليم والأغر بن حاتم. (مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج1، ص 32، الباجي: الخلاصة النقية، ص 20.)
10 - الرقيق: المصدر السابق، ص 146، النويري: نهاية الأرب، ج 24، ص 83.

يزيد أخرجه من الحصار، وقال "لا خير في الحياة بعد أن يقال يزيد أخرجه من الحصار، إنما هي رقدة ثم أبعث إلى الحساب"، وخرج عمر يضرب ويطعن حتى قتل سنة 154هـ/770-771م.[1]

وعقب مقتل عمر بن حفص بايع الجند أخاه لأمه جميل بن صخر، وكان جميل ميالا إلى السلم والموادعة مع أبي حاتم والإباضية،[2] فراسله في ذلك ويبدو أن أبا حاتم كان تواقا لهذا السلم هو الآخر، حتى يتفرغ لجيش الخلافة بقيادة يزيد بن حاتم، ليتمكن أيضا من فتح القيروان دون حاجة إلى حصار ومزيد من العناء.[3]

وليس أدل على رغبة أبي حاتم في الصلح من تساهله في الشروط التي نص عليه هذا الصلح وهي كالتالي:

أولا: أن يستولي أبي حاتم على القيروان ويدخلها دون قتال.

ثانيا: أن يظل جميل وأصحابه على ولائهم للخلافة العباسية، ولا ينزعوا سوادهم.

ثالثا: أن كل دم أصابه جند الخلافة من البربر والإباضية فهو هدر ولا يجوز المطالبة به.

رابعا: أن لا يجبر أحد من جند الخلافة على بيع سلاحه ودوابه وممتلكاته.[4]

ودخل أبو حاتم القيروان فأمر بحرق أبوابها وثلم سورها،[5] ولعله أراد بذلك أن لا تصبح المدينة ملجأ لأي عدو في المستقبل،[6] وعهد بولايتها إلى عبد العزيز بن السمح المعافري (أخو الإمام أبي الخطاب المعافري) استعدادا لمواجهة يزيد بن حاتم، فاتجه إلى طرابلس،[7] وخرج معظم جند الخلافة طوعا من القيروان متجهين إلى طبنة، التي كانت ما تزال في قبضة الخلافة العباسية، فلم يتبق في القيروان إلا النزر اليسير، مما شجع أبي حاتم على التخلص من البقية الذين اثروا البقاء في القيروان.[8] فكتب أبو حاتم إلى واليه على القيروان عبد العزيز المعافري يأمره بمخالفة بنود الصلح المتفق عليها، بل وأخذ سلاح

1 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 76، السلاوي: الاستقصا، ج1، ص 118.
2 - النويري : نهاية الأرب، ج 24، ص 83.
3 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 163.
4 - الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب، ص 146، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 600، انظر أيضا: عوض خليفات: المرجع السابق، ص 163.
5 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 77.
6 - عوض خليفات: المرجع السابق، ص 163.
7 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 84.
8 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 163.

الجند مع عدم اجتماع اثنين منهم في مكان واحد، وأن يوجههم إليه واحدا تلو الآخر.[1]

ولما رأى الجند العربي أنهم خدعوا، قرروا عدم الرضوخ لأوامر أبي حاتم ومناهضته خاصة بعدما نما إلى علمهم تقدم يزيد بن حاتم الذي أرسله المنصور من المشرق، فضلا على انضمام عمرو بن عثمان الفهري وأعوانه إليهم،[2] وكان عمر من صفوف الإباضية الذين حاصروا القيروان من قبل، وعندما تأكدوا من صدقه في انضمامه إليهم ولوه عليهم مستفيدين من خبرته ومعرفته بأحوال الإباضية.[3]

وأثمر هذا التحالف عن قيام عمرو بن عثمان بقتل أصحاب أبي حاتم عن آخرهم، وأضطر أبو حاتم للعودة إلى القيروان لتأديب عمرو بن عثمان وأصحابه، والتقى الطرفان في معركة عنيفة (في موضع ما لم تشر إليه المصادر على حد علمنا)، تمخض عن هذا اللقاء مقتل عدد كبير من جند أبي حاتم وهزم عمرو بن عثمان، إلا أنه سرعان ما اتجه بمن بقي معه إلى تونس، في حين سار آخرون مع جميل بن صخر والجنيد بن سيار نحو المشرق حيث التقوا يزيد بن حاتم في سرت.[4]

وأرسل أبو حاتم جرير بن مسعود المديوني أحد قواده، لإخضاع عمرو بن عثمان فالتقيا في مكان يسمى جيجل،[5] وهزم جرير وقتل في جمع كبير من أصحابه، ونجا ابن عثمان بقواته التي كانت موالية للعباسيين، وبذلك وبفضل مساعدة المخارق بن غفار الطائي في الوقت الذي كان فيه جيش أبي حاتم مجهدا من كثرة الحروب والثورات.[6]

4 - موقف الدولة العباسية من ازدياد نفوذ نفوسة في افريقية.

فقد اختار أبو جعفر المنصور لولاية افريقية يزيد بن حاتم لأنه من الأسرة المهلبية التي عرفت بعدائها للخوارج، فضلا عما كان ليزيد من الشجاعة والجور وبعد الصيت ما يفوق عمر بن حفص، وكان واليا على مصر، فسيّره المنصور إلى افريقية في جيش كثيف بلغت عدته ستين ألف رجل نصفهم من جند خرسان والبقية من جند العراق والبصرة والكوفة والشام،[7] هذا بالإضافة إلى ما ألتقي به من أتباع جميل بن صخر القادمين

1 - الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 147.

2 - النويري: المصدر السابق، ج 24، ص 84.

3 - عوض خليفات : المرجع السابق، ص 164.

4 - الرقيق: المصدر الساق، ص 147.

5 - جيجل: موسى يطلق عليه مرسى الزيتونة، وهو على مقربة من مدينة ميلة فضلا عن هذا أن جيجل جزء من جبال كتامة (البكري: المغرب، ص 64، 82-83).

6 - دبوز: المغرب الكبير/ ج3، ص 73.

7 الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب نص 145، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 601، ابن عذاري: البيان المغرب،

من القيروان،[1] فضلا عن انضمام قبيلة مليلة الهوارية إلى صفوف يزيد بن حاتم وكذلك بعض رجال نفوسة الذين استرشد بهم في الوقوف على عورات البلاد وعلى رأسهم عمر بن مطكود النفوسي.[2]

وما أن نمى إلى علم أبي حاتم ذلك إلا جمع أصحابه من قبائل نفوسة وهوارة وغيرهم،[3] واتفقوا على أن يلجأ أبو حاتم بقواته إلى جبل نفوسة المركز الرئيسي لنشر الدعوة الإباضية منذ بواكيرها،[4] ولقد كان لضخامة حملة يزيد بن حاتم وحسن استعدادها،[5] وقلة عدد جند أبي حاتم،[6] أمام قوات يزيد التي أرسلها المنصور وهو يعلم أنه قد رمى أبو حاتم الإباضي بأكبر جيوشه الجرارة،[7] فضلا عن مدى الضعف الذي أصاب جيش أبي حاتم الإباضي من جراء حروبه المتواصلة التي أنهكت قواه،[8] ومن هنا رأى أبو حاتم أن يلجأ إلى منازلة يزيد في أماكن وعرة كجبل نفوسة لاعتباره من النواحي العامرة بأنصاره الذين سيساندوه ويحفظوا ظهره، هذا بالإضافة إلى استخدامه حرب العصابات وقت الضرورة إذا تغلب عليه يزيد بن حاتم هذا كما أن جبل نفوسة بقعة واسعة شاهقة الارتفاع معظمه إباضية تجعله هو المتحكم في بدء المعركة، فضلا عن شجاعة إباضية جبل نفوسة وثباتهم في القتال[9] وعندما اعتصم أبو حاتم بجبل نفوسة: أمر الإباضية بحفر خندق ليمنعه من يزيد وجنوده،[10] لكثرة جنود يزيد بالمقارنة بجنود أبي حاتم،[11] واستطاع يزيد أن يفسد خطة أبي حاتم عن طريق استعانته بعمر بن مطكود النفوسي أحد رجال نفوسة الناقمين على أبي حاتم، حيث نصحه بأن يستند إلى غرب جبل حندوبه المنيع (أحد الجبال الغربية لجبل نفوسة) ويقي به ظهره خوفا من مهاجمة نفوسة الإباضية

ج1، ص 78-79، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 366. -

1 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 85.

2 - الشماخي: السير، ج1، ص 122، انظر أيضا محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 93.

3 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 79.

4 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 64.

5 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 93.

6 -لم تحدد المصادر هنا عدد جيش أبي حاتم بالمقارنة بجيش يزيد بن حاتم وقد يتبين أنه قد قل عما كان عليه أثناء حصار القيروان، الذي بلغ مائة ألف وثلاثين، ويرجع ذلك إلى كثرة الحروب الذي خاضها أبو حاتم مع ولاة العباسيين، فضلا عن ثورات بعض مواليه أمثال عمرو بن عثمان وغيرهم كما ذكرنا آنفا (الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 144-147، النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 82-84) انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 367.)

7 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 75.

8 - سعد زغلول: المرجع السابق، ج1، ص 367.

9 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 75.

10 - النويري: المصدر السابق، ج24، ص 85.

11 - دبوز، المصدر السابق، ج3، ص 75.

له من ورائه إذا وقعت المعركة وبالفعل أخذ يزيد بن حاتم بنصيحة عمر بن مطكود،[1] مما سهل عليه اجتياز الخندق الذي كان قد حفره أبي حاتم، والتحمت جيوشه بالإباضية،[2] غير أن أبي حاتم استطاع في بادئ الأمر هزيمة مقدمة جيش يزيد التي كانت تحت قيادة سالم بن سوادة التميمي وقتل منها أعدادا كثيرة،[3] ثم سرعان ما دارت الدائرة عليه، فهاجم يزيد بعد أن نظم قواته، وجرت بين الفريقين معركة قاسية في جبل نفوسة سنة 155هـ/771-772م، قتل فيها خلق كثير وكان النصر حليف يزيد بن حاتم،[4] ويذكر الدرجيني أن أبا حاتم لما وجد ضراوة القتال على أصحابه قال لهم: "زفوني إلى الموت في سبيل الله زفاف العروس، قفوا لي قليلا"، فتقدم أبو حاتم حتى استشهد هو ومن معه من أصحابه،[5] فقتل منهم ثلاثين ألفا وفر الباقون إلى أنحاء الجبل، في حين لم يقتل من جند يزيد بن حاتم أكثر من ثلاثة رهط[6] ربما قل عن ذلك[7] ودفن أبو حاتم الملزوزي في ككلة[8] ورغم ذلك لم يكتف يزيد بن حاتم بما حققه من نصر على الإباضية في جبل نفوسة، بل رابط في هذا الجبل شهرا لا يرفع السيف عنه متتبعا الشخصيات البارزة الفارة خوفا من أن يثوروا عليه مرة أخرى مستأصلا شأفتهم[9] فسكنت له نفوسة خائفة، وخفضت رأسها بعد أن كانت عالية شامخة.[10]

ولما نال يزيد من إباضية جبل نفوسة، وفعل بهم الأفاعيل ما يشفي غليله اتجه إلى بلاد هوارة في شرق طرابلس حيث أخضعها بالسيف[11] ثم استعمل على طرابلس سعيد بن شداد متخذا هو طريقه إلى القيروان في نفس العام.

وعندما ثارت هوارة في شرق طرابلس بقيادة أبي يحيى بن قرياس الهواري[12] زحف طوائف من إباضية جبل نفوسة، وزناتة إلى أبي يحيى الهواري لمساندة الثورة[13] منتهزين

1 - الشماخي: السير،ج1، ص 123، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 75.
2 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 85.
3 - الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب، ص 160.
4 -ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 601، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 79.
5 - طبقات: المشائخ بالمغرب، ج1، ص40.
6 - الرهط: قوم الرجل وقبيلته ويتراوح عددهم من ثلاث إلى ما دون العشرة. (الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص 762).
7 - الرقيق: المصدر السابق، ص 160.
8 - ككلة: موضع بين يفرن ومديرية الاصابعة بجبل نفوسة (دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 77).
9- الرقيق: تاريخ افريقية والمغرب، ص 160، النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 86.
10 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 85-86.
11 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 85-86.
12 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 79، قارن (ابن الأثير، الذي يسميه أبو يحي بن فانوس (الكامل ج6، ص 11).
13 - دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 87.

فرصة ثورة عبد الرحمن بن حبيب (حفيد عبد الرحمن بن حبيب الفهري) في جبل كتامة[1] ضد العباسيين[2] نتيجة عسفهم بجده عبد الرحمن، وكان حفيد عبد الرحمن بن حبيب حليفا للإمام أبو حاتم الإباضي الذي لجأ إلى قلعة جيجل بعد هزيمة جبل نفوسة[3] إلا أن المخارق بن غفار عامل طبنة استطاع هزيمته بعد حصاره ثمانية أشهر.[4]

وكان يزيد بن حاتم قد ترك قوة حربية بقيادة أحد قواده يدعى عبد الله بن السمط الكندي، لمعاونة ومساندة والي طرابلس إذا حدثت ثورات أو قلاقل أخرى، ورغم المعارك الطاحنة التي سقط فيها قتلى من كلا الطرفين استطاع عبد الله الكندي التغلب على هذه الثورة[5] في حين كانت المنطقة بأسرها سواء جبل نفوسة أو حيز طرابلس تتطلع للانضمام إلى الدولة الرستمية الناشئة[6] وبذلك استقامت الأمور، وهدأت الأحوال وهو ما يوضحه ابن عذاري بقوله: "تهدنت افريقية ليزيد بن حاتم، وضبطها"[7]

5 - دور إباضية جبل نفوسة في تدعيم الدولة الإباضية الرستمية في تاهرت.

لقد استكان إباضية جبل نفوسة، وغلبوا على أمرهم بعد المعركة الطاحنة التي قتل فيها إمامهم أبو حاتم الملزوزي مع خيرة جنده وقوادة في جبل نفوسة 155هـ/771-772م،[8] فأصبحت القوة بأيدي عمال بني العباس[9] وبذلك تصدعت حركات الإباضية في المغرب الأدنى وإفريقية،[10] وانتقلت قيادة الحركة الثورية من إباضية جبل نفوسة إلى إباضية تاهرت،[11] الذين أصبحوا معنيين بتعيين ولاة جبل نفوسة نظرا لتبعيته لهم[12] إبان تأسيس دولة إباضية بتاهرت سنة 191هـ/777م على يد عبد الرحمن بن رستم بمؤازرة إباضية المغرب الأوسط تلك الدولة التي امتد نفوذها فيما بعد لتضم إباضية المغرب

1 - جبال كتامة: جبال وعرة تتكون من جبال سطيف وجيجل وميلة الشهيرة وهي مواطن القبيلة كتامة البربرية البرنسية التي تعتبر واحدة من اكبر قبائل المغرب الأدنى، حيث تمتد عمارتها إلى أن تجاوز ارض القل وبونة من المغرب (الإدريسي: نزهة المشتاق، مجلدا، ج1، ص 269، انظر أيضا: دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 612-613).
2 - الرقيق: المصدر السابق، ص 161.
3 - دبوز: المرجع السابق: ج3، ص 86.
4 - الرقيق: المصدر السابق ، ص 161.
5 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 79.
6 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 87-88.
7 - البيان المغرب: ج1، ص 79.
8 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 601، ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص79، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ج2، ق1، ص 75، محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 95.
9 - معمر: نفس المرجع، ج2، ق1، ص 75.
10 - محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 95.
11 - معمر: المرجع السابق، ج2، ق1، ص 75.
12 - الشماخي: السير، ج1، ص 142.

جميعا، بعد أن دانوا بالولاء والتبعية، وأقامت دليلا عمليا على نجاح ثورات الإباضية في تحقيق مراميها بتكوين دولة إباضية بالمغرب.[1]

وكان إباضية جبل نفوسة أول من بايع عبد الرحمن بن رستم بالإمامة[2] وهو ما يشير إليه النفوسي بقوله "اجتمع عنده من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء فقط ما يزيد على ستين من أكابر العلماء وأهل الفضل والرأي"[3] كما بني أهل جبل نفوسة عدوة داخل تاهرت سميت "بعدوة نفوسة" وذلك حتى يكونوا على مقربة من الإمام.[4] ومن هنا أصبح إباضية جبل نفوسة هم أطوع رعايا بالدولة الرستمية، وأكثرها عونا على الخير، وأشدها بأسا في النصر على الأعداء، ونرى ذلك فيما أشار إليه الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171-211هـ/787-826م)[5] على حد قوله "إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاته"، وهو الصيت الذي اشتهرت به إباضية جبل نفوسة في المشرق لدى العباسيين الذين كانوا يعرفون مدى قوتهم، مقارنة بغيرهم من رعايا الدولة الرستمية، بل إنهم كانوا أحد الدعائم الأساسية لتلك الدولة،[6] بفضل تأييدهم الشديد لسلطان

1 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 196، انظر أيضا: محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 95.

2 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 46، انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 547.

3 - النفوسي: الأزهار الرياضية، دج2، ص 44، انظر أيضا: السيد سالم: نفس المرجع، ج2، ص 540.

4 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق د.محمد ناصر وآخرون، بدون دار نشر، الجزائر، 1985م، ص 54.

5 - على الرغم من اختلاف المؤرخين في تاريخ إمامة عبد الوهاب بن رستم إلا انه قد تبين لنا أنه تولى سنة 171هـ/787م أي بعد وفاة والده بشهر أو شهرين حيث أننا نرد له أي ذكر قبل هذا التاريخ، أو حادثة تشير إلى إمامته، وذلك طبقا لما وضحه (إسماعيل العربي) أثناء تحقيقه (السير أبي زكريا، هامش ص 87)، فضلا عما وضحه الشماخي: السير، ج1، ص 130) ونستند في ذلك أيضا لما أورده النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 151-152). أما مدة إمامته فالشائع بين المؤرخين أن إمامة عبد الوهاب دامت 40 سنة وإن كان ذلك إختلافا مع ما ذكره (ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 197) من أن إمامته عشرين سنة مبينا وفاته سنة 188هـ. وما ذكره (النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 218). من أن مدة إمامته 19 سنة حيث توفي سنة 190هـ. وبذلك فإن قول كل من ابن عذاري والنفوسي لا ينطبق مع ما ذكرته باقي المصادر التاريخية منها (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، ج2، ص 270) من أن عبد الوهاب بن رستم قد سار على رأس قوة من البربر سنة 196هـ/811م لحصا طرابلس ثم عقد صلح بينه وبين عبد الله بن إبراهيم الأغلبي في نفس العام، وإن دل ذلك فإنما يدل على أن عبد الوهاب كان حيا في تلك السنة، وهو ما ذكرته المصادر التاريخية الأخرى مثل: (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 114-117، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص67، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 123) أما عن وفاته؛ ففي تقديري أن وفاته لم تكن في النصف الأخير من القرن الثاني للهجرة كما ذكر أستاذنا الكبير سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979م، ج2، ص 311) من أنه توفي سنة 198هـ/813م ونستند في ذلك إلى ما ذكره كل من: (البغطوري: سيرة أهل نفوسة/ مخطوط، ورقة 146، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 72). بأن أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني عامل الإمام عبد الوهاب بن رستم على جبل نفوسة من علماء الطبقة الخامسة (200-250هـ) أي الذين عاشوا في تلك الفترة، قد أمره الإمام عبد الوهاب بأن يعامل خلف بن السمح بالملاطفة والملاينة ما استطاع لعله يتذكر أو يخشى.

6 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 87، انظر أيضا" دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 518.

الرستميين، ولذا فقد عمل الخليفة العباسي المتوكل (232-247هـ/846-861م)[1] على إرسال رسله إلى ولاته في القيروان ومدينة طرابلس يحذرهم من قيام دولة الفرس بتاهرت، لأنها ستضر بمصالحهم[2] في حين لقي إباضية جبل نفوسة الحظوة عند الأئمة الرستميين من حيث أنهم أفضل العناصر العسكرية المكونة للجيش الرستمي، فضلا عن توليتهم أمور القضاء والحسبة داخل تاهرت.[3]

وما أن تمكن عبد الرحمن بن رستم من إرساء قواعد دولته،[4] التي امتدت من جبل نفوسة وأحواز طرابلس شرقا حتى أحواز تلمسان غربا[5] ووضع نظمها الإدارية والمالية، خاصة بعد أن توج ثورات الإباضية في المغرب بتأسيس أسرة حاكمة ضمت معظم أقاليم المغربين الأدنى والأوسط، ظل أئمتها يتناوبون على حكمها قرابة قرن وربع قرن من الزمان[6] فكان أول إمام له من بعده ابنه عبد الوهاب؛ فعقب توليه الإمامة انتهز الواصلية[7] وقوع الفرقة بين الإباضية وبعضهم بعضا حول اختيار الإمام الجديد، وكان أشدهم خلافا: فرقة النكار[8] التي كان لها أثر كبير في شق عصا الطاعة وتأسي الواصلية

1 - ففي تقديري أن ذلك لم يحدث على عهد المتوكل كما ذكر (أبو زكريا) وإنما حدث على عهد المعتضد بالله (279-289هـ/892-901م) لأن مناوئة العباسيين لإباضية جبل نفوسة كان من أسباب موقعة مانو سنة 283هـ/896م، هذا فضلا على أن وفاة المتوكل كانت سنة 247هـ/861م. (أبو زكريا: نفسه، هامش ص 154).

2 - أبو زكريا: نفس المصدر، ص 155.

3 ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين، ص 54.

4 - محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، ص 153.

5 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج 2، ص 315.

6 - محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 153.

7 - الواصلية: إحدى فرق المعتزلة ورئيسها واصل بن عطاء الذي اعتزل الحسن البصري عندما قال بالمنزلة بين المنزلتين، وأن الفاسق في الإسلام لا هو مؤمن ولا كافر وكان اغلب المعتزلة الواصلية في الدولة الرستمية من قبيلة زناتة الذين كانوا يسكنون الخيام وينتجعون المراعي فكان عددهم في شمال تاهرت نحو ثلاثين ألفا ينتشرون من شمالها حيث مدينة مستغانم إلى وهران، وفي جنوبها في تيلغمت وفي الصحراء وفي مدينة العطفاء والفيحاء بوادي ميزاب في جنوب الجزائر لذا سميت هناك بمقبرة المعتزلة، ولقد نال الواصلية الحرية تحت رعاية الرستميين، كما تمتعت بها الفرق الإسلامية الأخرى كالمالكية والصفرية. (البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 40-41، البكري: المغرب، ص 67، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 479-481، عبد الرحمن سالم: التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الثقافة، القاهرة، 1989م، ص 53).

8 - النكار: ظهرت هذه الفرقة عندما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو اجله فجعل الإمامة شورى من بعده في سبعة نفر، تأسيا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان منهم ابنه عبد الوهاب، وذلك بدءا من عام 171هـ/787م، وسميت هي الفرقة= =بالنكار لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب بن رستم، في حين سمي مؤيديه بالوهابية وهو جمهور الإباضية، ورأس هذه الفتنة النكارية هو يزيد بن فندين وكان من ضمن السبعة الذي رشحهم الإمام للإمامة من بعده، مما جعله يعتقد أنه الأكفأ لهذا الأمر دون غيره، ولم يقم ابن فندين بإثارة الفتنة مباشرة بعد تولي عبد الوهاب بن رستم الإمامة بل انتظر طمعا في أن يحظى بالقيام بعمل من الأعمال الهامة، ولما لم يحدث ذلك أثار نزاع وخلافا من أن إمامة عبد الوهاب باطلة، ومن هنا وقع الخلاف بين إباضية المغرب واقترحوا أن يأخذوا رأي الإباضية في المشرق، فأرسلوا إلى الفقيه الإباضي آنذاك الربيع بن حبيب الذي أجاز بصحة الإمامة،

بهم،[1] مباهين بكثرتهم وقوة شوكتهم[2] متطلعين إلى الخروج عن حكم الإمام، اعتقادا منهم أنهم يستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم كما أن الإمام كان مخالفا لهم في المذهب[3] فضلا عن وجود أميرهم بطنجة الذي أخذ في تحريضهم على الخروج[4] عن طريق مكاتباته إلى رؤساء الواصلية بمحاربة الإمام عبد الوهاب الذي اعتذر لهم مرارا حقنا لدماء المسلمين، ولكنهم اغتروا بقوتهم وصمموا على الحرب[5] فتكاتفت كلمة الواصلية واجتمعوا من كل صوب وحدب بالقرب من تاهرت إلى أن غطت جيوشهم جبال المدينة، ثم دارت الحرب بينهم فكان الإمام ينتصر تارة، وينهزم تارة أخرى، وكان من أبرز أبطال الواصلية ابن سيدهم (لم تسمه المصادر على حد علمنا) الذي علا به الصيت في الشجاعة والفروسية حتى لا يدرك أحدا إلا قتله[6] ولقد أشار النفوسي بأن الإمام عبد الوهاب أدرك أنه انتقل من حرب قوية (حرب النكار) إلى حرب أقوى منها، وأن التمادي في ذلك سيؤدي إلى ما لا تحمد عقباه مما جعله يطلب الهدنة[7] مع الواصلية لإخفاق الفتنة، وحقنا للدماء، فأجابوه إلى طلبه.[8]

ومع ذلك لم يهدأ ابن فندين بل أشعلها حربا ضروسا ضد الإمام استعان على إضرامها بوسائل دينية استغفل فيها فريقا كبيرا من العامة، ولم يستطع الإمام القضاء عليها إلا بعد أن راح ضحيتها ما يقرب من عشرين ألفا من الطرفين على رأسهم ابن فندين (أبو غانم الخرساني: مجموعة أولها مدونة أبي غانم، مخطوط بدر الكتب المصرية، رقم 1582ب، ورقة 2، أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم ص 86-100، الشماخي: السير، ج1، ص 131-136، انظر أيضا: صابر طعيمة: الإباضية عقيدة ومذهبا، ص 50-51، مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1988م، ص 50.)

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 57، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 168.

2 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص136.

3 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 169.

4 - النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 168.

5 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 57، الشماخي، المصدر السابق، ج1، ص 136.

6 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 102، الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 137، النفوسي: نفسه، ج2، ص 169.

7 - لقد انفرد النفوسي دون غيره من المصادر الأخرى بذكر هذه الهدنة، ولذلك فقد يكون أتباع الإمام عبد الوهاب أسلوب المماطلة والاعتذار مرة بعد الأخرى للواصلية (وهي ما ذكرته المصادر الأقدم كأبي زكريا والدرجيني) لحين وصول الوفد النفوسي، جعل الأمر يختلط على النفوسي مما جعله يعتقد أن الإمام عبد الوهاب عقد معهم هدنة في حين أنه لو كانت هناك هدنة لانتظر مدة انتهائها، وما استعجل الإمام عبد الوهاب الوفد النفوسي للقتال فور وصولهم ونستشف ذلك من جوابهم للإمام عندما سألهم قائلا"تأهبوا للخروج، فقالوا له"دعنا حتى نستريح وتستريح دوابنا فقد أساءها السفر" هذا بالإضافة إلى عدم ذكر المصادر الإباضية منها النفوسي نفسه مدة هذه الهدنة وشروطها (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 105، الدرجيني: كبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 57-60، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 169).

8 - النفوسي : نفس المصدر، ج2، ص 169.

(أ) استنجاد عبد الوهاب بن رستم بإباضية جبل نفوسة في حروبه مع الواصلية:

لما كان إباضية جبل نفوسة الذين يدينون بطاعة الإمام عبد الوهاب، ويتفانون في رضائه، وفيهم من أهل النجدة، والشجاعة، وأبطال الحرب، وفحول العلماء ما يعد بالألوف...رأى الإمام عبد الوهاب أن يستعين بهم على أعدائه[1] فأرسل إلى إباضية جبل نفوسة يستمد منهم أربعمائة نفر منهم مائة من خيرة فرسانهم وأبطالهم المشهورين بالشجاعة والإقدام في الحروب، وما تبقى منهم من العلماء البارعين في المناظرة والتفسير[2] (وهو ما سوف نتعرض له عند الحديث عن الجانب العلمي لعلماء إباضية جبل نفوسة).

فلما وصلت رسل الإمام إلى جبل نفوسة، اتفق رأيهم جميعا على أن يبعثوا له بأربعة نفر من خيار رجالهم، ليقوم كل واحد منهم مقام المائة الذي طلبهم الإمام، فكان من بينهم الفارس الشجاع العلامة أيوب بن العباس الذي قال "لا اعلم فارس أقوى مني من مصر إلى فاس"[3] وعندما استقر إباضية جبل نفوسة على من اختاروه أرسلوهم إلى تاهرت،[4] وعندما نمى إلى علم الإمام عبد الوهاب بأن مدد إباضية جبل نفوسة في طريقه إليه فرح لذلك ووعد عبيده بأن أول من يأتيه بنبأ وصولهم، فسينال حريته بعتقه من الرق،[5] ودارت قصة حول ذلك[6] بوصول الوفد النفوسي نفذ الإمام وعده بعتق من ابلغه الخبر من العبيد على الرغم من استيائه لقلة عددهم بسؤاله لهم عن سبب قلتهم، ومع ذلك فقد طمأنوه وأخبروه بأن كل واحد منهم مائة مما طلب، فأنزلهم دار الضيافة، وأحسن إليهم، وأخذ يتطلع إلى لقاء الواصلية بعد أن أجل لقاءهم بالاعتذار أكثر من مرة، وبعد أن استراح الوفد النفوسي، وأخبروه بوظائفهم، فحدد الإمام يوما معلوما

1 - النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 170.

2 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 86.

3 - فاس : مدينة جليلة تقع على بعد 30 كم تقريبا من طنجة، وهي دار مملكة بني إدريس بن عبد الله حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب (البكري: المغرب، ص 118).

4 - البغطوري : سيرة أهل نفوسة، ورقة 87، أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 102.

5 - أبو زكريا: نفس المصدر، ص 104، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 327.

6 - لما تأكد العبيد من يقين وعد الإمام عبد الوهاب بمكافأة العتق من الرق لأول من يأتيه بخبر وصول الوفد النفوسي، أخذ كل فرد من أرقائه إذا أصبحوا خرجوا من سور المدينة، يتوجهون يمينا ويسارا حتى يحظى احدهم بتلك المكافأة، فيكون له فضل السبق بالإبلاغ عن قدومهم ولما كان أحد هؤلاء العبيد أعرج لا يقدر على مجاراة أصحابه في السير ألهمه ذكاؤه أن يصعد إلى مكان عال بسور المدينة حتى يبصرهم من بعيد فيذهب إلى سيده ليبلغه بذلك، وبالفعل عندما كان يوم وصولهم أبصرهم العبيد من خرج سور المدينة، وأسرع كل منهم في سباق ليخبروا الإمام بمجيئهم، فعندما رآهم الأعرج عن بعد عجل إلى الإمام وبشره، فاعتقه الإمام وجاءه أصحابه ليخبروا الإمام بذلك، فوجدوا الأعرج قد سبقهم بالبشارة، فقالوا "فاز به الأعرج" (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 59، الشماخي: السير، ج1، ص 137).

للمبارزة،[1] خاصة وأن النفوس من الفريقين قد اشتاقت إلى روية هؤلاء النفوسيين الذي كان لمجيئهم صدى أطبق الأقطار،[2] بعد أن ساءت ظنون الواصلية، وانتفخت أسحارهم عما يمكن أن ينجلي لهم من إباضية جبل نفوسة[3].

استطاع أيوب بن العباس الفارس الذي لا يشق له غبار، أحد الرجال الأربعة من جبل نفوسة أن يذهل القوم بشجاعته وقوته من خلال مواقفه المتعددة، فعندما أراد اختيار فرس قوي من دار الدواب في تاهرت، بدلا من فرسه الذي أصابه عناء السفر، وتعب السير من جبل نفوسة إلى تاهرت، ليكون معينا له على مبارزة الشاب ألمعتزلي الواصلي الموصوف بالشجاعة، فلم يعجبه ما في دار الدواب من أفراس،[4] وانتهى به الأمر إلى علاج فرسه الذي كان قد أصابه الحفاء، باستخدام الرمل المحمس ليطأه الفرس مدة ثلاث أيام حتى يتم علاجه.[5]

وما أن بلغ الأجل المتفق عليه بين الإمام والواصلية، إلا وحضرت الواصلية بناء على طلب الإمام الذي خرج بعسكره ومعه الوفد النفوسي، حيث التقى الجانبان خاصة بعد أن تاقت النفوس من الفريقين إلى رؤية أيوب بن العباس، لما عرفوا عنه من الشجاعة فضلا عن أنه هو المتكفل بفارس الواصلية الذي يفترس الأقران ويعجز الفرسان.[6]

وعندما خرج الفارس الواصلي طالبا المبارزة بعد أن اصطفت الصفوف على الجانبين، خرج إليه أيوب بن العباس، فجذب فرسه حيث استوى بين الصفين وأراد ركوبة،[7] وركب من جهة اليمين خلافا لما هو متعارف عليه لفرسان وهو الركوب من جهة اليسار[8] فضحك منه عامة الفريقين واستبشروا لذلك حيث ضمنوا فوز صاحبهم، إلا والده والعارفون بمكائد رجال الحرب.[9]

وبعد أن استوى أيوب على ظهر جواده استعرض لفنون فروسيته، حيث قذف حربته في الهواء كالعادة، وكان وزنها ثمانية عشر رطلا وهيأ لها رمحه التي جاءت فيه مستوية

1 - الدرجيني : نفس المصدر، ج1، ص 59، الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 137.

2 - النفوسي: الأزهر الرياضية، ج2، ص 173.

3 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 107.

4 - الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 60، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 327.

5 - النفوسي : المصدر السابق، ج2، ص 174، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 87: سعد زغلول: المرجع السابق، ج2، ص 328.

6 - الشماخي : السير، ج1، ص 138، النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 174.

7 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 62.

8 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 176.

9 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 109، الشماخي: السير، ج1، ص 138.

دون تركيب مما فزع الناظرين لما رأوه من عجائب فروسيته،[1] وما هي إلا جولة أو بعض جولة حتى حمل أيوب على خصمه فقتله بسيفه القصير ذي الحد الواحد، فكانت تلك إشارة بدء المعركة، حيث تحمست الواصلية وزحفت إلى القتال بعد مقتل فارسهم وحاميتهم، وأسفرت المعركة عن هزيمة الواصلية بعد أن صرع معظمهم في ميدان القتال.[2]

ولم ينس الواصلية ثأرهم من أيوب بن العباس الذي قضى على رمز شجاعتهم الفارس الواصلي المعروف بالشجاعة، فبعد أن مضى وقت طويل على هزيمتهم، دبروا مؤامرة للغدر به، فأرسلوا إلى أيوب بن العباس لضيافته وأراد قبول طلبهم في حين أبى عليه عامة المسلمين وحذروه خطر ذلك.[3]

وعلى الرغم من ذلك توجه أيوب إلى الواصلية، وكانوا قد ذبحوا شاه وقدموها له على العشاء مع وقر من لبن، فأكل الشاه كاملة، وشرب اللبن، ثم أخذ في قراءة القرآن حتى مطلع الفجر وصلى الفجر بوضوء العشاء،[4] وكان اعتقاد الواصلية أن الطعام والشراب سوف يثقله فتأخذه سنة من النوم فيجهزون عليه ويقتلوه، ولكن نظرا لطول قراءته أخذتهم سنة من النوم فناموا[5] ولما فشلت محاولتهم الأولى في الغدر به، دبروا له محاولة ثانية، فطلبوا منه أثناء رحيله أن يقوم بتدريب فتيان الواصلية ويعلمهم بعض فنون القتال والفروسية، فوافق على طلبهم وأخذ يلاعبهم ويدربهم،[6] وفي أثناء ذلك تكفل أحد فرسانهم بالغدر بأيوب بن العباس أثناء تدريب الفتيان، ولكن سرعان ما فطن أيوب إلى ذلك بعد أن تغافل عنه ثم حمل عليه فقتله هو وستة عشر من فرسان الواصلية، وقفل راجعا إلى أصحابه.[7]

وبذلك يكون الإمام عبد الوهاب قد انتهى من خصومه المذهبيين في أحواز تاهرت،[8] بعد أن هاله الوفد النفوسي المنصور.[9]

<u>(ب) – عبد الوهاب بن رستم في جبل نفوسة.</u>

عندما استقرت أحوال الدولة الرستمية، وساد الأمن في أرجائها، واطمأن عبد الوهاب

1 - الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 139، النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 176.

2 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 109، النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 177.

3 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 139، انظر أيضا: معمر الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق ، ص 85.

4 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 111.

5 - معمر: المرجع السابق، ح2، ق1، ص 85.

6 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 63.

7 - النفوس : الأزهار لرياضية، ج2، ص 179.

8 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 329.

9 - النفوسي : المصدر السابق، ج2، ص 173.

بن رستم أنه قضى على أعدائه أراد أن يقوم بأداء فريضة الحج،[1] وفي أثناء طريقه مر على جبل دمر الذي تقطنه عدة قبائل أشهرها دمر الزناتية التي نسب إليها الجبل، وكانوا يدينون بالولاء للعباسيين. وقد قوبل الإمام عبد الوهاب بترحاب شديد الأمر الذي جعله يقيم هناك عدة أيام دعاهم خلالها إلى طاعة الرستميين ومبايعتهم، فأجابوه إلى ذلك موليا عليهم عاملا من قبله يدعى مدرار، اشتهر بالصلاح والتقوى.[2]

وهنا يعلل باحث محدث إجابة أهل دمر لطاعة الرستميين، بسبب وقوع جبل دمر بين ثلاث جهات إباضية كان عليه أن يتأثر ويتشرب المبادئ الإباضية، ففي جنوبه جبل نفوسة، وشرقه جزيرة جربة، وغربه قصطيليه وقفصة، وجنوب افريقية، وكل توابع للدولة الرستمية الإباضية.[3]

ثم ما لبث الإمام أن غادر جبل دمر متجها إلى جبل نفوسة، فوافته جموع الجبل بالقرب من قرية "ويغو"،[4] وأخبرهم أنه ينوي الحج هذا العام، فأبوا عليه ذلك خوفا من بطش العباسيين به فيقتلوه، وتتعطل أمور الإباضية،[5] ورغم إصرار الإمام على أداء فريضة الحج ألا أنه سرعان ما رضخ في النهاية لطلب أتباعه،[6] وأرسل إلى علماء المشرق يستفتيهم في هل يجوز أن ينيب أحدا ليحج مكانه أم لا؟[7]

وفي الوقت الذي فيه منتظرا إجابة علماء المشرق على سؤاله غادر قرية "ويغو" بعد أن قضى فيها أياما استراح خلالها من تعب السفر إلى بلدة "ميري"[8] تلك التي وصله فيها الإجابة على سؤاله.[9] إلى جانب اثنين من ابرز علماء إباضية المشرق والمقدم عليهم آنذاك الربيع بن حبيب[10] وابن عباد المصري بأنه لا يجوز الحج طالما لم يتوافر شرط من شروطه، وهو عدم أمان الطريق، وبذلك وجب إرسال من ينوب عنه، فأرسل الإمام عبد

1 - الشماخي: السير، ج1، ص 140، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 496.
2 - النفوسي: المصدر السابق: ج2، ص 190، انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 555.
3 - دبوز : المغرب الكبير: ج3، ص 500.
4 - ويغو: إحدى قرى جبل نفوسة الغربية، تقع على بعد بضع كيلو مترات جنوب غرب مدينة شروس. (النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 192، انظر أيضا ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، ص62).
5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 115.
6 - دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 498.
7 - دبوز: نفس المرجع، ج3، ص 499.
8 - ميري: قرية متوسطة من قرى جبل نفوسة الشرقية بقرب حصن بني زمور إحدى نواحي مدينة جادو، تعرف حاليا بالرجبان لعمرانها بعد خرابها، وهي حاليا تابعة لحاكم فساطو بجبل نفوسة (النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 192، انظر أيضا: ليفيتسكي، المرجع السابق، ص 119).
9 - النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 192.
10 - أبو غانم الخرساني: مدونة أبي غانم، مخطوط، ورقة 2.

الوهاب بن رستم أحد رجال إباضية جبل نفوسة ليحج عنه[1] متخذا من قرية ميري مقرا له طول مدة إقامته بجبل نفوسة البالغة (سبع سنوات).[2]

وبوجود الإمام عبد الوهاب بجبل نفوسة نعم الجبل بالهدوء والاستقرار، طول مدة إقامته فيه، ولم يعكر صفو هذه المدة سوى الأغالبة باستيلائهم على ارض لهوارة التي كانت تابعة للإمام الإباضي وضمها إلى ممتلكاتهم،[3] في حين أن منازل هوارة تحيط بطرابلس إحاطة السوار بالمعصم[4] مما جعل هوارة تتحين الفرصة المناسبة للثورة على الأغالبة في طرابلس بمحاولة الاستيلاء عليها، وضمها إلى جبل نفوسة الموافق لها في المذهب والممثل الحقيقي لأهم الممتلكات الإباضية الشرقية المجاورة لمدينة طرابلس، وبالفعل ثارت هوارة سنة 196هـ/711م واستطاعت التغلب على جند طرابلس بعد اشتباكهم معهم، فولوا هاربين إلى المدينة تتعقبهم هوارة ضاربين حصارا حول المدينة، ثم افتتحوها وهدموا سورها.[5]

وعندما وصلت أنباء الهزيمة إلى إبراهيم بن الأغلب (184-185هـ/800-801م) الذي أسرع في إرسال ابنه أبي العباس عبد الله (185-201هـ/800-816م) على رأس جيش قوامه ثلاثة عشر ألف فارس إلى طرابلس استطاع من خلاله استرداد المدينة بالإضافة إلى تجديد بناء سورها[6]

1 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 115، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 66.
2 - الشماخي: السير، ج1، ص 140، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 329.
3 - دبوز : المغرب الكبير، ج3، ص 507.
4 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 196.
5 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج6، ص 270، انظر أيضا: محمد الطالبي: الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909م) التاريخ السياسي، ترجمة د.المنجي الصياد، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1985م، ص 185.
6 - ابن الأثير: نفس المصدر، ج6، ص 270.

وإزاء ذلك استغاثت هوارة بالإمام عبد الوهاب بن رستم[1] في جبل نفوسة[2] الأمر الذي جعل الإمام عبد الوهاب يسرع بتجهيز جيش كبير من إباضية جبل نفوسة اتجه به إلى مدينة طرابلس، وضرب عليها حصارا شديدا[3] ومع ذلك فشل الإمام في فتح المدينة لمناعة أسوارها، ووصول أخبار خططه إلى أعدائه، وهو ما اغضب الإمام وجعله يشك في كل من حوله، لم يبح بأسراره إلا لوزيره مزور بن عمران، مما جعله يظن أنه يحاصر طرابلس برجل واحد.[4]

وفي أثناء تفكير الإمام عبد الوهاب في وسيلة لفتح طرابلس حالفه الحظ بموت إبراهيم بن الأغلب، مما اضطر ابنه عبد الله لطلب الصلح[5] خشية من أن ينقض أحد أفراد الأغالبة على الحكم[6] وتم الاتفاق بين الطرفين على ما يلي: -

1 - لقد انفرد (ابن الصغير) دون غيره من المؤرخين بذكر تمرد وقع من هوارة ضد عبد الوهاب نتيجة تنافس الإمام مع زعيم الأوس (أحد بطون هوارة) على الزواج من إحدى بنات شيخ قبيلة لواته، وذلك في الوقت الذي راد فيه زعيم الأوس من زواج اللواتيه، فحال الإمام عبد الوهاب دون ذلك بزواجها هو، فارتحل زعيم الأوس غاضبا بمجموعة من هوارة عن أماكنهم، ونزلوا بمكان يبعد عن تاهرت بعشرة أميال عرف (بوادي هوارة) وأخذ في الإغارة على الأمان عبد الوهاب وجنوده، مما جعله يستعين بأحلافه من إباضية جبل نفوسة وغيرها بجيش قوامه ألف فارس عدا حشود الرجالة، ودارت معركة طاحنة عند نهر أسلان قتل فيها الكثير من الجانبين، وانتهت المعركة بهزيمة الثوار وفرارهم إلى جبل ينجان (أخبار الأئمة الرستميين، ص 45-48)، وقد تبين لنا أن ما ذكره ابن الصغير لا يتفق مع استعانة هوارة بإباضية جبل نفوسة أثناء =حصار طرابلس سنة 196هـ/مع علمهم بتواجد الإمام بالجبل، وهو ما أكدته معظم المصادر التاريخية (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 128، -116 131، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص 270، الشماخي: السير/ ج1، ص 141، 159، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 142) أضف إلى ذلك أن هوارة ظلت موالية للإمام عبد الوهاب في صفوفه طوال حياته، فلو كان هناك خلاف بين الإمام وهوارة لاستغل خلف بن السمح المعافري الثائر في ذلك الوقت هذا الخلاف في تعاونه مع هوارة ضد الإمام عبد الوهاب وهذا يحدث، وفي تقديري أن سياسية الإمام عبد الوهاب في عدم الإكثار من المصاهرة بين القبائل جائزة وذلك بمحاولة التفريق بينهم عن طريق السلم دون أن يكون بارزا في الصورة، أي عن طريق أتباعه جواسيسه خاصة وأن الدولة الرستمية أصبحت مترامية الأطراف، فخاف أن تتحد عليه بعض القبائل وتخرج عن طواعية، ونستند في ذلك إلى أن هذا الأسلوب هو نفسه الذي اتبعه ابنه افلح من بعده في محاولته عدم المصاهرة بين القبائل، وهذا ما أكده (النفوسي) حيث قال: "وبث الجواسيس بين شعوب تلك القبائل بطرق سياسية، وتدابيرات باطنية، عفته مؤونة القتال، قامت مقام تجنيد الجنود، وسفك دماء الأبطال، شأن من تقدم من حكماء الملوك الذين حنكتهم التجارب، وكرعوا في بحار الحكمة واغترفوا من حياض السياسة البالغة من آبائه وأجداده وغيرهم" (الأزهار الرياضية، ج2، ص 239).

2 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص 142، انظر أيضا: أتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة خليفة التليسي، الدار العربية، طرابلس، 1973م، ص 81.

3 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 197.

4 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 116، انظر أيضا سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 332.

5 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص 270، انظر أيضا عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة العرب، تونس، 1334هـ، ص 190.

6 - محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 176.

أولا: أن يكون الساحل كله من جنوب صفاقس[1] إلى خليج سرت للدولة الرستمية.

ثانيا: أن تكون مدينة طرابلس والبحر للدولة الأغلبية.[2]

ومما سبق يبرز أهمية دور إباضية جبل نفوسة، في اتساع حدود الدولة الرستمية الإباضية، حيث أصبح الساحل كله تحت إمرتها، بفضل مناصرتهم لهوارة.[3]

وعقب انتهاء الإمام عبد الوهاب من صلحه مع الأغالبة توجه إلى جبل نفوسة، وأرسل هناك قطفان بن سلمة الزواغي، لفتح قابس وضمها إلى ممتلكاته[4] فامتنع عامل بني الأغلب وتحصن بها، مما جعل قطفان يشدد الحصار على المدينة إلى أن استولى عليها[5] ثم اتجه إلى جزيرة جربه فاستولى عليها هي الأخرى[6] في حين أن الإمام عبد الوهاب كان قد أنهى رحلته من جبل نفوسة عائدا إلى تاهرت بعد استقرار الأحوال به.[7]

1 - صفاقس أو (سفاقس): مدينة قديمة عامرة تبعد عن قابس بحوالي 105 كم في حين تبعد عن المهدية بحوالي 60 كم تقريبا (الإدريسي: نزهة المشتاق، مجلد1، ج2، ص 280-281)

2 - ابن الأثير: المصدر السابق، ج6، ص 270، الشماخي: السير، ج1، ص 141، ابن خلدون: العبر، ج6، ص 143، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 412، محمد بن تاويت: الدولة الرستميين أصحاب تاهرت، بحث ضمن مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1957م، عدد 221، ص 16.

3 - دبوز: نفس المرجع، ج3، ص 513.

4 - الشماخي: السير، ج1، ص 142، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 199.

5 - النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 199.

6 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 47، انظر أيضا: رضوان البارودي: بحث عن جزيرة جربة التونسية دراسة في التاريخ السياسي والحضاري في العصر الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م، ص 15.

7 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 66، انظر أيضا: الباروني: سلم العام والمبتدئين، ص 14.

الفصل الثالث

الدور السياسي لإباضية جبل نفوسة
حتى نهاية القرن الثالث الهجري

عودة الإمام عبد الوهاب إلى تاهرت وخروج خلف بن السمح بن أبي الخطاب.

أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني واليا على جبل نفوسة وموقعة إجناون

العباس بن أيوب واليا على جبل نفوسة وموقعة فاغيس.

أبو منصور إلياس واليا على جبل نفوسة.

افلح بن العباس واليا على جبل نفوسة وموقعة مانو

جبل نفوسة إبان سقوط الرستميين.

1 - عودة الإمام عبد الوهاب إلى تاهرت وخروج خلف بن السمح بن أبي الخطاب.

عندما قرر الإمام عبد الوهاب العودة إلى تاهرت طلب من أهل جبل نفوسة أن يولي عليهم وزيره السمح بن أبي الخطاب المعافري إلا أنه رفض ذلك لأن السمح أحب الناس إليه وانصحهم له. ولكن مع إلحاح أهل الجبل عليه، اضطر إلى إجابة مطلبهم وولاه عليهم فأحسن السيرة بينهم[1] وهنا يجب أن نشير إلى قوة نفوذ إباضية جبل نفوسة ومكانتهم عند الإمام في أن يستشيرهم فيمن يلبي أمرهم. ولم يكن ذلك من قبل الإمام عبد الوهاب فقط، بل سنرى ذلك مرارا عند اختيارهم ولاتهم، وقضاتهم، على طول الإمامة الرستمية،[2] وهو ما سوف نتعرض له بالتفصيل كل حسب موضعه ولم يقف دور إباضية جبل نفوسة على اختيارهم ولاتهم على الجبل فقط، بل امتد ليصل إلى مقر الإمامة الإباضية بتاهرت، بتدخلهم في تنصيب الأئمة الرستمية ذاتهم[3] مما جعل النفوسي يقول "جبل نفوسة أهل الشدة والبأس، وحصن الخلافة، وسيف الإمامة".[4] ومع ذلك أحسن السمح السيرة في أهل الجبل، ووزع أعوانه في أرجائه، وهو مقر بإمامة عبد الوهاب إلى أن مرض مرضه الذي مات فيه، فكان لموته أثر سيء في نفوس رعيته، فبادر عامة نفوسة بتنصيب ابنه خلف بن السمح واليا عليهم، وفاء للسمح، وظنا أن ذلك سيرضي الإمام.[5] ويعبر عن ذلك أبو زكريا فيقول في موقف العامة "من ليس له بصيرة بأمور الدين ولا علم بأمور المسلمين". غير أن علماء المذهب مثل أبي المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي وأبو الحسن أيوب (الذي سيصبح عاملا على جبل نفوسة من قبل الإمام بدلا من خلف) حذروهم من خطأ اختيارهم لخلف دون استشارة إمامهم، وأرسل مؤيدوا خلف كتابا للإمام بأنهما اختاروا واليا عليهم[6] فغضب الإمام وأرسل إليهم بخطأ فعلتهم لأنهم ولوا خلفا بدون رضائه، وأثنى على من امتنع عن تأييده خاصة علماء المذهب، ومع ذلك فقد تمسك أعوان خلف بولايته، وطلبوا من الإمام

1 - الشماخي: السير، ج1، ص 142.

2 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 49-54، أبو بكر زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 158.

3 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 496-497.

4 - نفس المصدر، ج2، ص 337.

5 - نفس المصدر، ج2، ص 201.

6 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 120، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 127.

عبد الوهاب أن يستجيب لرغبتهم في تولية خلف.[1] ومع اضطراب الموقف بتصميم عامة جبل نفوسة على رأيهم بولاية خلف، أراد الإمام أن يختبر خلف وحزبه في غرضهم من الولاية: اهو أمر دنيوي أم لا؟ فكتب ثلاث كتب، اثنين منهم باسم خلف أولهما:- تناول فيه عزله، وترك أمور المسلمين[2] ثانيهما:- بولايته في حالة رضوخه لأمر عزله، ثالثهما:- أرسله الإمام إلى خواصه بجبل نفوسة أمرهم فيه أن يعطوا لخلف كتاب عزله أولا: فإن قبل وسلم الأمر أعطوه الكتاب الآخر، وإن أبى عرفوه بما قد نوى عليه الإمام وتركوه في ضلاله هو وأصحابه، وهو ما حدث بالفعل عندما اخبروه بنية الإمام[3]

ومن هنا حدث انشقاق سياسي اتخذ صبغة فقهية مذهبية وجوهر الخلاف كمن في أمرين، أولهما:- مدى حقوق الرعية في تعيين عمالا، ثانيهما:- شرعية وجود إمامين في وقت واحد.

وبذلك تكون تعاليم الإباضية مع خلف وأنصاره خاصة بعد انضمام غالبية أهل الجبل إلى خلف، وذلك على حد قولهم بشرعية ازدواج الإمامة، وخروجهم على إمامة عبد الوهاب نظرا لصعوبة الاتصال بين تاهرت وجبل نفوسة فضلا عن طول المسافة بينهما.[4]

وعلى كل حال لم يرضخ خلف وأنصاره إلى أوامر الإمام وأرسلوا إلى مشايخ المذهب في المشرق، يستفتونهم في مسألة خلف، وكان على رأسهم حينذاك الفقيه الإباضي أبو سفيان محبوب بن الرحيل،[5] الذي أقر بطاعة الإمام عبد الوهاب، وتخطئة من ولى خلفا، وإصابة من لم يوله.[6]

ورغم ذلك لم يذعن خلف وأتباعه إلى جواب ابن الرحيل، وأفتى برأيه بأن جبل نفوسة حوزة مستقلة لها إمامها يتمثل في شخصه، كما أن تاهرت حوزة مستقلة لها إمامها يتمثل في شخص الإمام عبد الوهاب.[7]

---

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 69، انظر أيضا: صابر طعيمه: الإباضية عقيدة ومذهبا، ص 60.

2 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 203.

3 - نفس المصدر، ج2، ص 204.

4 - محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، ص 164.

5 - احد علماء وفقهاء الإباضية، وهو من علماء الطبقة الرابعة المقدمين في الفقه الإباضي بعد طبقة الربيع بن حبيب، وكان حجة لإباضية المشرق والمغرب (الدرجيني" طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 278-290).

6 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 122.

7 - معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، 1986م، ج2، ص 30، عامر النجار: الإباضية ومدى صلتها بالخوارج، ص 103.

وإزاء ذلك سرعان ما أرسل الإمام عبد الوهاب كتابا بولاية أيوب بن العباس على الجبل الفارس النفوسي في محاربة الواصلية، وما نمى ذلك إلى علم خلف إلا وأخذ جانب الهدوء والسكينة هو وأصحابه، لما عهدوه عن أيوب بن العباس من شجاعة وقوة، ولكن وقف الحظ بجاني خلف بوفاة أيوب بن العباس، مما جعل أهل الجبل يرسلون إلى الإمام يخبروه بوفاته ويعزوه.[1]

وبوفاة عامل جبل نفوسة أيوب بن العباس الذي كان مناهضا لخلف بن السمح، وطلب أهل الدعوة في الجبل إلى عبد الوهاب يطلبون تولية عامل جديد عليهم، حسبما تقتضي تقاليد الجماعة والمحافظة على الشكليات فقد أرسل إلى أهل الجبل يطلب إليهم ترشيح من يرضونه واليا عليهم، فاستقر رأيهم على أبي عبيدة بن عبد الحميد الجناوني، الذي لم يكن يعلم باختيار أهل الجبل له[2] وفي أثناء هذه الفترة، أي بين موت أيوب بن العباس وتولية أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني استطاع خلف أن يستحوذ على معظم أنحاء الجبل، نظرا لعدم وجود مقاومة بموت والي الجبل، ويعتقد باحث محدث أن ذلك جعل الإمام عبد الوهاب يلجأ إلى أتباع أسلوب الحيل والتجسس[3] للإيقاع بين خلف وأتباعه[4] ويستند في ذلك إلى ما ذكه النفوسي من أن شخصا يدعى عمرو بن يانس كان يندس بين أصحاب خلف[5] ويكاتب الإمام بكل ما يسمعه[6] كما أرسل الإمام إلى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم بالأموال والضياع دون فائدة[7] وهو ما نؤيده.

2 - أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني واليا على جبل نفوسة وموقعة إجناون:

وما إن علم أبو عبيدة عبد الحميد باختيار أهل جبل نفوسة له واليا عليهم إلا وامتنع عن ذلك ظنا منه عدم قدرته على تحمل مسؤولية الولاية، وأنه أضعف من ذلك، فأرسل أهل الجبل إلى الإمام ليخبروه بما حدث من أبي عبيدة[8] فكتب الإمام إليه يأمره بقبول ولايته على جبل نفوسة مع تقديم العون له إذا احتاج إليه، موضحا له وإن كان رفضه لضعف في البدن فإن الله يقويه، وإن كان لضعف في العلم فعليه الاستعانة بابي

---

1 - الشماخي : السير، ج1، ص 157، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 205.

2 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، حلقة2، قسم1، ص 89، زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ج1، ص 101.

3 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 164.

4 - نفس المرجع، ص 165.

5 - الأزهار الرياضية، ج2، ص 209.

6 - نفس المصدر/ ج2، ص 210.

7 - الوسياني: سير أبي الربيع، مخطوط، ورقة 30، انظر أيضا: محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص 165.

8 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 124.

زكريا يصلتن التوكيتي،[1] وإن كان لضعف في المال فعليه ببيت مال المسلمين، ومع ذلك لم يستجب أبو عبيدة عبد الحميد لأوامر الإمام مباشرة،[2] بل استشار في أمر ولايته إحدى المتفقهات في المذهب الإباضي بجبل نفوسة، وكانت تدعى "مارن" التي حثته على قبول أمر الولاية ما دام لم يوجد من هو أفضل منه بالجبل، وإلا نال عقابه من الله.[3]

فقبل أبو عبيدة أمر ولايته على جبل نفوسة، وعندما علم خلف بذلك، أخذ يشن غاراته المستمرة على أصحاب أبي عبيدة، ويدس عيونه وجواسيسه ليخبروه بما يجري في صفوف أبي عبيدة،[4] ولم يتحمل أبو عبيدة هذه الأعمال التي قام بها خلف مما جعله يرسل إلى الإمام يستأذن في محاربته، إلا أن الإمام أبى عليه ذلك وحثه على أن يعامله باللطف واللين، لعله يعود إلى رشده.[5]

- موقف إباضية جبل نفوسة من ثورة الطنبذي سنة 208هـ/823م:

في أواخر عهد الإمام عبد الوهاب اندلعت على عهد زيادة الله بن الأغلب بن إبراهيم الأغلب (201-223هـ/817-839م) ثورة كبيرة قادها منصور بن نصر الطنبذي أحد كبار قادة العسكر متخذا من طنبذه[6] حصنا ومعتقلا له ولإتباعه.[7]

وترجع ثورته إلى استياء الجند من شدة معاملة زيادة الله لهم، بسفك دمائهم، والاستخفاف بأمرهم،[8] وجاء ذلك خلافا لما سار عليه أبوه فخرجوا عليه تحت قيادة عمر بن معاوية القيسي عامل زيادة الله على القصرين[9] فوجه إليه زيادة الله والي القيروان أبا هارون موسي على رأس قوة كبيرة، وشدد الحصار عليهم.

مما جعل عمر بن معاوية يطلب الأمان له ولولداه، فأمنهم أبو هارون موسى[10] إلا أن

1 - من أهل توكيت إحدى مدن جبل نفوسة التي تتميز بخضرتها وزيتونها، ويعتبر أبو زكريا من أبرز علماء جبل نفوسة حيث قيل عنه (أبي زكريا هو الجيل والجيل هو أبي زكريا). (أبو زكريا: المصدر السبق، ص 125، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 198-199.)
2 - الشماخي: السير، ج1، ص 158.
3 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 90.
4 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 71.
5 - أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم، ص 26.
6 - طنبذه: تقع جنوب تونس بحوالي 96 كم، تتحكم في الطريق الرئيسي المؤدي من افريقية إلى الزاب (البكري: المغرب، ص 38، انظر أيضا: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول، ج1، ص 296).
7 - ابن أبو دينار: المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص 63، انظر أيضا: مفتاح: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 108.
8 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 107.
9 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 97.
10 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 108، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 98، انظر أيضا: إحسان عباس: ليبيا في كتب التاريخ ولسير، دار صادر بيروت، 1968م، ص 176.

زيادة الله أمر بقتلهم بعد ذلك، فقتلوا.

وما إن بلغ ذلك منصور الطنبذي عامل زيادة الله على طرابلس إلا وتحركت في عروقه دماء العصبية القيسية، ونادى في قبيلة تميم بالثأر من مقتل عمر بن معاوية وولدية قائلا: "يا بني تميم، لو أن لي بكم قوة، أو آوى إلى ركن شديد".[1]

وعلى إثر ذلك توجه منصور إلى تونس، فدخلها وقتل واليها سنة 209هـ/824م، فثارت باجه[2] وجزيرة شريك[3] وصطفورة[4] والاربس[5] وانضمت إلى منصور أملا في الخلاص من بني الأغلب.[6]

ورغم ذلك فلم يلجأ زيادة الله إلى التفاهم مع هذا الثائر، بل حاول مباغتته وغدره، ولكنه فشل في ذلك فمال إلى المهادنة والسلم، وأرسل وفدا من كبار فقهاء تونسي لمفاوضة منصور، كان على رأسهم القاضي شجرة بن عيسى، ولكن ألقى منصور القبض على الوفد واستولى على تونس.[7]

وبطول فترة الحرب بين منصور وزيادة الله البالغة خمس سنوات، تحرج فيها أمر زيادة الله، خاصة بعدما فقد القيروان، ولم يبق له سوى القصر القديم، والساحل الشرقي من سوسة إلى قابس ثم طرابلس، ونفزاوة، بل الأكثر من ذلك تجرأ منصور الطنبذي بأن كتب إليه بمغادرة البلاد.[8]

ولما أعيت الحيل زيادة الله، أشار عليه قائده المحنك سفيان بن سوادة بأن يستعين بإباضية جبل نفوسة.[9]

1 - ابن عذارى: نفس المصدر، ج1، ص 98، انظر أيضا: الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 190، محمد سويس: أنماط العمران البشري بافريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، مركز النشر الجامعي، القاهرة، 2001م، ص 50.
2 - باجة: تقع غرب القيروان بحوالي 160 كم، وهي مدينة جليلة كبيرة كثيرة الأمطار والأنهار (البكري: المغرب، ص 56، الإدريسي: نزهة المشتاق، مجلد1، ج2، ص 292).
3 - جزيرة شريك: تبعد عن تونس بحوالي 30 كم، وسميت بذلك نسبة إلى عاملها شريك العبسي، وأهم مدنها مدينة باشوا (البكري: نفس المصدر، ص 45).
4 - صطفورة أو (سطفورة): تقع غرب قرطاجنة، وبها ثلاث مدائن أقربها إلى تونس اشلونه، وتينجه، وبنزرت (الإدريسي: المصدر السابق، مجلد1، ج2، ص 288).
5 - الاربس: تقع إلى الغرب من القيروان بحوالي 100 كم (الإدريسي: نفس المصدر، مجلد1، ج2، ص 292).
6 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص 333، انظر أيضا: حسن مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مجلد1، ج1، ص 270.
7 - النويري : نهاية الأرب
8 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج6، ص 332، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 101، انظر أيضا: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مجلد1، ج1، ص 270.
9 - ابن الأثير : نفس المصدر، ج6، ص 333.

هذا ولم تتطرق المصادر التاريخية إلى ذكر مساعدة إباضية جبل نفوسة للأغالبة، هل تمت من طرف خلف أم من طرف أبي عبيدة الجناوني ومع ذلك ففي تقديري أن هذه المساعدة كانت بواسطة خلف بن السمح نظرا لكثرة عدد جنوده البالغ أربعة آلاف جندي بالمقارنة بجنود أبي عبيدة الجناوي التي لم تتعد الخمسمائة جندي.[1]

هذا بالإضافة إلى غنى حوزة خلف بن السمح لخصب أراضيه عن أبي عبيدة الجناوني التي كانت فقيرة وجدباء مما جعل الناس يتجهون إليه لكسب العيش مما زاد من قوته،[2] هذا فضلا عن الاهتمام البالغ الذي أولاه أبو عبيدة للقضاء على خلف وأتباعه.[3]

ومع ذلك، فبعدما علم أن عامر بن نافع[4] يريد مقصدهم، فتوجه إليهم سفيان في مائتي فارس فأمدوه، وهزم جيش الطنبذي، وفر إلى طنبذة في أواخر سنة 210هـ/825م وتحصن بها،[5] إلى أن حاصره عامر بن نافع، ففر منها إلى الاربس فحاصره هناك عامر مرة أخرى، أخرجه منها إلى أن استطاع قتله في باجه.[6]

ومن هنا تتضح أهمية دور إباضية جبل نفوسة، داخل الدولة الأغلبية نفسها بمساعدتهم في إخماد أقوى ثوراتهم، بل وإعادة الثوار إلى حظيرة الدولة الأغلبية، بعد مقتل قائدهم وزعيمهم منصور الطنبذي.[7]

وفي هذه الفترة التي أعقبت مقتل منصور بقليل كانت وفاة الإمام عبد الوهاب وإمامة ابنه افلح (211-240هـ/826-854م) الذي أقر بولاية أبي عبيدة الجناوني على الجبل، في حين حاول خلف إقصاءه عن الجبل، وسعيه لضم كافة الأقاليم التي كانت في حوزة حكم جده أبي الخطاب، وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة (تيمتى) إحدى قرى جبل نفوسة الشرقية وهي الموضع الذي تمركز فيه خلف وجموعه، بل وتعدى نفوذ خلف تيمتى إلى ما وراءها شرقا.[8]

---

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 74-75، انظر أيضا: زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 344.
2 - أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم، ص 128 ، انظر أيضا: سعد زغلول: نفس المرجع، ج2، ص 343.
3 - أبو زكريا : نفس المصدر: ص 129.
4 - عامر بن نافع: أحد المساندين لمنصور الطنبذي في ثورته والمقربين إليه، إلا أنه عرف الحسد طريقه إليهما، فتوعده منصور بالقتل أثناء شرابه، فصاروا أعداء خاصة بعد ازدياد نفوذ منصور من عدة وعسكر. (النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 112-113ن ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 101).
5 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص 333، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 101 ، انظر أيضا: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مجلد1 ، ج1، ص 270.
6 - حسين مؤنس : نفس المرجع، مجلد1 ، ج1، ص 270.
7 - حسين مؤنس : نفس المرجع، مجلد1 ، ج1، ص 270.
8 - النفوسي : الأزهار الرياضية، ج2، ص 222، انظر أيضا: محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 165.

وإزاء ذلك أرسل أبي عبيدة إلى الإمام افلح ليأذن له في محاربة خلف الثائر، إلا أن الإمام افلح أمره أن يعامله باللين أسوة بأبيه.[1]

فانتهز خلف ذلك، وأخذ يضيق الخناق على أبو عبيدة، وشن الغارات على رعايا الإمام، فاستباح الأموال وقتل الرجال، ولم يسلم أصحابه من ذلك فقد قتل منهم الكثير، ظنا منه أنهم من رجال أبي عبيدة، ولكن رغم ذلك فقد ساعدته الظروف بخصب المناطق التي كانت في حوزته، على عكس أبي عبيدة الذي عم الجدب أراضيه، مما جعل بعض الناس يتجهون إليه لكسب العيش، فزادت قوته بعد أن أصبحوا على رأيه وبدعته.[2]

وقام خلف بتجهيز جيش قوامه أربعمائة فارس، أغار به على (أدرف)،[3] إحدى قرى جبل نفوسة التابعة لأبي عبيدة فانتهبوا منها الكثير من الأموال، غير ما أحدثوه من قتل عشرة من رجالهم.[4]

مما جعل أبا عبيدة يأمر رجاله بمشاطرة خلف وأتباعه القتال، بعد أن استنفد معه شتى الطرق السلمية، واشتبك الطرفان في معركة حامية الوطيس هزم فيها خلف وأنصاره، فارين إلى تيمتى في حين عاد أبو عبيدة إلى موطنه[5] بإجناون (الواقعة في سفح جبل نفوسة) دون أن يتعقبه أو يجير على جريح،[6] وعلى الرغم من ذلك، حاول أبو عبيدة أن يتجنب القتال بينه وبين خلف مرة أخرى حقنا لدماء المسلمين، فأرسل إليه يطلب منه السلام، على أن يكون كل منهما في حيزه، فأبى خلف وأخذ في شن الغارات على أبي عبيدة وأصحابه.[7]

وبعد سنة من معركة أدرف اشتبك أبو عبيدة مع خلف في معركة فاصلة شبهها بعض المؤرخين بغزوة بدر، وذلك لأن عدد أبي عبيدة وأصحابه كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل سبعمائة من أهل الفضل والعلم[8] في حين كان عدد جيش خلف أربعة آلاف فارس.[9]

---

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 72، انظر أيضا: إحسان عباس: تاريخ ليبيا، ص 72.
2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 128 .
انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغري العربي، ج2، ص 343.
3 - ادرف: هي ضيعة كبيرة تبعد عن شمال شرق مدينة جادو بحوالي 60 كيلو متر (الشماخي: السير، ج1، ص 159، ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، ص 116.
4 - الشماخي : المصدر السابق، ج1، ص 159.
5 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 129.
6 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 223، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ/ ح2، ق2، ص 202.
7 - الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 73.
8 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 130 ، الدرجيني: نفس المصدر، ج1، ص 74، الشماخي: السير، ج1، ص 159.
9 - لقد ذكر كل من (البغطوري في سيرة أهل نفوسة، ورقة 148 ، والشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 160) أن عدد جيش خلف بلغ أربعين ألف مقاتل، وذلك بالمقارنة بجيش أبو عبيدة وقد تبين لنا مدى مبالغة هذه الرواية

وقبل الاشتباك حدثت مناظرة بين الفريقين، حاول فيها كل منهما إثبات صحة موقفه، فأرسل خلفا إلى أبي عبيدة رسولين طالبا منه خلع الإمام أفلح، واثبات ولايته،[1] معللا ذلك بأن حيز جبل نفوسة منقطع عن تاهرت، وبعيد عنه، ولكن أبا عبيدة رد عليهم بالرفض، موضحا لهم مدى اندهاشه من خلع الإمام دون أي سبب يوجب ذلك، مذكرا إياهم بطاعة والد خلف (السمح بن أبي الخطاب) للإمام عبد الوهاب قبل ذلك.[2]

ومع هذا فقد جاء رد رسولي خلف بالخوف على المسلمين من إراقة الدماء إن لم يذعن أبو عبيدة لأوامر خلف، فأجابهم أبو عبيدة بأن إراقة الدماء أهون من ترك القيام بدين الله.[3]

وما أن انصرف رسولا خلف إلا وتقارب العسكران، تراآى بعضهم من بعض، فتقدم رجل من أتباع خلف الخائفين على جماعة المسلمين من إراقة دمائهم، مقدما النصيحة إلى أبي عبيدة بأن يتراجع هو وأصحابه، ويتنح إلى سفح الجبل،[4] ويجعلوه خلف ظهورهم ليحميهم من الأعداء، فإن كانت الدائرة عليهم لا يضرهم ذلك شيئا، وإن كانت لهم أدركوا ما رجوا وأمنوا ما خافوا، وأخذ أبو عبيدة بنصيحة الرجل فلما رأى خلف ذلك ظن أنهم خافوا فتراجعوا.[5]

ونستند في ذلك إلى ما ذكره (الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 74-75) وما أكده د/سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 344) من أن عدد جيش خلف لا يتعدى الأربعة آلاف مقاتل، وربما يكون هذا هو الصواب لأنه سيصبح هناك تناسب بين القوتين بالنسبة لعدد جيش خلف، وإستراتيجية موقع أبو عبيدة، وإن كان صنع هذا التناسب يرجع إلى تقدير موقع أبو عبيدة الذي جعله يتحكم في ارض المعركة باستماعه إلى نصيحة أحد الناقمين على سياسة خلف والخائفين على إراقة دماء المسلمين في أن يتراجع، ويتنح إلى سفح الجبل، فيجعلوه خلف ظهورهم، فإن كانت الدائرة لهم أدركوا ما رجوا، وأمنوا ما خافوا، وإن كانت عليهم ما ضرهم ذلك شيء، ومن هنا ظهرت الإستراتيجية العسكرية لجبل نفوسة، بحماية جيش أبو عبيدة وأتباعه من كثرة عدد جيش خلف، بل جعلت الدائرة عليه وعلى أصحابه، في حين أنه لو كان خلف في أربعين ألف مقاتل كما ذكر (البغطوري والشماخي) ما عبأ بهذه الهزيمة، ولو قتل الأربعة آلاف جندي فسيبقى له 36 ألف مقاتل، وهو الأمر الذي يجعله لا يهزم في معركة مثل فاغيس الذي سيأتي ذكرها، كما لا يجعل ولده الطيب يفر إلى جربة عقب هذه المعركة نظرا لكثرة أتباع أبوه، ولكن حدث العكس. كما أن عدد جيش خلف السابق ذكره لا يتوافق مع طاقة أهل الجبل لانقسامهم إلى شقين، شق تحت إمرة خلف، والآخر تحت إمرة أبو عبيدة، كما أنه إذا جاز لشق أن يفوق الآخر، فهل يفوقه بما يزيد عن 39 ألف مقاتل؟. (البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 148، أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 130-136، الدرجيني" طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 74-75، الشماخي: السير، ج1، ص 160، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 223-233، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 344).

1 - البغطوري : المصدر السابق، ورقة رقم 148.

2 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 160، النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 224.

3 - الدرجيني/ المصدر السابق : ج1، ص 74.

4 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 133.

5 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 75.

3 - موقعة إجناون (221هـ/836م)

أخذ أبو عبيدة في إلقاء الحماس في قلوب جنوده استعدادا للمعركة، فشوق نفوسهم إلى الاندفاع في الحرب، وأزال الرهبة من قلوبهم[1] وما فتئ إلا وأبصر أصحاب أبي عبيدة جندا كثيرا من أهل مدينة شروس، الذين كانوا يشكلون نصيب الأسد في جيش خلف مقبلين عليهم بسلاحهم.[2]

وقبل إشتباك الفريقين تطلع ثلاثة عسكر من جند خلف إلى النزال، فنازلهم من عسكر أبي عبيدة أبو مرداس،[3] والعباس بن أيوب، وأبي عبيدة ذاته، وسرعان ما قتل كل من العباس وأبي عبيدة خصمهما[4] في حين تأخر أبو مرداس من قتل (عبيد بن سيدي) خصمه نظرا لقوته بالنسبة لشيخوخة أبي مرداس، مما جعل العباس بن أيوب يتكفل به، فضربه ضربة رمى فيها بركبته، ثم قطع رأسه[5] وسرعان ما اشتبك الطرفان بالقرب من إجناون عشية الخميس 13 رجب عام 221هـ/4 يوليه 836م[6] واستمات أصحاب أبي عبيدة في القتال الذي أظهر فيه العباس بن أيوب من المهارة الحربية في هذه المعركة بحركاته السريعة على الميمنة والميسرة، إلى أن انتهت المعركة بهزيمة خلف وأتباعه وعودتهم إلى مركزهم بتيمتي، وأمر أبو عبيدة أصحابه كعادته، بأن لا يجهزوا على جريح أو يتبعوا مدبرا[7] كما حدث في موقعة أدرف قبل ذلك.[8]

وإن ذل ذلك، فإنه يدل على مدى الورع والتقوى الذي تحلى بهما أبو عبيدة طوال حربه مع خلف الثائر، فضلا عن حبه لحقن دماء المسلمين، على عكس خلف الذي طمع في الدنيا، فأضاعها كما أضاع آخرته.

ونرى ذلك إبان هزيمة خلف ورجوعه إلى مركزه في تيمتي حيث أخذ يخرج كل من كان من نفوسة وغيرهم من المتعاطفين مع أبي عبيدة حيث أمهلهم ثلاثة أيام للخروج من حوزته، معلنا أن من تأخر عن هذه المدة سيهدر دمه، وأمواله حل له، دون تفرقة في ذلك

---

1 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 149، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 277.

2 - الشماخي : السير، ج1، ص 160.

3 - هو أبو مرداس مهاصر أحد علماء جبل نفوسة، صنفه الدرجيني ضمن أصحاب الطبقة الخامسة أي التي تبدأ من (200 إلى 250هـ) وكان شديد العبادة، حتى قيل أنه أضاع أمر دنياه بآخرته (المصدر السابق، ج2، ص 291-294).

4 - البغطوري: المصدر السابق، ورقة رقم 149.

5 - البغطوري: نفس المصدر، ورقة رقم 150، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 161.

6 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 134، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 76.

7 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 135.

8 - الشماخي: السير، ج1، ص 159، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج1، ص 223.

بين اليتامى، والمساكين، والأرامل، مما جعلهم يتوافدون إلى حوزة أبي عبيدة نادمين على ما صدر منهم تجاهه، معلنين توبتهم.[1]

4 - العباس بن أيوب واليا على جبل نفوسة وموقعة فاغيس[2]

بعد هذا الجهد الخارق الذي بذله أبو عبيدة مع خلف أدركته المنية، فكتب أهل الجبل إلى الإمام أفلح كتابا يعزونه فيه، ويطلبون منه واليا جديدا عليهم، وكالعادة فوض إليهم الإمام أمر الاختيار، وأخبرهم أنهم سوف يولى عليهم من يشيرون به فتشاوروا في أمرهم، وأجمعوا على العباس بن أيوب[3] وفي حين انشغال أهل الجبل فيمن يولونه أمورهم، نشط خلف من جديد[4] بعدما انكمش إبان الضربة القوية التي وجهها إليه أبو عبيدة عندما غرته نفسه، والتزم الهدوء طيلة ولايته[5] فجيش الجيوش لمواجهة الوالي الجديد العباس بن أيوب، غير أعمال السلب والنهب التي قام بها داخل الجبل.[6]

ورغم المحاولات السلمية التي حاولها العباس بن أيوب، لوقف غارات خلف حقنا للدماء، إلا أن خلف ظل على عناده واستكباره، فلم يجد العباس مفرا من استخدام القوة، في الوقت الذي جمع فيه خلف قوات كبيرة فاقت قوات العباس عددا وعدة، الأمر الذي هال أحد جنود العباس فذهب إلى أبي مرداس واخبره بذلك، ولم يكترث أبو مرداس بقول الرجل، بل رد عليه بأنه لا يخاف على جيش فيه من كبار علماء نفوسة أبو الحسن الابدلاني[7] ثم توجه الرجل إلى أبي الحسن وأخبره نفس الخبر، فأجابه بأنه لا يخاف جيشا فيه أبو مرداس،[8] وعجب الرجل من حسن الاتفاق، وعظم الثقة في الله، واقتنع بأن النصر لا يأتي من كثرة العدد، وإنما من قوة العزيمة والإيمان بالله عز وجل، على أية حال التقى الجمعان بفاغيس قرب تيمتي[9] وحمى وطيس المعركة بطول ساعات القتال بين الفريقين، مما جعل أبا مرداس يطلب من العباس بن أيوب أن يتوب مما إقترفه من ذنوب، معللا ذلك بأن الحق لا يقف أمام الباطل كل هذا الوقت، فتضرع العباس بالتوبة إلى الله[10] ولم يغضب

1 - الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 76.
2 - فاغيس: موضع قريب من قرية تيمتي النفوسية. (النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 231).
3 - النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 230، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح1، ق 1، ص 105.
4 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 231.
5 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 105.
6 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 231.
7 - الشماخي: السير، ج1، ص 169.
8 - نفس المصدر، ج1، ص 17.
9 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 231.
10 - النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 232، انظر أيضا معمر: المرجع السابق، ح2، ق1، ص 107.

القائد من هذا الرجل الذي يتهمه بالمعصية، ومن هنا يتضح دور المشورة والنصيحة بين القائد وجنوده، وأنهم كلهم سواسية في ميدان القتال، لا فرق في ذلك بين قائد وجندي، ما دام سيأتي بالنفع على عامة المسلمين.[1]

وسرعان ما اندفعوا إلى القتال مرة واحدة فاشتدت حرارته، وانهزم خلف وأتباعه يتبعهم جنود العباس لإخراجهم من حدودهم حتى تجاوزوا (لالت)[2] آخر أملاك العباس حينذاك، ثم رجعوا مهنئين بعضهم البعض على هذا الانتصار، واقبل العباس يعزى المشائخ الحاضرين في أقاربهم قائلا: "آجركم الله على مصابكم في إخوانكم" فقالوا: "يا عباس ليسوا بإخواننا ولكنهم أرحامنا وإنما إخواننا انتم".[3]

وبعد فترة قصيرة توفي خلف لمرض أصابه، وتشتت جموعه، وفر ابنه الطيب إلى جزيرة جربة.[4] ورغم موت خلف ظل بعض أنصاره ومؤيديه اللذين ذاقوا سهولة العيش من خلال عمليات السلب والنهب على هذه الحال، فكثرت غاراتهم المتفرقة، خاصة بعدما أصبحوا لا يجتمعون تحت إمرة قائد واحد ينظم هذه الغارات.[5]

مما جعل أبا العباس يخرج إلى يفرن بجنوده لاقتفاء أنصار خلف، وكان ذلك ضد رغبة أبي مرداس الذي خشي على ضعف العسكر، فتحدث إلى أبي العباس بالرجوع، وإلا نادى في المعسكر وفرقهم،[6] ولما كان العباس يعلم مكانة مرداس مع جنوده رضخ لمطلبه، ورجع معللا ذلك بنفاذ الزاد وقلة الدواب.[7]

ورغم ذلك فلم تكف هذه الحملة لتأديب أتباع خلف، فما إن رجع العباس من حربهم، إلا وعادوا إلى إعاثة الفساد في أنحاء الجبل مرة أخرى، فخرج إليهم العباس، وجاء ذلك على غير رغبة أبي مرداس الذي كان عند رأيه الأول، بعدم استخدام القوة، آملا أن يعود هؤلاء العصاة إلى رشدهم[8] وشاء القدر أن تتحقق رغبة أبي مرداس بسقوط الأمطار،

1 - معمر : الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 107-108.
2 - لالت: أحد أودية جبل نفوسة الذي يفصل بين الزنتان من جهة تغرمين إحدى قرى الجبل، والرجبان من جهة فساطو، وهو المسمى الآن بوادي الآخرة نظرا لصعوبته وعمقه، ويسمى متلالة أيضا بالاسم القديم (النفوسي" الأزهار الرياضية، ج2، ص 232، انظر أيضا: معمر: المرجع السابق، ح2، ق2، ص 171-207).
3 - الشماخي : السير، ج1، ص 170.
4 - الدرجيني" طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 77، النفوسي : المصدر السابق، ج2، ص 339، انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ق1، ص 557.
5 - معمر: المرجع السابق، ح2، ق 2، ص 108.
6 - البغطوري : سيرة أهل نفوسة، مخطوط ورقة 32، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 233.
7 - البغطوري : نفس المصدر/ ورقة 32، الشماخي: السير، ج1، ص 170.
8 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 109.

مما جعل الجند يستأذنون العباس في الرجوع إلى مواطنهم، لأن الموسم أصبح موسم زراعة، وهم جند يقاتلون دون أن تكون لهم رواتب، أو مطمع في غنيمة، فرضخ العباس لمطلبهم.[1]

وما أن فرغ أهل جبل نفوسة من أعمال الزراعة إلا وأسرع العباس في تجهيز حملة قوية للمرة الثالثة، لتأديب أعوان خلف[2] فظل يتعقبهم حتى بلغ ككلة، في محاولة للقضاء على فلولهم[3] وتم له ذلك، وبعد أن أخضع الجبل لطاعته وافته المنية[4] وكانت وفاته إيذانا بانشقاق آخر بين إباضية تاهرت، ولم يسلم جبل نفوسة من الفتن بالقضاء على خلف وأصحابه[5] إذ ظهرت فتنة مذهبية سياسية سميت بالنفاثية نسبة إلى نفاث، وهو اسم الشهرة الذي عرف به قائد الحركة، فرج بن نصر النفوسي[6] وينتسب أيضا إلى (نفاثة) إحدى قرى جبل نفوسة.[7]

ويعتقد باحث محدث أن أصحاب الإمام أفلح هو الذين أطلقوا اسم نفاث على فرج كلقب تجريحي، كما فعلوا مع النكار، وأغلب الظن أن اسم نفاث مشتق من الفعل نفث ينفث، والمقصود به هو نفث سموم الخلاف والفرقة.[8]

أما عن سبب خروج نفاث على الإمامة بتاهرت هو استعمال الإمام أفلح لسعد بن أبي يونس النفوسي[9] ولايا على قنطرارة[10] بعد وفاة أبيه[11] وإذا كانت قنطرارة تشكل مركز

1 - الشماخي : المصدر السابق، ج1، ص 170، النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 243.
2 - معمر: المرجع السابق: ح2، ق1، ص 110.
3 - نفس المرجع، ح2، ق1، ص 111.
4 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 277.
5 - معمر: المرجع السابق، ح2، ق1، ص 111.
6 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 139، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 21.
7 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ح2، ص 252، انظر أيضا: معمر: الإباضية بين الفرق، ج2، ص 21.
8 - سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 348.
9 - سعد بن يونس وسيم بن يونس النفوسي: أحد رجال وعلماء إباضية جبل نفوسه خرج مع والده أبا يونس من جبل نفوسه إلى قنطرارة بسبب احتطاب إماءه من زروع الناس، مما جعل أماكن الاحتطاب تتهدم عند سقوط المطر، فترك دنياه باحثا عن دينه فولاه الإمام أفلح إياها ثم سعد من بعده (أبو زكريا: المصدر السابق، ص 138، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 77.)
10 - قنطرارة: تقع تحت سفح جبل نفوسة على مسافة نحو 15 ميلا تقريبا شمال كباو إحدى مدن جبل نفوسة وتسمى قنطرارة حاليا "بتيجي" وكانت مدينة متوسطة الرقعة تحيط بها جنات وحدائق وبساتين، وكانت تنتج أجود أنواع الغلال والفواكه والتمور، خربها إبراهيم بن الأغلب عقب واقعة مانو التي سيأتي ذكرها، مما جعل من نجا من علمائها يتجه إلى تمصمص إحدى قرى جبل نفوسة التي تقع جنوب طمزين الكائنة بالجانب الغربي من جبل نفوسة (النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 253، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 180-189، ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، ص 81).
11 - الشماخي: السير، ج1، ص 184، انظر أيضا: ليفيتسكي: دراسات شمال افريقية، ترجمة: احمد بومزقو،

الثقل في نفوسة، في حين كان جبل نفوسة مركز الثقل في تاهرت.[1]

ولما كان أبو يونس شغوفا بالعلم وأصحابه، أرسل ابنه سعدا إلى تاهرت طلبا له،[2] وذلك في صحبة نفاث بن نصر، فأقاما هناك مدة من الزمن يتلقون فيها شتى صنوف العلم حتى بلغ في العلم مبلغا عظيما، فعزموا على الرجوع إلى قنطرارة، وذلك وقت وفاة أبي يونس عامل الإمام على قنطرارة،[3] مما جعل الإمام يولي سعدا مكان أبيه، وكتب بذلك كتابا أرسل به سعدا في صحبة نفاث، وأمرهم بعدم فتحه إلا بوصولهم قنطرارة.[4] ولما كان نفاث مشتاقا لمعرفة الوالي الجديد، ظنا منه أنه أجدر بالولاية عن غيره، ومعتقدا أن الإمام سيفضله عن سعد، فغافل سعدا وفتح الكتاب، فعرف أن الوالي الجديد هو سعد وليس هو[5] فغضب نفاث، وأخذ يكيل الطعن للإمام قائلا: "أنه يلبس الطرطور، ويخرج إلى الصيد، ويصلي بالأشبر ويزيد في الخلقة" وكان يعني من ذلك أنه كبير العمامة والوجه، طويل اللحية جدا.[6] وعندما تفاقم أمر نفاث، وخالف الشرع بما ارتكبه من بدع،[7] اتسعت هوة الخلاف المذهبي بين نفاث وأعوانه في جبل نفوسة، وبين أصحاب الإمام أفلح، وعلى رأسهم سعد والي قنطرارة، فاضطر سعد إلى ترك مقر ولايته والخروج إلى قرية نفاثة مقر نفاث بجبل نفوسة، واشترى دارا بجوار داره فما أن علم نفاث بذلك إلا وذهب إليه ليساعده في استكمال بناء بيته الجديد،[8] فزجره سعد أمام الناس بقوله "متى تترك كفرك وضلالك يا نفاث؟" وذلك خوفا من افتتان الناس به وظنهم أن مساعدته سعدا في البناء دليلا على صدق نيته، كما أنه أراد أن يبين للناس أنه غير راض عن نفاث فلا يغترون به، ومع ذلك فقد جاء رد نفاث عليه بأنه بعيد عما نسبه إليه.[9]

ومع ذلك فيبدو أن أفكار نفاث قد انتشرت بصورة كبيرة، مما جعل الولاة في جهات

منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، كاليفورنيا-الولايات المتحدة، 2004م، ج1، ص 63.
1 - النفوسي : الأزهار الرياضية، ج2، ص 253، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي،ج2، ص 347.
2 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 77، انظر أيضا: الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 146.
3 - الشماخي: السير، ج1، ص 184.
4 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص139، انظر أيضا السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 558.
5 - النفوسي: المصدر السابق: ج2، ص 253، انظر أيضا: معمر: الإباضية بين الفرق، ج2، ص 22.
6 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص78، النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 254.
7 - سوف نتحدث عن هذه البدع بالتفصيل في الشق المذهبي من الجانب الحضاري، (النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 251-252، انظر أيضا: معمر: الإباضية بين الفرق، ج2، ص 24، صابر طعيمة: الإباضية عقيدة ومذهبا، ص 58-59).
8 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 141، انظر أيضا: معمر: نفس المرجع، ج2، ص 21، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي ج2، ص 23.
9 - النفوسي : المصدر السابق، ج2، ص 255، انظر أيضا: معمر: نفس المرجع، ج2، ص22-23.

بعيدة يرسلون إلى الإمام عن طريق عيونهم وجواسيسهم، ليخبروه بأفعال نفاث أولا بأول،[10] وذلك من خلال ثلاث رسائل منسوبة إلى الإمام أفلح في حق نفاث تناول فيها الرد على بدعه ومسائله،[11] كانت الرسالة الأولى موجهة إلى والي نفزاوة وهو ميال بن يوسف، يدعوه فيها إلى تنبيه رعيته من ضلال نفاث، ويحذر من تردده على مجالس أهل المذهب،[12] أما الرسالة الثانية فهي غير معروفة من أي العمال وجهت، حيث كان يشكو للإمام من أعمال نفاث وبدعه، داعيا الإمام إقامة الحق عليه، والبراءة منه إن تمادى في خلافه، كما نص فيها على احترام العمال.[13]

والرسالة الأخيرة: فقد وجهها الإمام أفلح إلى نفاث نفسه يحذره فيها من بدعه، داعيا إياه العودة إلى صوابه وتركها[14] وما إن قرأ نفاث الرسالة الأخيرة إلا وأدرك أن مرحلة السلام واللين قد ولت، ولم يبق إلا الشدة والعنف[15] فجمع ماله متوجها به إلى المشرق، حيث استقر عند صديق له في بغداد مدة من الزمن (لم تحددها المصادر على حد علمنا)[16] إلا أنه سرعان ما عاوده الحنين إلى موطنه في جبل نفوسة، فعاد نفاث حيث وجد الأمور هادئة ومستقرة على عكس ما تركها[17] فقد قل أنصاره وضعفوا بعد رحيله إلى المشرق[18] في حين كان سعد والي قنطرارة ناجحا في إدارة ولايته، فأحسن السيرة بين رعيته[19] الأمر الذي جعل نفاث يركن إلى الهدوء والسكينة إلى أن وافته المنية،[20] وهو ما أكده النفوسي من أن نفاثا تاب ورجع عن بدعه، إذ لم يره أحد أنه ذكر الإمام بسوء، أو سعى في فساد بعد رجوعه من المشرق، بل كان الإمام نافذ الأمر، مسيطرا على جبل نفوسة.[21] ويرى باحث محدث: إن النفاثية مثل النكارية، والخلفية ظلت من الفرق المنشقة على المجتمع الإباضي إلى ما بعد نهاية إمامة تاهرت الرستمية،[22] مستندا في ذلك إلى ما ذكره

10 - معمر: نفس المرجع، ج 2، ص 23.
11 - سعد زغلول: المرجع السابق، ج2، ص 352.
12 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 256-257.
13 - النفوسي : الأزهار الرياضية، ج2، ص 260-258.
14 - نفس المصدر: ج2، ص 261-262.
15 - نفس المصدر، ج2، ص 263، انظر أيضا الحريري: مقدمات البناء السياسي، ج1، ص 147.
16 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 80، الشماخي: السير، ج1، ص 184.
17 - معمر: الإباضية بين الفرق، ج2، ص 23.
18 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 82.
19 - معمر: المرجع السابق، ج2، ص 23.
20 الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 82.
21 - الأزهار الرياضية، ج2، ص267.
22 - سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 353.

الدرجيني من وجودهم في مناطق مطماطة،[1] والجبل ذاته.[2]

5 - أبو منصور إلياس واليا على جبل نفوسة.

لما بلغ الإمام أفلح خبر وفاة أيوب بن العباس والي جبل نفوسة، ولى مكانه أحد علماء الجبل ويدعى أبو ذر إبان بن وسيم الويغوي[3] (نسبة إلى قرية ويغو)[4] الذي لم تتعدى ولايته سبعة أشهر[5] فولى الإمام أفلح أبا منصور إلياس التندميري واستمرت ولايته على الجبل طوال إمامة أبي اليقظان ابن أفلح (241-281هـ/855-894م)، وأبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان (281-294هـ/894-906م).[6] وفي أثناء ولاية أبي منصور إلياس اندلعت الفتنة بين أنصار محمد بن عرفة[7] من العرب، وبين أبي بكر بن أفلح وأنصاره من الفرس[8] وعلى الرغم من أن إباضية جبل نفوسة قد آثروا الحياد ولم ينحازوا إلى هذا أو ذاك، إلا أنهم اكتووا بنيران هذه الفتنة، حيث أحرقت ديارهم فثارت ثائرتهم، وقرروا المشاركة في الفتنة الدائرة، فتحالفوا مع العجم وأبي اليقظان[9] والتقوا مع أنصار بن عرفة في عدة معارك متتالية، تمكن النفوسيون وحلفاؤهم في بدايتها من إلحاق الهزيمة بأنصار ابن عرفة في عدة مواقع أهمها قنطرة الدمتس، وقنطرة سليس، والرد المعوج.[10]

1 - مطماطة: واحدة من قبائل البربر البتر من ولد فاتن بن تمصيت، وكانت مواطن جمهورهم بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل كزول من نواحي تاهرت، ومنهم من نواحي فاس من قبلتها في جبل مطماطة المعروفة بهم (ابن خلدون: العبر ج6، ص 126-124).
2 - طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 82.
3 - الشماخي: السير، ج1، ص 185، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 277.
4 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ج2، ق 2، ص 186.
5 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 277.
6 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 277.
7 - محمد بن عرفة" عربي من القيروان، وواحد من المتمردين على الأغالبة في مناسبات كثيرة مما جعله هو وأصحابه يتركون القيروان إلى تاهرت، مؤسسين ربضا كبيرا كالمدينة العامرة، وظل يتقرب إلى الرستميين إلى أن أصبح واحدا من البلاد الرستمي، بمصاهرته للإمام أبو بكر بن أفلح الذي كان قد تولى الإمامة عقب وفاة أبوه، في حين كان أخوه الأكبر أبو اليقظان بالمشرق في رحلة حج، فوكل إلى ابن عرفة مهمة الاتصال بالرعية، والنظر في قضاياها فكثر أتباعه، وآلت إليه= =الإمامة الفعلية وأصبحت الإمامة الاسمية لأبو بكر. ولما رأى آل رستم من ذلك، ثارت حميتهم خوفا على ضياع إمامتهم، فأخذوا يحرضون الإمام عليه، فقتله وعندئذ ثار أتباع عرفة لمقتله، واشتعلت نار الفتنة بتاهرت (ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 61-69، النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 281-290، انظر أيضا: الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 159-160.)
8 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 69، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 289، انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 561.
9 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 291.
10 - الرد المعوج: سمي بذلك لآن نفوسة أصروا على القتال، خافوا من القرار، فربطوا أرجلهم بعضها البعض بحبال، فكلما دارت الحرب إلى ناحية داروا معها بوجوههم (ابن الصغير: المصدر السابق، ص 72).

غير أن عزيمة النفوسيين ضعفت مع توالي المعارك، فدارت الدائرة عليهم[1] وعلى إثر ذلك خرج الإمام أبو اليقظان وأنصاره من تاهرت بعد أن بويع بالإمامة[2] فانتهز الهواريون ذلك، واستولوا على تاهرت بقيادة محمد بن مسالة الهواري وحاول أبو اليقظان على مدار سبع سنوات استرداد تاهرت، إلا أن محاولاته باءت بالفشل[3] فقرر الاستعانة بإباضية جبل نفوسة، سيرا على نهج جده عبد الوهاب الذي استعان بهم من قبل في مواقف مشابهة، وأمدوه بجيش كبير[4] تحرك بهم أبو اليقظان حتى نزل بغرب تاهرت، إلا أن إباضية جبل نفوسة رفضوا القتال، وجعلوه آخر وسائلهم إن لم يذعن أهل تاهرت إلى السلم وذلك بقولهم: "لا نقاتل حتى نرسل إلى إخواننا وننذرهم، فإن جاءوا ورجعوا إلى الطاعة كانت أيدينا وأيديهم واحدة، وإن أبوا من ذلك نزلنا معهم على حكم الله"[5] وما إن وصل رسل إباضية الجبل إلى تاهرت إلا ووجدت دعوتهم ترحيبا كبيرا، إذ أن التاهرتيين قد سئموا من طول الحرب، واتفقوا معهم على عقد الصلح بعد أن أخذوا العهود والمواثيق الكافية مع أبي اليقظان، على أن يتغاضى عن كل ما بدر منهم، وتم ذلك[6] وأكد إباضية جبل نفوسة غضهم في الصلح للمجتمعين حيث قالوا: "إنما جئنا لإصلاح بيضتنا وتأليف أمرنا وقوام ديننا ولم نأت لطلب علو في الأرض ولا فساد".[7]

وبما سبق يتبين لنا مدى المكانة العظمى التي حظي بها إباضية جبل نفوسة لدى الأئمة الرستميين، ودورهم الدائم الفعال ليس فقط في عهد أبي اليقظان، ولكن طوال عهد الإمامة الرستمية، ابتداء من عهد الإمام عبد الوهاب بن رستم كما مر بنا وحتى نهاية الدولة الرستمية، فبفضلهم قضى على أكثر الفتن الدائرة بتاهرت، وهو ما رآه باحث من أهمية دور إباضية جبل نفوسة وأبي اليقظان في إنهاء الحرب الأهلية التي أوشكت أن تؤدي بحياة الرستميين، بل كان لها الأثر الكبير في عودة الحياة الطبيعية إلى هذه الدولة مرة ثانية،[8] وعقب الانتهاء من توقيع الصلح رحل أبو اليقظان بجنوده ودخل تاهرت مرة ثانية، وتقلد أمور الإمامة، بعد أن غاب سبع سنوات،[9] وفي عهد أبي منصور

1 - ابن الصغير: نفس المصدر، ص 72. قارن النفوسي الذي يذكرها باسم "الدقنس" (المصدر السابق، ج2، ص 292).

2 - السيد سالم: المرجع السابق، ج2، ص 561.

3 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 73، السيد سالم: نفس المرجع، ص 561.

4 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 296.

5 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 75، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 364.

6 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 297.

7 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 76.

8 - الحريري : مقدمات البناء السياسي، ص 165.

9 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 76.

إلياس أيضا حاصر العباس بن احمد بن طولون[1] مدينة طرابلس سنة 267هـ/880م، ودام حصاره لها ثلاثة وأربعين يوما، اعتدى فيها جنوده على بعض سكان البوادي من رعايا الرستميين التابعين لإباضية جبل نفوسة، فاستغاثوا بابي منصور إلياس والي الجبل، وشاركهم في الاستغاثة أهل طرابلس، وعلى الفور لبى أبو منصور استغاثتهم، وخرج في إثنى عشر ألفا من رجال الجبل[2] وكان العباس قد كاتب أبا منصور يأمره بالسمع والطاعة له، وإلا حاربه واستباح حرماته[3] فغضب أبو منصور من منطق هذه الرسالة ورد عليه قائلا: "قل لهذا الغلام إنك اقرب الكافرين مني وأولاهم بمجاهدتي، وقد ظهر من قبح فعلك ما لا يمكنني حق التخلف عنك وعن جهادك، وأنا على إثر رسالتي إليك"[4] وبالفعل اشتبك الطرفان وتمكن أبو منصور من هزيمة العباس وأخرجه إلى برقة بعد أن انتهب أهل طرابلس أمواله،[5] في حين تورع إباضية جبل نفوسة عنها[6] وفي ذلك الوقت

1 - كان خروج العباس بن احمد بن طولون على والده سنة 265هـ/878م، أثناء تواجده بالشام لإخضاعها، وكان احمد بن طولون (270-254هـ/883-868م) قد استخلفه على مصر، مع وزيره احمد بن محمد الواسطي واحد المقربين إليه، ولق

د ظهرت بواد هذه الفتنة نتيجة تحريض بعض الحاقدين على احمد بن طولون، والحاسدين لنعمة ابنه العباس بالخروج على والده، نظرا لطول غيبته بالشام، وحثوه على الاستقلال بمصر، وإلقاء القبض على الواسطي، وما أن نمى ذلك إلى علم الواسطي إلا وكاتب احمد بن طولون بذلك، مما زاد العباس حقدا وغضبا على الواسطي، فهاجم داره حيث وجد الرسائل المتبادلة بينه وبين أبوه، فأيقن أن أباه حانقا عليه، فزاد خوفه منه وساء ظنه به، كما أشار أصحاب العباس عليه بالخروج من مصر وإعلان العصيان على أبوه فرضخ لطلباتهم، وخرج يحمل معه ما كان موجودا من السلاح والمال مستخلفا على مصر أخاه ربيعة، وتوجه إلى الجيزة ثم إلى الإسكندرية، ومنها إلى برقة، وهنا بلغ ابن طولون ما صنعه ابنه العباس فعاد إلى مصر محاولا إستمالته بشتى الطرق إلا أنه فشل في ذلك، نظرا لاستماعه لأصحابه بعدم الرجوع إلى طاعة أبوه، ثم توجه إلى افريقية آملا أن يقيم ملكا له هناك، كاتبا إلى إبراهيم الأغلب بطاعته مدعيا أن الخليفة العباسي المعتمد ق

د قلده افريقية، فامتنع عليه ابن الأغلب، وسير إليه جيش قوامه ألف وستمائة فارس، قود عليه محمد بن قرهب عامله على طرابلس، فالتقوا بورداسه (على بعد خمسة عشر ميلا من لبده) انهزم فيها ابن قرهب منسحبا إلى طرابلس، واستولى العباس على لبده وخربها سنة 266هـ/879م، ثم اتجه إلى طرابلس فحاصرها. (البلوي: سيرة احمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص 268-244، الكندي: ولاة مصر، ص 250-246، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص 225-224، انظر أيضا: اتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي، ص 84).

2 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 119، انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 562، الزاوي: ولاة طرابلس، ص 63، ليفيتيسكي: دراسات شمال افريقية، ج1، ص 130.

3 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 121.

4 - البلوي: سيرة احمد بن طولون، ص 254.

5 - بلغت الأموال الذي حملها العباس بن احمد بن طولون أثناء مسيره إلى المغرب ألفي ألف دينار، كما أنه لم يكتف بذلك، بل اقترض من التجار ثلاثمائة ألف دينار ، وأمر صاحب الخراج أن يضمنها لهم (البلوي: نفس المصدر، ص 249.)

6 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 119.

كان إبراهيم بن احمد قد حشد جنوده؟ وخرج بنفسه لملاقاة العباس بن طولون، وفي أثناء طريقه نمى إلى علمه خبر هزيمته على يد أبي منصور إلياس،[1] فكانت فرحة عظيمة له فوجه كل اهتمامه في البحث عن أموال العباس بن طولون.[2] ومن هنا يتبين دور إباضية جبل نفوسة في أن الفضل يعزى لهم، وليس للأغالبة في إنقاد طرابلس من العباس بن طولون، بل كان لهم الفضل على احمد بن طولون (254-270هـ/868-883م) نفسه بالتصدي لابنه العباس الثائر عليه، والذي وجد صعوبة في إنهاء ثورته، في حين أوقفه إباضية جبل نفوسة من أن يكون له ملكا مستقلا في بلاد المغرب، مما كان سينجم عنه قلاقل وثورات لا يحمد عقباها؟ خاصة بعدما استطاع أصحاب العباس بن طولون السيطرة عليه بل وجعلوه كالدمية، يحركونها كما يشاءون، وعلى أية حال فما أن شاع بمصر خبر هزيمة العباس بن طولون، إلا وسير إليه والده قوة كبيرة فأسروه، وأخذوه إلى والده، فاعتقله سنة 268هـ/881م، وأخذ أصحابه فقطع أيديهم وأرجلهم.[3]

وما أن آلت الإمامة إلى أبي حاتم بعد وفاة أبي اليقظان، إلا وجدد الولاية لأبي منصور إلياس على جبل نفوسة، وفي بداية إمامته ثار الطيب بن خلف[4] الذي كان قد فر إلى جزيرة جربة إبان وفاة والده لإحياء سيرته،[5] ونرجح أن المحرك الرئيسي للثورة هو ما رآه باحث محدث أن يعقوب بن أفلح عم الإمام أبي حاتم هو المحرك الأول لثورة الطيب بن خلف بعد هروبه من تاهرت ونزوله على زواغة،[6] التي كانت لا تزال على ولائها لتعاليم خلف بن السمح، والتفت حول ابنه الطيب بعد وفاته، وذلك نظرا لقرب المسافة بين جبل نفوسة وزواغة، مما جعل الاحتكاك بينهم كبيرا، خاصة بعد أن قام يعقوب بن أفلح بإثارة القلاقل في وجه أبي حاتم، فليس من محض الصدفة أن يثور الزواغيون في هذا الوقت بالذات،[7]

1 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 317.

2 - ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص 119، انظر أيضا الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 173.

3 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص 325.

4 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 339.

5 - الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 77، النفوسي: نفس المصدر، ج2، ص 339.

6 - بعد مبايعة الإمام أبو حاتم بالإمامة حجبته عشيرته ومواليه عن الناس وأحاطوه بأبهة الملك والسلطان، مما أثار عليه الرعية، فتآمروا على قتله مع اثنين من خواصه هما محمد بن رباح ومحمد بن حماد للتخلص من أبو حاتم، وما أن نمى إلى علمه ذلك إلا واصدر أوامره بتحديد إقامتهم خارج تاهرت، فاتصلا بأعوانهم داخل المدينة، فقاموا بثورة على الإمام جعلته يخرج من تاهرت، 282هـ/895م إلى حصن لواته، وخرجت معه العجم ونفوسة مما جعل أهل تاهرت يستدعون يعقوب بن أفلح من زواغة ويبايعونه بالإمامة ، فلجأ أبو حاتم إلى حصار تاهرت، واستمرت الحال هكذا حتى تدخل يعقوب المزاتي رئيس مزاتة بالصلح بين الطرفين، وتم ذلك فدخل أبو حاتم المدينة، وهرب يعقوب بأتباعه إلى زواغة للمزيد من التفاصيل راجع (ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 91-100، النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 326-339).

7 - محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب، ص 180-181.

ويستند في رأيه إلى ما صورته المصادر الإباضية عن حركة الطيب وزواغة على أنها تمرد من جانب زواغة لخروجها على زعامة إباضية جبل نفوسة.[1]

وعلى أي حال جهز أبو منصور إلياس جيشا بإيعاز من الإمام أبي حاتم وتوجه إلى زواغة،[2] حيث كان استقرار الطيب بن خلف بريموا[3] أحد مواطن زواغة،[4] وما أن وصل أبو منصور إلياس بالقرب منهم، إلا وأرسل إليهم لتسليم الطيب بن خلف، فرفضت زواغة تسليمه[5] ولما أدرك أبو سلمه أحد شيوخ بني يهراسن من زواغة أنهم لا طاقة لهم بالوقوف في وجه أبي منصور وحربه[6]، أشار عليهم بثلاثة أمور:

<u>أولها:</u> إما أن يتركوا حوزة طرابلس، ويدخلوا إلى جزيرة جربة ليتحصنوا بها مع أصحابهم.

<u>ثانيها:</u> وإما أن يقوموا بإرسال رسالة إلى تاهرت مطالبين فيها من الإمام أن يخصهم بعامل مستقل عن جبل نفوسة، حتى لا يدخلوا تحت أحكامهم وسيطرتهم، ومن هنا يتبين لنا تبعية زواغة لإباضية جبل نفوسة، مما سهل انتشار الخلفية بينهم.

<u>ثالثها:</u> وإما أن يقوموا بتسليم الطيب إلى أبي منصور بالأمان مع ضمان سلامته وعدم إيذائه.[7]

ولكن ما إن أتم أبو سلمة كلامه إلا وقام رجل من عامة زواغة وقال "ما أراد هذا اليهراساني إلا الإيقاع بخليفتنا"، واجتمعت كلمة زواغة على مناصبة أبي منصور القتال، فاقتتلوا قتالا شديد، انهزمت فيه زواغة[8] وحاولوا الفرار، غير أنهم اصطدموا بالجبال التي أحاطت بأرض المعركة، والتي كانت نواة لأحد الحقول أو الحدائق المخصصة لحماية غرسها الضيق من عبث الوحوش والحيوانات، والتي أصبحت شر نقمة على زواغة فحبستها، مما جعل أبو منصور يثخن فيهم القتل، فقتل منهم الكثير، في حين فر

1 - أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم، ص 151، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 85، النفوسي: المصدر السابق، ج2 ص 333-337).

2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 151.

3 - ريموا: هي ريضة تقع شرق جزيرة جربة بمسافة قريبة (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 85، الشماخي: السير، ج1، ص 191.).

4 - الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 191.

5 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 151.

6 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص192.

7 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 151، الدرجيني: نفسه، ج1، ص 85، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 192.

8 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 85.

الباقين إلى جربة،[1] من بينهم الطيب الذي استجار برجل من زواغة يسمى معقل فأجاره، وأدخله في قصر غردايه (احد قصور جربة).[2] فاتجه أبو منصور إلى جربه، وما أن دنا منها إلا وألهمه تفكيره أن الدرهم والدينار يفعلان ما لا تفعله السيوف والرماح[3] فأرسل أبو منصور إلى معقل مجير الطيب بن خلف، رسولا من بني يهراسن، وأعطاه مائة دينار، وأمره أن يعرضهم على معقل مقابل تسليمه الطيب بن خلف، وما إن عرض الرسول عليه الدنانير إلا ورضخ لمطلبه قائلا: "لو أتيت إلى أولادنا لدفعناهم إليك"[4] وعاد الرسول واخبر أبو منصور بما حدث، فاتجه أبو منصور مسرعا إلى جربه، ودخلها دون قتال، فتلقاه معقل، وتوجه به إلى الطيب بن خلف وهو في قصره وسلمه إليه[5] فقبض عليه أبو منصور وقيده، ومضى به إلى جبل نفوسة، حيث أودعه السجن[6] وظل في سجنه إلى أن أعلن توبته ورجع إلى صوابه.[7]

على الرغم من ذلك فبعد الجهود المضنية التي قدمها أبو منصور إلياس طوال فترة ولايته على جبل نفوسة في الدفاع عن الإمامة الإباضية والاتقاء بها[8] إلا وأدركته المنية، فأرسل أهل الجبل بوفاته إلى الإمام أبي حاتم الذي ولى عليهم أفلح بن العباس احد علماء إباضية جبل نفوسة.[9]

6 - أفلح بن العباس واليا على جبل نفوسة وموقعة مانو[10]

إذا كان أبو منصور إلياس النفوسي قد نجح في صد الهجوم الطولوني على شرق الدولة الرستمية في عهد أبي اليقظان، ومحافظته على هدوء هذه الجهات في عهد أبي حاتم[11] فإن أفلح بن العباس لم يكن على نفس القدر من المهارة في قيادة الحروب، وتوجيه

1 - النفوسي : الأزهار الرياضية، ج2، ص 24.

2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 152، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 86، انظر أيضا: رضوان البارودي: جزيرة جربة التونسية، ص 17.

3 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 341.

4 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 86، انظر أيضا: رضوان البارودي، جزيرة جربه، ص 17-18.

5 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 341.

6 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 86، انظر أيضا: محمود شاكر: الدولة العباسية، المكتب الإسلامي، بيروت، 1991، ج6-5، ص 103.

7 - الشماخي: السير، ج1، ص 192.

8 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ج2، ق1، ص 124.

9 - النفوسي : الأزهار الرياضية، ج2، ص 342.

10 - مانو: من قصور الأولين على ساحل البحر يقع غربي زوارة، وشرق قابس (البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 73، أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 156، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 594.

11 - الشماخي: السير ج1 ص 191، انظر أيضا: الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 180.

الأمور[1] فقد منى بهزيمة فادحة على أيدي القوات الأغلبية بقيادة إبراهيم بن احمد في موقعة مانو سنة 283هـ/896م[2] وقد تباينت الآراء حول دوافع هذه المعركة فمنهم من ارجع ذلك إلى:-

(1) مدى الصيت الذي اشتهر به إباضية جبل نفوسة لدى العباسيين آنذاك، من خلال المكاتبات التي كان يبعث بها كل من أهل طرابلس والقيروان على اعتبار أنهم من رعايا العباسيين، والموضحين لهم مدى خوفهم على مصالحها، فاخذوا يرسلون بأخبار إباضية جبل نفوسة إليهم، مبينين لهم في هذه المكاتبات أنهم الأساس الأول في تقويم دعائم الدولة الرستمية، وأنهم عصب هذه الدولة والأساس في قيم المذهب الإباضي بفضل سيوفهم الموجهة ضد أعدائه، وبذلك فقد ظهروا على من سواهم من رعايا الرستميين، فأصبحوا أساس استقامة الدولة، ومن هذا فإن القضاء على إباضية جبل نفوسة بمثابة نهاية للدولة الرستمية.

وهذا الرأي هو ما تراه معظم المصادر الإباضية[3] مع ذكرهم أن موقعة مانو كانت في عهد الخليفة المتوكل العباسي، وأنه هو المحرك الرئيسي للأمير الأغلبي إبراهيم بن احمد ضد إباضية جبل نفوسة، وهو ما لا يتبين صوابه لأن الخليفة المتوكل مات سنة 247هـ/861م في حين أن موقعة مانو كانت سنة 283هـ/896م، وإنما نتفق مع رأي باحث محدث من أن القصد من ذكر عهد المتوكل هنا هو تحديد بداية اهتمام بغداد بأمور الرستميين في طرابلس وليس تحديد الموقعة[4] وبذلك يكون سجن أبي اليقظان محرك أساسي لقيام موقعة مانو بناء على هذا الرأي، حيث أنه عندما كان في رحلة الحج قبض عليه العباسيون في عهد الخليفة الواثق (227-232هـ/842-847م) الذي أمر بحبسه مع أخيه المتوكل المغضوب عليه من الخليفة، فتولدت بينهم الصداقة، وهو ما جعل المتوكل يأذن له بالعودة إلى تاهرت عقب توليه الخلافة بعد أخيه الواثق[5] نستند في ذلك إلى ما ذكره النفوسي أنه بعدما تحرك أبو اليقظان من بغداد إلى المغرب حسب منجمو الخليفة العباسي حسابهم، فرأوا أنه سوف يتولى الملك بالمغرب، فضاق صدر الخليفة ورجاله وقالوا: "قد أطلعناه على أمرنا، وكشفنا له أمور بلادنا وتركناه، وذلك هو عين ما

1 - النفوسي: المصدر السابق، ص 344.

2 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 129.

3 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 155، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 87، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 343-342.

4 - سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 388.

5 - السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 559.

كنا نخافه، ولا نأمن أن يهاجمنا يوما ما إذا تقلد الملك " فأرسلوا إليه ليردوه، فعلم أبو اليقظان بذلك لأنه كان عالما من علماء التنجيم[1] فعمل الحيلة لذلك، حيث أنه أثناء حسابهم له رأى أنهم يبحثون عن موقعة ليقتفوا أثره، فاحضر قصعة كبيرة مملوءة ماء، ودخل في وسطها، وبينما هم في تحرير حسابهم إذ ظهر لهم أنه في الماء فقالوا "قد دخل البحر ونجا" واستطاع بتلك الحيلة الوصول إلى تاهرت[2] وبذلك يكون المحرك للأمير الأغلبي هو الخليفة المعتضد بالله (279-289هـ/892-901م) المعاصر للموقعة لا المتوكل.[3]

أما ما أورده بعض المؤرخين عن سبب موقعة مانو وإرجاعه إلى خروج ابن الأغلب بجيشه من تونس إلى مصر لمحاربة ابن طولون، فاعترضته إباضية جبل نفوسة، ومنعته من المرور بأراضيها، مما أسفر عن وقوع المعركة.[4]

ومن خلال ما سبق، ففي تقديري أن السبب الحقيقي والمباشر لموقعة مانو كان بإيعاز من الخليفة العباسي آنذاك المعتضد بالله إلى واليه على افريقية إبراهيم بن الأغلب بالقضاء على الدولة الرستمية بضربها في عصب قوتها، ودعامتها الأساسية الممثلة في إباضية جبل نفوسة، ولم يأت ذلك من فراغ بل تمخض عن معطيات تاريخية قديمة مهدت لذلك كان أحدها سجن أبي اليقظان، وقصة خروجه من بغداد وصولا بتاهرت، في حين كانت بدايتها منذ قيام الدولة العباسية سنة 132هـ/749م، وامتداد نفوذها إلى بلاد المغرب، وذلك بمقتل إسماعيل بن زياد النفوسي على يد الوالي العباسي على القيروان عبد الرحمن بن حبيب[5] مرورا بمقتل أبي الخطاب المعافري سنة 144هـ/761م على يد محمد بن الأشعث القائد العباسي لأبي جعفر المنصور[6] والقضاء على ثورة أبي حاتم الملزوزي بقتله سنة 155هـ/771م على يد القائد العباسي يزيد بن حاتم[7] هذا فضلا عن حصار الإمام عبد الوهاب بن رستم لطرابلس سنة 196هـ/811م مع إباضية جبل نفوسة أثناء تواجده بالجبل، عندما استغاثت به هوارة لتعدي الأغالبة على أراضيها، فأرغم الأغالبة على إبرام الصلح بينهما[8] ومن هنا يتبين لنا خوف إبراهيم بن الأغلب على

1 - الأزهار الرياضية، ج2، ص 324.
2 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 325.
3 - نفس المصدر، ج2 ، ص 346
4 - النويري : نهاية الأرب، ج24، ص 133، الأنصاري: المنهل العذب، ص 79.
5 - ابن عبد الحكيم: فتوح مصر والمغرب، ج1، ص 302.
6 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 69.
7 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص 601، ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 79.
8 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج6، ص 270، الشماخي: السير، ج1، ص 141، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير،

إمارته من أنها تقع تحت نفوذ الدولة الرستمية نتيجة لقرب الحدود بينهما، وكثرة النزاع عليها، ونستند في ذلك إلى تزايد هذا الخوف بعد سوء ظنه، وغيرته الشديدة التي أوغرت صدره على أبي منصور إلياس بانتصاره على العباس بن طولون سنة 267هـ/880م عقب استغاثة أهل طرابلس به وهي تابعة للأغالبة، وذلك في حين هزم عامله على طرابلس ابن قرهب من قبل العباس بن طولون سنة 266هـ/879م بلبدة وانسحابه إلى طرابلس[1] مما جعل إبراهيم بن الأغلب يظن أنهم أنسوا في أنفسهم قوة تجعلهم يفكرون في محاربته، ففكر في أن يقضم سيوفهم، ويشل أذرعهم بالإغارة على جبلهم، قبل أن ينقلبوا عليه، فتصنع أمر الخروج لمحاربة ابن طولون، وأنه لابد من عبور أراضيهم، بمحض إرادتهم، ومتيقنا من رفض عبوره لأن ذلك يعد إخلالا بصلح سنة 196هـ/811م[2] وما يؤكد قولنا هذا، هو ما اتصفت به شخصية إبراهيم بن الأغلب من مكر وخداع وحبه لسفك الدماء.[3]

وبذلك توافقت إرادة العباسيين مع الأغالبة في القضاء على إباضية جبل نفوسة، لأنه لو كان في نية ابن الأغلب أن يرد على العباس بن طولون ويأخذ بثأره بعد تعديه على أملاك دولته ما انتظر كل هذا الوقت، خاصة أنه كان على أهبة استعداده للحرب، في حين كان العباس بن طولون منهوك القوى من كثرة حروبه، فيكون القضاء عليه في هذا الوقت بالتحديد لقمة سهلة، وتبين ذلك من قول النفوسي: "كان إبراهيم بن احمد قد حشد الأجناد وضرب حلى نسائه دنانير ودراهم، ثم خرج بنفسه يريد طرابلس فلقيه خبر هزيمة ابن طولون، فبحث ابن الأغلب عن الأموال وأخذها"[4]

ولكن كل ما فعله إبراهيم بن الأغلب عقب انتصاره على إباضية جبل نفوسة أنه توجه إلى طرابلس ثم تاورغا ثم رجع إلى تونس دون حدوث أي وقائع[5] وكانت تاورغا تشكل أقصى ولاية برقة الخاضعة للطولونيين بجانب حدوده[6] وقد يكون إبراهيم بن الأغلب استهدف من هذا تأمين حدود بلاده الشرقية دون قتال خاصة لقربها من جبل نفوسة بعد نهاية المعركة معهم.

ج3، ص 512.
1 - البلوري: سيرة احمد بن طولون، ض 254-255.
2 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص" 129.
3 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 129-131، انظر أيضا: الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 323-340، معمر: المرجع السابق، ح2، ق1، ص 134.
4 - لأزهار الرياضية، ج2، ص 317.
5 - النويري: نهاية الأرب، ج24، ص 134.
6 - الطالبي: الدولة الأغلبية، ص 329.

ونستند في ذلك إلى ما ذكره باحث محدث من أنه لم يحدث أي خلاف بين مصر وإفريقية بعد ذلك، ولم تدون كتب التاريخ على حد علمنا شيئا مخصوصا في هذا الشأن، فضلا عن العلاقات الودية المستمرة فيما بينهما حيث أن مصر كانت تشكل مرحلة هامة في طريق التجارة مع الشرق والحج، وذلك بجانب توطيد العلاقات الثقافية بشد أهل افريقية الرحال إلى مصر للنهل من علمها ذهابا وإيابا وذلك بإقامة أشهر علماء القيروان منهم سحنون وابنه محمد[1] مدة طويلة هناك[2] إضافة إلى ذلك انشغال إبراهيم بن الأغلب بالأعمال الحضارية[3] في بلاده والحربية في صقلية[4] مما جعله يفكر جيدا في الاستفادة بالجهد والمال في ذلك بدلا من إضاعته في الحروب.

على أي حال ومهما كان سبب معركة مانو، فما أن علم إباضية جبل نفوسة برغبة إبراهيم بن الأغلب في عبور أراضيهم، ولو من خلال ممر ضيق على ساحل البحر قدره بمقدار نشر عمامته، مقابل عدم التعرض لهم، وإلا ناصبهم القتال[5] اجتمع أهل الشورى من أهل الجبل، وتشاوروا في الأمر، فرأى أهل العلم من شيوخ جبل نفوسة أمثال أبي معبد الجناوني، أفلح بن العباس والي الجبل، وسعد بن أبي يونس والي قنطرارة، أن يجيبوا الأغالبة إلى مطلبهم[6] غير أن عامة أهل جبل نفوسة عارضوا ذلك، وهاجموا سعد بن أبي يونس، ووصفوه بالجبن، وخشية القتل، فأجابهم بقوله الشهير: "خفت أن تذبح البقرة فيتبعها عجلها" وهو يعني بالبقرة نفوسة ، والجعل قنطرارة.[7]

وأمام إجماع أهل جبل نفوسة على مناصبة إبراهيم بن الأغلب القتال[8] بجيش تعداده عشرين ألف مقاتل[9] (في حين لم تتطرق المصادر على حد علمنا لتعداد جيش ابن الأغلب).

وما إن اصطف الفريقان إلا وطلب رجل من عسكر بني الأغلب المبارزة، فلم يخرج إليه

1 - هو أبو عبد الله محمد سحنون احد علماء القيروان وفقهائها راجع (الخشني: قضاة قرطبة وعلماء افريقية، تصحيح السيد عزت، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م، ص 182-178).

2 - الطالبي: المرجع السابق، ص 383.

3 - من أهم هذه الأعمال بنائه جامع تونس، وما جل القيروان، وتأسيسه لمدينة رقادة سنة 263ه/876م، وبنائه جامع بها (ابن وردان: تاريخ مملكة الأغالبة، ص 61.).

4 - ابن وردان: نفس المصدر، ص 61.

5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 155.

- Gautier (E.F.) : Le Passe de L'Afrique du Nord, Paris, 1942, P. 321.

6 - النفوسي، الأزهار الرياضية، ج2، ص 342.

7 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 88.

8 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 130.

9 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 129.

أحد من إباضية الجبل إلا قتله، مما أثار حمية أفلح بن العباس لقتاله، فأبى عليه أصحابه بصفته قائد الجيش وواليهم، ومع ذلك صمم على مناصبته القتال فقتله.[1]

واشتبك الفريقان في مانو وحمى وطيس القتال حتى وصفته المصادر الإباضية أنه لم يسبق له مثيل في أرض المغرب ورغم ما أبداه كلا الفريقان من براعة في القتال إلا أنهم أصيبوا بأضرار بالغة، خاصة إباضية جبل نفوسة الذين أوشكوا على الهلاك[2] بسبب تركيز راية الإباضية في الأرض بناء على أوامر للقائد أفلح بن العباس إلى صاحبها، الذي رفض تثبيتها خوفا على أصحابها قائلا له: "حملته مع أبيك وجدك ولم يأمراني بذلك، وسأحفر له حفر الله لك" وما إن حفر لها في الأرض[3] إلا واجتمع الجند مسرعين بالالتفاف حول الراية للدفاع عنها، فأصبحوا فريسة سهلة المنال للجيش الأغلبي وأكثروا القتل فيهم[4] وألقوا ببعضهم في البحر حتى غلبت حمرة الدم على الماء[5] وقد تبين أن أفلح أراد الشر لأصحابه بتثبيت الراية وهو ما أكده (أبو زكريا) حيث أنه كان من المعارضين للحرب في حين أرغمه أصحابه بها، فتركهم في ميدان المعركة فارا إلى الجبل، إلا أن رأى بعض أهل البصائر ما حل برجال الجبل، فضرب الراية بسيفه إلى أن سقطت على الأرض، لان في بقائها انتحارا جماعيا للجيش، وهو ما جعل الجنود يفروا هاربين إلى الجبل بعد أن نال منهم الأغالبة[6] حيث قتل منهم إثنا عشر ألفا منهم أربعة آلاف من أهل نفوسة وثمانية آلاف ممن كان معهم من البربر وغيرهم، كما كان من بين القتلى أربعمائة من فقهاء الإباضية[7] هذا غير ما سبى من نسائهم الآتي كن خرجن معهم منهن أخت عمروس بن فتح قاضي جبل نفوسة منذ ولاية أبي منصور[8] بل وعمروس ذاته الذي أرهق الأغالبة في القتال حيث كان في آخر المعركة يحمي الناس، ويدود عنهم، فلما يئسوا منه صنعوا له حبال، ونصبوها في طريقه وأسروه[9] وانتقموا منه شر انتقام وذلك بقرض أنامله بمقراض من حديد حتى وصل إلى عضده فاستشهد[10] وما إن عاد الناجون من إباضية جبل نفوسة بعد وقعة مانو إلى الجبل، إلا وتحصنوا فيه وتشاوروا

1 - الدرجيني : المصدر السابق، ج1، ص 88.

2 - أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم، ص 156، الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 88.

3 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 344.

4 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 130.

5 - عبد الله الباروني: سلم العامة والمبتدئين، ص 19.

6 - سير الأئمة وأخبارهم، ص 157.

7 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 89.

8 - الشماخي: السير، ج1، ص 193.

9 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 157.

10 - الشماخي: السير، ج1، ص 195.

في عزل أفلح بن العباس، واعتبروه مسئولا عن هذه الكارثة، بفراره من أرض المعركة،[1] وأرسلوا إلى الإمام ليصدر سجل الولاية لابن عم أفلح الذي لم تسمه المصادر على حد علمنا، ورغم اتفاق أهل الرأي والجماعة على ذلك، فإن الشيخ أبا معروف أحد علماء الجبل أبى ذلك خشية وقوع الاختلاف بينهم، حيث لم يستسلم أفلح إلى قرارهم، بل استنكره، وأراد مخالفتهم والخروج عليهم[2] ومع ذلك فلقد استطاع الشيخ أبو معروف إقناع أفلح بالخضوع لرغبة المشائخ، ما دامت هذه الولاية ليست أمرا دنيويا غرضه العلو في الأرض أو جمع الثروة[3] ولكن لم يدم الوالي الجديد أكثر من ثلاثة شهور لأنه لم يحسن تدبير الأمور، مما جعل أهل الجبل يلجأون مرة أخرى إلى أفلح بن العباس ليولوه عليهم[4] وفي سنة 284هـ/897م أي بعد مرور سنة على موقعة مانو عاد إبراهيم بن الأغلب إلى استئصال شأفة إباضية جبل نفوسة وتوابعه، بتجديد الحرب معهم في حيزهم فقد أرسل ابنه أبا العباس أحمد (ت 288هـ/900م) على رأس قوة[5] نحو قنطرارة على اعتبار أنها المعقل الثاني للإباضية بعد الجبل، ففاجأ أهلها في الصباح الباكر، وقتل منهم عددا كثيرا، فضلا عن أسر ثمانين رجلا من أجلّ علمائهم إلى القيروان.[6] ومن قنطرارة اتجه ابن الأغلب إلى نفزاوة للقضاء على من بقى هناك من أهل المذهب، وكان أشهر مشائخهم أبا بكر يوسف النفوسي الذي استطاع الهرب من جند الأغالبة (إثر هبوب ريح عاصف عليهم)، أثناء محاولتهم القبض عليه.[7]

ولم يكتف إبراهيم بن الأغلب بما انزله بإباضية جبل نفوسة، بل إنه عمد إلى الأسرى البالغ عددهم ثلاثمائة أسير، وأحضرهم واحدا تلو الآخر وما إن يمثل الرجل أمامه حتى يشق صدره، ويطعنه بيده في قلبه، بل والأكثر من ذلك أنه نظم قلوب العشرات منهم في خيوط كأنها قلائد النصر، وفعل ببقية الأسرى كذلك حتى أتى على آخرهم، فنظمت قلوبهم في حبال ونصبت على باب تونس[8] وبذلك فما إن أصاب الوهن إباضية جبل نفوسة إثر هزيمتهم في وقعة مانو، إلا وكان ذلك نذيرا بضعف الدولة الرستمية وهو ما بينه الدرجيني بقوله: "فكان ما أبقته من الضعف هذه الواقعة وما اتصل

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 90.

2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، 158.

3 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 131.

4 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 90.

5 - ابن وردان: تاريخ مملكة الأغالبة، ص 61، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 346.

6 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 90، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 392.

7 - أبو زكريا: سير الأئمة أخبارهم، ص 159.

8 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 130، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 347.

بها سببا لإنقراض الدعوة، وذلك لأن نفوسة كانوا عمدتها، قامت بقيامهم، وانقطعت لانقطاعهم، فلما ضعفوا انتهكت الحرمة، واستفزت الإمامة"[1].

7 - جبل نفوسة إبان سقوط الرستميين:

بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعي[2] التغلب على دولة الأغالبة سنة 296هـ/906م[3] يمم وجهه صوب تاهرت في نفس العام، فتسلمها بالأمان من الإمام يقظان بن أبي اليقظان (294-296هـ/906-908م) الذي بويع بالإمامة بعد أخيه أبي حاتم، فقتله هو ومن ظفر به من آل رستم[4] ولم يكتف الشيعي بذلك بل نهب أموال الرستميين، وتوجه إلى المكتبة الكبرى المعصومة وأخذ ما فيها من كتب الرياضيات، والصنائع، والفنون، وأحرق ما عدا ذلك إذ أن معظم كتبها كانت تختص بالشريعة الإسلامية، والمذهب الإباضي، وتاريخ الرستميين.[5]

وإذا كان الفاطميون قد اسقطوا الدولة الرستمية، إلا أن ذلك لا يعني أنهم قضوا على المذهب الإباضي، بل ظل حزبهم باقيا في المغرب كقوة معارضة للفاطميين[6] مما جعل رعايا الرستميين يفرون إلى أماكن متفرقة فمنهم من اتجه إلى جبل أوراس[7] أو ورجلان، والى جزيرة جربة، والى جبل نفوسة الذي أصبح إمارة مستقلة بذاتها، بعد انقراض الدولة الرستمية[8] وخير مثال على ذلك: أنه عندما تولى على الجبل أبو محمد عبد الله بن الخير بعد وفاة أفلح بن العباس كان هو القاضي والحاكم بينهم[9] وكانت ولايته وفق إرادة أهل الجبل المختارة دون الرجوع إلى رئيس أو أمام يتبعونه، وفي أكثر الأحيان

1 - طبقان المشائخ بالمغرب، ج1 ص 91.

2 - هو أبو عبد الله الحسين بن محمد بن احمد الكوفي المتصوف المدعو بداعية المغرب من رام هرمز كورة من كور الأهواز، دخل المغرب سنة 280هـ/891م قم اتجه إلى كتامة ومن تابعهم من قبائل البربر ليستميلهم إلى خلاف المهدي أبو محمد عبد الله الإمام من ذرية فاطمة رضي الله عنها. (الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج، مكتبة الثقافة، بورسعيد، د.ت، ص 110.

3 - الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 20.

4 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 94.

5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 170

6- العبادي : التاريخ العباسي الفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982م، ص 227.

7 - جبل أوراس: يقع مقربة من مدينة باغية، ويتصل ببلاد السوس، وكانت تسكنه قبائل هوارة ومكناسة الإباضي، تملكته الكاهنة (داهية بنت تاتيت) الزناتية، كبيرة قبيلة جراوة البترية، وفيه قتلت على يد حسا بن النعمان. البكري: المغرب ، ص 50، 144، السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ص 82-83).

8 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 618، السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 566.

9- الشماخي: السير، ج1، ص 202.

كان يتم هذا الاختيار من مستشاري جبل نفوسة كلهم على أن تكون صلاحيات الحاكم المختار سارية على جميع الإباضية في الجبل وتوابعه. ومع ذلك فقد يقتصر حكم أحدهم على ناحية من نواحي الجبل، في حين يتولى غيره رعاية شئون الإباضية من الناحية الدينية ومن هنا تكون العلاقة بينهم علاقة تعاون ومشاركة في السراء والضراء. وليس توزيع الحكم بينهم إلا تقسيما للعمل المشترك.[1]

كما تبين أن جبل نفوسة كان هو الملاذ الأول والأخير في استقرار وإستمرار المذهب الإباضي في بلاد المغرب. فعلى أرضه تكونت أول إمامة إباضية بالمغرب سنة 140هـ/757م تحت قيادة أبي الخطاب بن عبد الأعلى المعافري. فكان الملاذ الأول لهم. وعلى أرضه تحصن به الإباضية إثر هزيمتهم بمانو سنة 283هـ/896م. مما جعل إبراهيم بن أحمد الأغلبي يوجه حملة بقيادة ابنه أبي العباس لاستئصال شأفتهم. ولكن كان من الصعب القضاء عليهم نهائيا نظرا للإستراتيجية الجغرافية التي وضعت جبل نفوسة في هذا الموضع. فكان ملاذهم الأخير.

1 - معمر : الإباضية في موكب التاريخ. ح2. ق1. ص 148.

الفصل الرابع

بعض مظاهر الحضارة عند إباضية جبل نفوسة

أولا: الحياة الاقتصادية عند إباضية جبل نفوسة.

الزراعة والحاصلات الزراعية.

الصناعة

التجارة

التنظيمات الاقتصادية

ثانيا: الحياة الفكرية.

المؤسسات التعليمية

العلوم

اللغة في منطقة جبل نفوسة

المرأة النفوسية ودورها في الحياة الفكرية

العلاقات الثقافية

تقديم

شكلت الدراسة الحضارية في هذا الفصل صعوبة في جمع مادته الحضارية في هذه الفترة. فمنطقة جبل نفوسة منطقة جبلية وعرة صعبة المسالك.[1] مما أثر على الحياة الاقتصادية. وإن ازدهرت الحياة الفكرية وسوف نعالج في هذا الفصل بعض مظاهر الحضارة عند إباضية جبل نفوسة كالحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة وتنظيمات اقتصادية، والحياة الفكرية.

أولا: الحياة الاقتصادية في جبل نفوسة

1 - الزراعة والمحاصيل الزراعية

كان لطبيعة سطح جبل نفوسة وطبيعة مناخه أثر كبير في إنتاجه الزراعي، إذ شكلت الزراعة موردا اقتصاديا هاما وهو ما عبر عنه اليعقوبي عن منازل نفوسة بقوله "فيه ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة"[2] فازدهرت الزراعة في هذه المنطقة بفضل ما تمتعت به من دعائم لازمة للزراعة، وأهمها وفرة مصادر المياه وجودة التربة وتنوع المناخ الذي كان له أثرا في تنوع المحاصيل والثمار[3] واهم مصادر المياه في منطقة جبل نفوسه هي: الأمطار التي كانت سببا رئيسيا في وجود العديد من الأودية في الجبل أهمها" وادي لالوت، شروس، كراين، أمسين، الزرقاء، الرومية، الجينين، الآخرة، الرملة.[4] ويتراوح طول هذه الأودية ما بين عشرين إلى خمسين كم تقريبا.[5] حيث تجري داخل الجبل بعد أن تمتلئ بمياه المطر متخذة شكلا انحداريا عاما من الجنوب إلى الشمال.[6] حتى تصل إلى سهل الجفارة شمال جبل نفوسة لتغذيه بمياهها، وتلقي بما تبقى من مياهها في البحر

---

1 - الأنصاري: نفحات النسرين والريحان، ص 18.

2 - البلدان، ص 136.

3 Despois ; Le D. Jebel Nefousa, P. 288. -

4 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 171-221، جودة حسنين: قارة أفريقيا، ص 283.

5 - محمد حسن : المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 389، عبد الجليل الطاهر: المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وأنثروبولوجية، ص 59.

6 معمر" المرجع السابق، ح2، ق1، ص 171. -

المتوسط.[1] ولما كانت الحاجة ضرورية إلى توفير هذا الفائض من مياه الأودية، فكر أهل الجبل في إقامة السدود لتخزين هذه المياه، والاستفادة منها فيما بعد، ولقد كان لأحد ابرز علمائهم ومشايخهم مهدي النفوسي أرض قد انهدمت سدودها وخربت جسورها، مما لا يستطيع العامة من الناس إصلاح هذه السدود.[2]

وهذا يدلل على الجانب الحضاري والهندسي الذي استطاع أهل جبل نفوسة الوصول إليه خلال القرن الثاني الهجري.

وكان لجريان الأودية في الجبل أن تفجر عدد من العيون والآبار على جانبيه، والتي ساعدت على ازدهار الزراعة،[3] وكان من أشهرها عين "تونين، وايجرين، والحسيان، وسركوكم، وأدبير، وتغليس، التي كانت تعد من أعذب عيون جبل نفوسة بل أنها اختصت بساقية غابة كبيرة من شجر الزيتون والنخيل والكروم والكمثرى وغيرها أضف إلى ذلك عشرات العيون التي تنبع من بين الصخر تتفاوت من حيث المياه قوة وضعفا،[4] أكبرها عين أيندل قرب شروس، ونظرا لعذوبة مياهها كان الرجال يتمنون الشرب منها ولو مرة واحدة،[5] ولا أذل على وفرة المياه المناسبة لقيام الزراعة بجبل نفوسة وجود السواقي التي كانت تروى المزارع والبساتين،[6] وهو ما جعل الجبل ملجأ للمزارعين في الفترات التاريخية الحرجة مما أدى إلى زيادة الكثافة السكانية به أواخر العصر الوسيط[7] خاصة في جانبه الغربي لوفرة المياه وجودة أراضيه[8]، وقد تنوعت المحاصيل في جبل نفوسة، الحبوب بأنواعها إلى جانبي الفواكه وتصدر قائمة هذه المحاصيل محصول الشعير التي اختص به جبل نفوسة عن غيره لمذاقه الجيد عن أي طعام سواه، هو ما وصفه ابن حوقل بقوله: "إذا خبز كان أطيب طعما من خبز الحنطة ولشعيرهم لذة ليس لخبز من أخباز الأرض، لأنه ينفرد بلذة ليست في خبز إلا ما كان من سميد أو حوارى قد تأنق صانعه فيه"،[9] وأتي محصول القمح في المكانة التالية بعد محصول الشعير في صناعة الطعام،[10] واتخذت زراعة الحبوب بالجبل

1 - يسري الجوهري: جغرافية الشعوب الإسلامية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995م، ص 469-470.
2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 113، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 65.
3 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 181، جودة حسنين: قارة أفريقيا، ص 283.
4 - معمر : نفس المرجع، ج2، ق2، ص 181، جودة حسنين: نفس المرجع، ص 283.
5 - الشماخي: السير/ج1، ص 146، انظر أيضا: اطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية ياعقبي، ص 73.
6 - البغطوري : سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 34.
7 - محمد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 223.
8 - عبد الجليل الطاهري: المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وانثروبولوجية، ص 22.
9 - صرة الأرض، ص 92-93، قارن الإدريسي: نزهة المشتاق، مجلد1، ج2، ص 279.
10 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 330-333.

شكلا واسعا وهو ما ذكره الشماخي عن أحد مشايخ جبل نفوسة ويدعى صنوا بن الخطاب، الذي اشتهر بكثرة زراعاته حتى أنه وقت حصاده كان يعلمه من بجريه فيأتي إليه لكرمه وسخائه، فضلا عما كان ينفقه على أهل الجبل.[1]

كما كان لتمر جبل نفوسة شهرة واسعة لكثرة النخيل بالجبل،[2] وخاصة في منطقة شروس، التي اشتهرت أيضا بزراعة الفواكه، فضلا عن صدارتها في زراعة الزيتون عالي الجودة،[3] الذي كان من أهم المحاصيل الزراعية بالعديد من مدن الجبل وقراه،[4] أضف إلى ذلك كثرة أشجاره وتقاربها حتى بدت كأنها تعانق بعضها بعضا،[5] فاتخذت شكل غابات متقطعة بالجبل، وهي ما اشتهرت به مدينة إجناون،[6] والتي وصفها الشماخي: "عين إجناون تدور على إثني عشرة ألف زيتون"،[7] بل إن الأمثال قد ضربت من وفرة مياه إجناون الذي ساعد على كثرة غاباتها فقيل: "في كل مكان يذهب الناس إلى مياه، أما بالنسبة لسكان مدينة إجناون فإن المياه هي التي تذهب إليهم"،[8] ومع ذلك فقد لاقت "تاغرمين" إحدى قرى الجبل هي الأخرى شهرة واسعة لجودة زيتونها حتى تمنى الناس رؤيته لأكله نظرا لطيب طعمه ولمشاهدته نظرا لجمال منظره،[9] واشتهرت أيضا بزراعة التين الطيب حلو المذاق.[10] كذلك كان من أشهر مدن الجبل إنتاجا للتين والزيتون مدينة أجيطال[11] التي تميزت بكثرة أشجارها حتى أحاطتها الغابات من كل الجهات.[12] أما زراعة الكروم فقد بلغت مكانة عالية بين محاصيل الجبل لكثرة بساتينه بالجبل ونرى ذلك عندما أرسل أبو القاسم البغطوري أحد علماء جبل نفوسة في القرن الثاني الهجري إلى أحد جيرانه حملا من العنب فشكره قائلا: "ما بقيت دار من دور إيفطمان[13] إلا وقد

1 - السير: ج1، ص 240.
2 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 47، الأنصاري: نفحات النسرين والريحان، ص 23.
3 - البكري: المغرب، ص 9، الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 343.
4 - الأنصاري: المصدر السابق، ص 23.
5 - الجناوني: الوضع، ص 10.
6 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، ورقة 151.
7 - السير، ج1، ص163.
8 -Despois : Le Djebel Nafousa, P. 214.
9 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 215.
10 - معمر: نفس المرجع، ح2، ق2، ص 213.
11 أجيطال: هي تسمية لقرية بجبل نفوسة لازالت موجودة حتى اليوم، وهي واحدة من أقدم المواقع بالجبل شرق (ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، ص 46).
12 - الجيطالي: قناطر الخيرات، تحقيق عمرو النامي، مكتبة وهبة، القاهرة، 1965، القسم الأول، ص 10.
13 - إيفطمان: وهي من قرى الجهة الغربية لجبل نفوسة، وكانت تطلق هذه التسمية على قرية كبيرة لا زالت أنقاضها شاهدة عليها إلى اليوم، والمسماة فطمان غير بعيدة عن ويغو، على هضبة جرداء قاحلة، وهذه القرية

دخلتها عنبك وبقي ما تأكل ثمانية أيام".[1]

وبالإضافة إلى زراعة العنب فقد جادت زراعة الرمان بالجبل،[2] وعلى الرغم من وفرة الحاصلات الزراعية بالجبل، فإن المصادر الإباضية أشارت إلى وقوع مجاعات به نتيجة لقلة الأمطار، وأحيانا من كثرة الحروب.[3]

وهو ما تعرضنا له سابقا في حرب أبي عبيدة الجناوني ضد خلف بن السمح عندما جدبت حوزة أبي عبيدة نتيجة لقلة المطر، فهاجر عنه أصحابه إلى حوزة خلف بن السمح طلبا للعيش، وبحثا عن الرزق.[4]

وعلى الرغم من حدوث المجاعات بالجبل إلا أن الأهالي كانوا يحسنون حسابهم ويدخرون محاصيلهم توقعا لذلك، وهو ما فعله أحدهم ويدعى أبي عثمان المزاتي الذي كانت له غرفة ممتلئة بالشعير، تصدق بها كلها أثناء مجاعة وقعت بجبل نفوسة.[5]

ومن هنا فقد كانت حرفة الزراعة من أهم الحرف التي مارسها أهل الجبل عن طريق حراثة الأرض بواسطة الماشية، أو زراعتها وعزيقها باليد، حتى نضوج المحصول وهو ما ذكره البغطوري عن أحد الأشخاص القاطنين بالجبل ويدعى أبو محمد أنيس من " فرسطا".[6] أنه كان يقوم بحراثة أرضه وزراعتها وعزقها من الحشائش.[7] ولا شك أن أبا محمد أنيس كان رجلا واحدا من بين كثير من الرجال الممارسين لحرفة الزراعة أساس معاشهم.[8]

ومما يدلنا على اهتمام أهل جبل نفوسة بالزراعة، بل والأصح أن أغلب سكانه على الأقل كانوا من المزارعين والفلاحين المرتبطين بالأرض حيث منها معاشهم وأقواتهم.[9] فقد

موجودة منذ العصر الذي عاش فيه عمر بن يمكتن المعاصر للإمام أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري وآخر إشارة معروفة إلى هذا المكان من القرن الخامس الهجري والظاهر أن ساكنتها هجرتها بعد هذا التاريخ (الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 218، انظر أيضا: ليفيتيسكي: المرجع السابق، ص 138-139.)

1 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 127، الشماخي: السير/ج1، ص 218.

2 - البغطوري: نفس المصدر، ورقة 22.

3 - الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 308، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 177.

4 - أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم، ص 128، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 343.

5 - الدرجيني : المصدر السابق، ج2، ص 308، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 177.

6 - فرسطا : إحدى قرى جبل نفوسة الواقعة على أرض الحرابة في الجزء الغربي من الجبل هذا بالإضافة إلى أنها واحدة من أقدم قراه إذ توجد قبل الفتح الإسلامي بكثير ويرجح أن أصل تسميتها يرجع إلى العصر الروماني (ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، ص 87).

7 - سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 59.

8 - البغطوري: نفس المصدر، ورقة 47، 59، 60، 112.

9 - إبراهيم، بحاز : الدولة الرستمية أوضاعها الاقتصادية والفكرية، ص 149.

كان من أسباب هزيمة أبي الخطاب المعافري أمام محمد بن الأشعث سنة 144هـ/761م رغم كثرة عدد جنده الذي قدر بتسعين ألف رجل، انسحاب الكثير من أهل الجبل إلى حقولهم حيث كان وقت المعركة وقت حصاد، وهو ما أكدته المصادر الإباضية.[1]

ومما يدل أيضا على اهتمام الناس بالأرض وتنافسهم على زراعتها بجبل نفوسة، أن أحد مشائخ الجبل ويدعى (محمد ملى) قام بزراعة أرض ظنا منه أنها من الموات التي لا أهل لها فأراد إحيائها بحرثها وزراعتها. وفي أثناء حصاده إذا برجل من أهل الجبل يثبت أحقيته بملكية هذه الأرض مما جعل الشيخ محمد ملى بتركها له دون اخذ المحصول.[2]

وإن دل هذا فإنما يدل على مدى ورع إباضية جبل نفوسة، وسعيهم للآخرة تاركين أمور الدنيا الزائلة. ولا شك أن إباضية جبل نفوسة نتيجة اهتمامهم البالغ بالأرض قد استصلحوا العديد من الأراضي، وحولوا جبلهم إلى جنات خضراء،[3] بل توسعوا في استصلاح أراضي خارج الجبل.[4]

كما برزت أهمية جبل نفوسة كمنطقة رعي صيفي عندما كانت بعض القبائل تقوم بالرعي فيها خلال أشهر الصيف مثل قبيلة زناتة.[5]

ولذلك كانت أراضيه صالحة لرعي قطعان الماشية التي اعتمدت عليها القبائل الصحراوية في معاشها،[6] فضلا على أن الأراضي الجبلية تتميز بصلابتها عن الأراضي السهلية مما تطلب وجود الماشية للقيام بأعباء العمل الفلاحي من حرث وغيره،[7] فهي توفر لأصحابها أيضا الألبان ومشتقاتها، كما يستفاد منها في المعاش والتغذية

1 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 68، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 33، الشماخي، السير، ج1، ص 119.

2 - الوسياني: سير أبو الربيع، مخطوط، ورقة 12، الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 334.

3 - إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية، ص 151.

4 - قام إباضية جبل نفوسة باستصلاح أراضي إضافية خارج جبلهم في بلاد سوف واريغ من أرض تاهرت، وذلك بإحيائها عن طريق حفر الآبار وزراعة النخيل بها، فجعلوا منها منطقة حيوية ذات اتصال مباشر ببلاد الجريد شمالا ووارجلان جنوبا، وجبل نفوسة وما ولاها شرقا ويرجع سبب استصلاح هذه الأرض أن ألف رجل من إباضية جبل نفوسة خرجوا على الإمام عبد الوهاب، فكتب إليهم يسترضيهم، وأقطع لهم هذه الأرض مقابل حرثها وزراعتها، فهدأت ثائرتهم فرحا بهذه الأرض وأصبحت مستقرا وموطنا لهم بعد إحيائها.

(أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 244، 249، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 331، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 154.)

5 - جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ص 68-69.

6 - بوفيا : تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة د.الهادي أبو لقمة وآخرون، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م، ص 71.

7 - محمد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 451.

كاللحوم، علاوة على المواد الأولية للملبس وصنع الخيام التي يأوي إليها من الحر، كما تساعد صاحبها على حمل الأثقال، ونقل البضائع على طرقات التجارة البرية.[1]

وبالرجوع إلى المصادر الإباضية نجد أن جبل نفوسة كان مرتعا لمختلف الحيوانات من جمال وخيول وبغال وأبقار، وحمير، وأغنام وماعز والظباء المعتمد على مراعي الجبل.[2] ولقد أشار الدرجيني صراحة إلى كثرة المراعي بجبل نفوسة عندما ذكر أن محمد بن يأنس أحد علماء جبل نفوسة كانت له غنيمة لا راعي لها، كان يرسلها كل يوم في الصباح محذرا إياها أن تضر بأحد المزارع، فكانت لا تأكل غير الحشيش والمباح من النباتات التي لا حق لأحد فيها.[3]

وإن دل ذلك فإنما يدل على كثرة المراعي بالجبل مما جعل الناس تعتمد عليها في تربية الماشية وهو ما ذكره البغطوري أن أحد مشائخ الجبل ويدعى أبو عبد الله محمد كان له خادم يقوم برعي غنمه في مراعي الجبل[4] ومثله في ذلك أيضا أبو منصور إلياس والي جبل نفوسة حيث كان له غنم كثيرة التناسل ترعى من نباتات الجبل.[5] ولقد أكد الشماخي كثرة الحيوانات بجبل نفوسة وامتلاكها لأحد الأفراد خاصة في ترجمة "يبيب بن زلغين" أحد ملاك الماشية بجبل نفوسة بقوله "فقد كان له ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنا عشر ألف حمار"،[6] وكان رعاة غنمه كلهم عبيده، ولا أدل على وجود هذه الثروة الحيوانية أو قريبا منها عند هذا الرجل مدح الإمام عبد الوهاب له بقوله "لولا أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام لخرب بيت مال المسلمين"[7]

ومن البديهي أن ترتبط كثرة الحيوانات بوجود مراعي واسعة لتكفي مؤونة كل هذا العدد الكبير وهو ما توافر في جبل نفوسة حينئذ، بل نستنتج مما سبق أن جبل نفوسة كان أحد دعائم الدولة الرستمية في موارد بيت المال نظرا لثرائه وأهميته للرستميين وهو ما جعل باحث محدث يعتقد أن كثرة ممارسة جبل نفوسة للرعي واعتماده عليه

1 - محمد سويسي: أنماط العمران البشري بافريقية، ص 71.

2 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 54، 63، 79، 97، 127، 128، 185، الدرجيني" طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 307، الشماخي: السير، ج1، ص 176، الأنصاري: نفحات النسرين والريحان، ص 22.

3 - الدرجيني : المصدر السابق، ج2، ص 297.

4 - سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ص 174.

5 - الدرجيني : المصدر السابق، ج2، ص 330.

6 - السير : ج1، ص 176.

7 - الشماخي: نفس المصدر، ج1،ص 177، انظر أيضا: اطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبى، ص 73.

كحرفة أساسية،[1] هي ما جعلت ابن خلدون يصنفهم ضمن القبائل البربرية البترية.[2]

2 - الصناعة:

(أ)- استخراج الزيت:

كان للصناعة دور أساسي في اقتصاد جبل نفوسة لارتباطها بالمنتوج الزراعي نظرا لطبيعة المواد الزراعية المستخدمة فيها وتوافرها، بداية من صناعة عصر الزيتون التي اشتهرت به مدينة إجناون لما بلغته من السعة العالية بزراعة الزيتون حيث كان بها ما يقرب من أثني عشر ألف زيتونة،[3] وهو ما أكده "الجناوني" عندما نوه لذلك قائلا "ودوح الزيتون كأنها لتقاربها متعانقة، وكانوا ينحتون في الحجر خزانات للزيت يدخرونها للتغذية في بحر السنة"،[4] ويدل ذلك على صناعة استخراج زيت الزيتون، فضلا عن وجود خزانات له حتى يستفيد السكان به على مدار العام، ولذلك أفردت جودة زيتون جبل نفوسة الأفاق مما زاد الطلب عليه كمحصول تصدير رئيسي خاصة إلى مدينة الإسكندرية.[5]

(ب)- صناعة دبغ الجلود ومشتقات الألبان.

تعتبر هذه الصناعة من الصناعات التي ازدهرت بجبل نفوسة اعتمادا على ماشية الجبل عن طريق سلخ الجلد ثم تنظيفه من الصوف والوبر بمواد لا نثبت فيها وهي مخصصة لذلك مثل التربة البيضاء والجبس والرمل المخلوط بالماء.[6]

وبعد الانتهاء من تنظيف الجلد كانت هناك مواد تستخدم لحماية الجلد من التلف بإضافة أصناف من العود والتمر والملح والتين والزيتون للمحافظة على طراوة الجلد، فضلا عن استخدام ثمار أخرى من الشجر البري، وقشر الشجر من الطرفاء، والجوز والرثم في هذه الصناعة، وكانت هناك طريقتان لإتمام ذلك اعتمادا على حجم الحيوان نفسه.

أولها: ترتبط بجلود الحيوانات ذات الحجم الكبير، كالجمال والأبقار ببسط جلودها، وإضافة المواد المستخدمة بعد خلطها بالماء، ثم فردها على الجلد حتى يرشح فيها.

1 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 161.

2 - العبر، ج2، ص 115.

3 - الشماخي: السير، ج1، ص 193

4 - الوضع، ص 10

5 - محمد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 439.

6 - محمد حسن : نفس المرجع، ج1، ص 484-485.

ثانيها: ترتبط بجلود الحيوانات ذات الحجم الأصغر كالأغنام والماعز، حيث توضع جلودها في الماء مضاف إليها مواد الدباغة السابقة داخل آنية يطلق عليها قصرية،[1] وقد يتبين أنه نظرا لاشتهار جبل نفوسة بصناعة الجلود فإنه استخدمها في صناعة الأحذية، ونستند في ذلك إلى ما ذكره الشماخي عندما تحدث عن إحدى نساء الجبل مكن نسل أبي الخطاب المعافري، عندما قالت عقب وفاته: "مات الحق وبقيتم يا زواغة بطون كالاخرجة، وعمائم كالابرقة ونعال سجلماسية، وأحكام متعوجة"،[2] ومن هنا نستطيع القول أن إباضية جبل نفوسة كانوا يقومون بصبغ جلود الأحذية، معتمدين على نعال مدينة سجلماسة[3] التي تتميز بجودتها.

من الطبيعي أن ترتبط بالماشية صناعة الألبان ومشتقاتها[4] فلقد أشار الدرجيني إلى أهمية الزبد في جبل نفوسة وحبهم له أثناء ترجمته لأحد علمائهم يدعى أبى مهاصر موسى قائلا أنه "استصحب معرفة الزبد وغيره ما يتحف به أهل منزله"،[5] فمن المعروف أن الزبد أحد مشتقات الألبان الذي يستخرج منه، وربما أراد الدرجيني بغيره في روايته السمن والجبن وغيره مما يستخرج من صناعة الألبان.

(ج)- صناعة النسيج والصباغة.

لقد برزت صناعة النسيج بين صناعات الجبل الأخرى اعتمادا على وفرة الصوف والكتان وربما الحرير أيضا،[6] فبرع نساء الجبل في هذه الصناعة متخذين من منازلهم مشاغلا لإتمام صناعة الغزل، معتمدين على أنفسهم وعبيدهم نظرا لما تحتاج إليه هذه الصناعة من أيد عاملة كثيرة، فلقد لجأت إحدى نساء الجبل إلى جيرانها لمساعدتها في إتمام عملية الغزل[7] ولقد ارتبط بصناعة النسيج صناعة الصباغة، فتنوعت أشكال وألوان المنسوجات عن طريق الصباغة من يهود جبل نفوسة اشتهروا باحتراف هذه الصناعة

1 - ابن سيفاو: الإيضاح، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1983م، ج1، ص 369، انظر أيضا: محمد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 485.

2 - السير، ج1، ص 240.

3 - سجلماسة: مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها رياض كثيرة، وهي في أول الصحراء، ولا يعرف في غربيها وقبليها عمران، سكانها من أهل صنهاجة، بنيت سنة 140هـ/757م (البكري: المغرب، ص 148، اليعقوبي: البلدان، ص 150).

4 - الوسياني: سير أبو الربيع، مخطوط ورقة رقم 11، الدرجيني" طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 333، الشماخي: السير، ج1، ص 177.

5 - طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 306.

6 - البغطوري : سيرة أهل نفوسة، ورقة 69، 132، انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 577.

7 - البغطوري: نفس المصدر، ورقة 69.

وغيرهم، وهو ما أكدته المصادر الإباضية عندما أوردت فتوى إبان وسيم بعدم إعادة وضوء النسوة بعد لمس أصباغ اليهود، نظرا لوضوئهن بعد لمسه فقال: "أيما امرأة لمست أصباغ اليهود ليس عليها إلا غسل يديها وكفيها"[1] كما بين ابن حوقل شهرة النسيج النفوسي وألوانه المختلفة بقوله: " وطيفان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة"[2] ولاشك أن هذا النشاط الصناعي الغزلي كان يعتمد على المناسج والمغازل والأنوال وغيرها من آلات الغزل التي كان الحرفيون يصنعونها.[3]

(د)- صناعة الأواني الفخارية.

لا تقل صناعة الأواني الفخارية بجبل نفوسة أهمية عن سابقتها من الصناعات، بل اشتهرت به بعض قراه أهمها قرية "ويغو" التي توجه إليها الإمام عبد الوهاب بن رستم أثناء زيارته للجبل عندما كان في طريقه إلى الحج، ونزل بدار فرج النفوسي ابن خال العلامة مهدي النفوسي الزاهد العابد،[4] نتيجة لشدة البرد وكثرة المطر فاحضر لهم فرج مواقد فخارية بها جمر لكل واحد منهم حيث بلغ عددهم ما يقرب من الخمسين رجلا[5] ولا أدل على هذا سوى ازدهار صناعة الأواني الفخارية بين إباضية جبل نفوسة، حيث أن امتلاك شخص واحد من الآنية خمسينا، فمن المؤكد أنها تواجدت في منازل أخرى من منازل الجبل، وبذلك انتشرت أفران حرق الفخار فضلا عن العمالة القائمة على صناعته، هذا ولا يقتصر استخدام الآنية الفخارية كمواقد لتدفئ فقط بل استخدمت في زراعة الزهور وغرس بعض النباتات الأخرى،[6] فضلا عن أغراض استخداماتها المتعددة في الطعام وطهيه.[7]

(هـ) صناعة الأخشاب:

وهي من الصناعات المرتبطة بطبيعة جبل نفوسة، نظرا لوفرة الثروة الغابية به، ولذلك برزت صناعة السواقي والمحاريث الزراعية المعتمدة على أخشاب الأشجار[8] ومما لا شك فيه أن هؤلاء النجارين الذين قاموا بصناعة السواقي والمحاريث الزراعية قد برعوا

1 - الوسياني: سير أبو الربيع، مخطوط ورقة رقم 10، الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 303.

2 - صورة الأرض، ص 69.

3 - إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية، ص 169.

4 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 191، انظر أيضا: الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 333.

5 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 533.

6 - النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 191، انظر أيضا: الحريري: المرجع السابق، ص 232.

7 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 126.

8 - نفس المصدر، ورقة 34، 59.

في صناعات أخرى مثل صناعة الأثاث الفخم، والأبواب وغيرها من الصناعات الضرورية المعتمدة على الأخشاب حتى تيسر حياة كريمة لأهل الجبل.[1]

(و)- صناعة البناء.

كذلك كان لصناعة البناء مكانة عظيمة بجبل نفوسة ومن أشهر من قام بهذه الصناعة نفاث بن نصر النفوسي، الذي عد من أمهر بنائي الجبل، حيث ساعد سعد بن أبي يونس والي قنطرارة في بناء بيته، فقال عنه أبو زكريا: "وكان نفاث بناء عظيما"،[2] وقال عنه الدرجيني: "له معرفة بطرق البناء".[3]

وبذلك نكون قد عرضنا لأهم الصناعات بجل نفوسة من خلال ما وقع بين أيدينا من مصادر ومراجع، ومع ذلك فبالإضافة إلى الصناعات السابقة فمن المؤكد أن الجبل قد اشتهر بصناعات أخرى عديدة لم تسعفنا المصادر بذكرها وإن ذكرته كان بطريقة عابرة دون التطرق إلى خطواتها أو العاملين عليها، ومن أهمها صناعة عسل النحل واستخراجه.[4]

وطالما أن الزراعة والصناعة قد شكلتا موردين رئيسيين في اقتصاد إباضية جبل نفوسة، فلابد من وجود حركة تجارية لبيع هذه السلع في الأسواق الداخلية أو الخارجية عن طريق المقايضة أو النقد.

3 - التجارة

ازدهرت التجارة في منطقة جبل نفوسة سواء داخلية أم خارجية فقد كانت أهم الأنشطة الاقتصادية بجبل نفوسة نتيجة لوفرة المنتجات الزراعية والصناعية، فضلا عن كثرة أسواق الجبل، كمدينة جادو التي اشتهرت لكثرة أسواقها، فضلا عن كثرة القرى المتناثرة حول مدينة شروس البالغ عددها ثلاثمائة قرية.[5]

فمما لا شك فيه أن كل هذه القرى المجاورة تذهب إليها للبيع أو الشراء أو أن يكون

1 - الأنصاري: نفحات النسرين والريحان، ص 23، انظر أيضا: دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 305.
2 - سير الأئمة وأخبارهم، ص 141.
3 - طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 80.
4 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 112، الأنصاري: المصدر السابق، ص 23، انظر أيضا: اطفش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبى، ص 73.
5 - البكري : المغرب، ص 9، انظر أيضا: سعد زغلول: فترة حاسمة من تاريخ المغرب (موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية ونقلهم إلى مصر)، بحث ضمن مجلة كلية الآداب والتربية في الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، 1958م، المجلد الأول، ص 7.

لكل مدينة أو قرية سوق أو أسواق تعقد فيه العمليات التجارية من كيل ووزن وخزن وبيع وشراء نقدا أو مقايضة، ولا يستبعد أن تكون المقايضة هي الغالبة رغم وفرة السيولة النقدية بوفرة الذهب والمعادن الأخرى في بلاد المغرب، وإنما الدافع إليها تقدم الفترة الزمنية من جهة والطبيعة البدوية لسكان البلاد.[1]

ولقد أشار الدرجيني إلى نشاط الحركة التجارية بجبل نفوسة واشتغال معظم الناس بها حتى ذكر أنه كان هناك تاجر ضرير يدعى أبو معروف له دكان بالجبل يشتغل فيه بالبيع والشراء.[2]

واعتمد النشاط التجاري بجبل نفوسة على المنتجات الزراعية والصناعية من زيتون وكروم وشعير وخضر وفاكهة وتمر وزبيب.[3]

أضف إلى ذلك تجارة الماشية وخاصة الأغنام التي كانت تشكل جزءا كبيرا من سوق مدينة جادو،[4] حيث لاقى هذا السوق شهرة تجارية جعلت مدينة جادو صاحبة قوافل كثيرة تتوجه إلى جميع أنحاء الجبل وخارجه[5] وتجارة الأواني الفخارية التي اشتهرت بها قرية ويغو النفوسية[6] وتجارة الجواري التي امتلأت بذكرها صفحات المصادر الإباضية عن طريق بيعها وشرائها داخل أسواق جبل نفوسة،[7] ومما لا شك فيه أنه كان لموسم الحج دور كبير في عملية التبادل التجاري بين إباضية جبل نفوسة والبلاد الإسلامية كلها بصفة عامة، وبلاد المشرق بصفة خاصة، فبالإضافة إلى دوره الديني، إلا أنه كان ميدانا خصبا يقوم فيه الحجاج بالتبادل التجاري، إذ يجدون فيه مختلف البضائع التي جلبتها معهم مختلف أجناس الحجاج كل من موطنه، أضف إلى ذلك أنه يعتبر معرضا ضخما كل عام مرة واحدة يربط أجزاء العالم الإسلامي بعضهم ببعض،[8] ولذا اشتهر جبل نفوسة بكثرة الحجيج عن غيره مما جعل الشماخي يقول عنهم "وكان المسلمون من أهل جبل نفوسة أكثر الناس حجا وأنكاهم نهجا وأنهم يحجون بالنساء والذرية" وذكر "أنه ولد في ركب واحد ثلثمائة صبيا ذكورا، ولهذا قالوا من حج من غير متوليه فهو هالك".[9]

1 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 175.
2 - طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 328.
3 - الحريري:مقدمات البناء السياسي، ص 232.
4 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 157.
5 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 310.
6 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 190.
7 - البغطوري" سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 101، 104، 134، الشماخي: السير، ج1، ص 176.
8 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 200.
9 - السير، ج1، ص 195.

وقد نشطت حركة التجارة بين إباضية جبل نفوسة ومصر عن طريق القوافل الرستمية التي تدفقت تجوب صحراء سرت إيابا وذهابا مثقلة بالسلع الرستمية والمصرية عبر المغربين الأدنى والأوسط.[1] بل اشتهر الكثير من علماء جبل نفوسة في رزقه ومعاشه من حلال التجارة وعرق الجبين أبرزهم ابن أبي المنيب محمد بن يانس،[2] الذي تاجر في سوق مصر بائعا لزيت جبل نفوسة الجيد.[3]

ما جعل زيت الجبل يصدر إلى مدينة الإسكندرية.[4] كذلك لم تكن القيروان غريبة عن جبل نفوسة نظرا لتبعيتها له أثناء إمامة أبي الخطاب المعافري على جبل نفوسة خاصة عندما استنجدوا به من ظلم قبيلة ورفجومة سنة 140هـ/757م.[5]

فضلا عن قربها من الجبل بحكم الجوار الذي أدى إلى تنمية عملية التجارة خاصة تجارة زيت الجبل وكان من ابرز تجار جبل نفوسة مع القيروان أبو زكريا يحي بن أبي سفيان[6] ولم تقتصر تجارة جبل نفوسة الخارجية على القيروان من بلاد المغرب بل اتسعت حيث بلغت سجلماسة عن طريق اعتماد أهل الجبل على نعال المدينة ذات الشهرة الواسعة المستخدمة في صناعة الأحذية،[7] فضلا عن تجارتهم أيضا مع مدينة اودغست،[8] وهو ما ذكره البكري عن أحد تجار سكان جبل نفوسة، ويدعى أبو رستم النفوسي أنه كان بمدينة اودغست أضف إلى ذلك أن سكان اودغست كانوا خليطا من نفوسة ولواتة فمن طبيعة الحال أن تزدهر العلاقات التجارية بينهم،[9] ولقد كان للطريق التجاري بين جبل نفوسة وادوغست دور كبير في تنمية العملية التجارية بينهم،[10] كذلك كان لجبل نفوسة علاقات وطيدة مع بلاد الأندلس، ونستند في ذلك إلى ما ذكره البغطوري عن امرأة صالحة من جبل نفوسة تدعى أم يحيي حفظت ثمانين بيتا من الشعر عن رجل أندلسي، وهو

1 - دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 351، السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 572.

2 - على المصراتي: مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم عرض ودراسة، الدار الجماهيرية، طرابلس، 1967م، ص 32.

3 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 147، انظر أيضا: اطفيش: رسالة إن لم تعرف الإباضية يا عقبى، ص 81.

4 - محمد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 439.

5 - جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية، ج2، ص 38.

6 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 12.

7 - الشماخي: السير، ج1، ص 240.

8 - اودغست: مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير لا ينبت شيئا، ولم يحدد أوائل الجغرافيين موقعها من الصحراء (البكري: المغرب، ص 158، انظر أيضا: جودت عبد الكريم: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية، بالجزائر 1984م، ص 259.

9 - جودت عبد الكريم: نفس المرجع، ص 283، عز الدين موسى: طريق عبر الصحراء الليبية من المغرب الأقصى إلى مصر في القرن السادس هـ/الثاني عشر م، مقال ضمن مجلة البحوث التاريخية، 1983م، عددا، 111.

10 - البكري: المصدر السابق، ص 158، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 219.

ما يدلل وجود الأندلسيين بجبل نفوسة،[1] وما لا شك فيه أن عملية التبادل التجاري قد حدثت بين جبل نفوسة والأندلس، حيث أنه لما كانت الحبوب والماشية والعبيد والأواني الفخارية ضمن السلع المتصدرة قائمة الصادرات الرستمية إلى الأندلس[2] فكان من الطبيعي أن يكون جبل نفوسة قد شارك في هذه التجارة على اعتباره أحد ولايات الدولة الرستمية المشهورة بهذه السلع،[3] فضلا عما كان يستورده جبل نفوسة من الأندلسيين ما كانت تستورده الدولة الرستمية كالقطن وقصب السكر لعدم زراعته بالجبل،[4] كما كان لموقع جبل نفوسة الجغرافي أيضا ووقوعه في نهاية بعض المسالك التجارية لبلاد السودان أن جعله يتحكم في النصيب الأكبر من تجارة الذهب والرقيق بحكم موقعه كهمزة وصل بين النشاط الاقتصادي في الأندلس والمغرب الأقصى وبين افريقية التي يصلها بأسواق المشرق العربي وبلاد السودان لوجود التجارة الرابحة[5] ولذلك فكانت من الضروري وجود مسالك تجارية تربطه ببلاد السودان فتمثلت في مسلكين.

المسلك الأول: جبل نفوسة- غدامس- تادمكة[6]- كوكو.[7]

وبداية هذا الطريق من مدينة شروس عاصمة جبل نفوسة في اتجاه مدينة غدامس ويبدو أن هذا الطريق ظل موجودا حتى الآن وهو ما أشار إليه باحث محدث باسم طريق السودان،[8] وانطلاقا من غدامس غربا يتصل هذا المسلك بتادمكة مستغرقا أربعين يوما تقريبا، ومنها جنوبا إلى كوكو ببلاد السودان حيث مسافة 270 كم تقريبا،[9] وهناك طريق أخر متفرع من نفس المسلك بداية من غدامس إلى تادمكة لكنه غير واضح

1 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 34.

2 - الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 233.

3 - البغطوري: المصدر السابق، 101، 104، 134، 157، الشماخي: السير، ج1، ص 176-177، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، 191.

4 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 204.

5 - نفس المرجع، ص 229.

6 - تادمكة: إحدى مدن بلاد السودان وأشبهها بمكة، وأهلها بربر مسلمون يعيشون على اللحم واللبن ودنانيرهم من الذهب الخاص وهي غير مختومة، تابعين لسلطان الكانم بالسودان. (البكري: المغرب، ص 181، ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، الإقليم الثاني، ج3، ص 49).

7 - كوكو: واحدة من أشهر بلاد السودان وتقع جنوب تادمكة بحوالي 270 كم، وهم على نهر يسمى كوكو ينبع من جبل مقورس، لباسهم من الجلود وحليهم من الذهب، وسموا كوكو لأن ما يفهم من نغمة طبلهم ذلك أثناء جلوس ملكهم حيث يقوموا بضرب الطبلة له. (البكري: المغرب، ص 183، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج3، ص 28، ابن سعيد: بسط الأرض في الطول والعرض، الإقليم الثاني، ج3، ص 48.)

8 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 218، 289 .Despois ; Le Djebel Nefousa P-290.

9 - إبراهيم بحاز: نفس المرجع، ص 218.

وغير دقيق المراحل،[1] ولا يستبعد أن إباضية جبل نفوسة كانوا يستخدمونه في تجارتهم مع اودغست،[2] ورغم طول هذا الطريق الذي يستغرق اقل من شهرين للوصول إلى بلاد السودان انطلاقا من جبل نفوسة، فهناك طريق آخر اقصر منه ويوازيه حيث ينتهي إلى منطقة الكانم إحدى مدن السودان الأوسط،[3] وهو:

<u>المسلك الثاني:</u> جبل نفوسة- زويله- كوار[4] بالكانم.

وهذا الطريق تخرج منه القوافل التجارية بداية من مدينة جادو إحدى المدن الأساسية بالجبل متجهة جنوبا نحو زويلة أو حد بلاد السودان في مسافة حوالي 400 كم،[5] وأهلها "قوم مسلمون إباضية كلهم يخرجون الرقيق السودان وهم يسبونهم".

ومن زويلة إلى مدينة كوار حوالي 450 كم،[6] ولا يستغرق هذا الطريق أكثر من شهر ولكن يبدو أنه خاص بتجارة الصيد دون الذهب، فلا شك أنه كان المصدر الأساسي للعبيد السودانيين المجلوبين إلى المناطق الشرقية من الدولة الرستمية كجبل نفوسة إضافة إلى القيروان، ومن هذه المناطق تتجه قوافلهم إلى مصر فالمشرق الإسلامي كله.[7]

ومما سبق يتبين أن هذه المسالك قد أبرزت مكانة جبل نفوسة الإستراتيجية بتجارته مع السودان سواء كان من وارداته أو صادراته إليها التي ذكرها باحث محدث، وإن كان كلامه جاء شاملا عن الإباضية بصفة عامة، ومع ذلك فمهما كان الأمر فإن جبل نفوسة كان ولاية إباضية رستمية، ومن البديهي أن يكون قد مارس هو الآخر هذه التجارة بصادراته مع السودان والتي تمثلت في منسوجات صوفية وكتانية وحريرية وأواني فخارية وزجاجية، وأخشاب منقوشة، فضلا عن أنواع العطور والبخور،[8] أضف إلى ذلك تجارة الشعير والزيتون والتمور والزبيب الذي اشتهر بها جبل نفوسة،[9] هذا وقد أخذت تجارة الملح مع بلاد السودان أهمية قصوى بالنسبة لهم حيث كان ينتج من الصحراء

1 - البكري: المصدر السابق، ص 182-183.
2 - نفس المصدر، ص 158، انظر أيضا إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 219.
3 - إبراهيم بحاز: نفس المرجع، ص 219.
4 - كوار: إحدى مدن بلاد السودان التابعة لسلطان بلاد الكانم وأهلها مسامون، وتقع كوار شمال بحيرة تشاد (ابن سعيد: المصدر السابق، ج3، ص 48، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: نفس المرجع، ص 219).
5 - البكري: المصدر السابق، ص 10، انظر أيضا: جاك تيري: تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى، ترجمة جاد الله الطلحي، الدار الجماهيرية، ليبيا، 2004م، ص 433.
6 - اليعقوبي: البلدان، ص 134.
7 - مجهول الاستبصار، ص 146، انظر أيضا، إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 220.
8 - دبوز: المغرب الكبير، ج2، ص 347-346.
9 - الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 232.

الليبية ويصدر من جادو إلى كوار،[1] أما عن واردات إباضية جبل نفوسة من السودان فهي الأحجار الثمينة والشب والعنبر وريش النعام وغيرها،[2] من البضائع التي لا يستبعد أن تكون في ركب التكرور،[3] الذي ذكره الشماخي عند قدوم هذا الركب من بلاد السودان إلى شروس، مما جعل حاكم الجبل آنذاك ميمون بن محمد يقوم بإغلاق الأسواق لاستقبال الركب من أجل الانتفاع بعمليتي البيع والشراء.[4]

ومما سبق فقد بين الشماخي جانب مهم في تجارة جبل نفوسة مع السودان، فبالإضافة إلى ما توحي به هذه الرواية من تنوع بضائع ركب التكرور مما دعا الأمر إلى إغلاق الأسواق والاستفادة من تلك البضائع، فإن الرواية واضحة في اهتمام العامل وأهل جبل نفوسة، بقوافل السودان واحترامهم لتجارها خاصة إذا كان من أهل تكرور السودانيين كصاحب هذا الركب، وهو دليل على مشاركة السودانيين أنفسهم في التجارة مع أهل جبل نفوسة، ولم تقتصر التجارة بين جبل نفوسة والسودان على البضائع السابقة فقط فلم يكن ليغامروا في الصحاري الكبرى بما فيها من صعوبات وغيرها من اجل ذلك فقط بل كان لتجارة الذهب والرقيق نصيب الأسد في عملية التبادل التجاري بين السودان وجبل نفوسة نظرا لسهولة إكتسابها وزيادة الطلب عليها،[5] ومن هنا كان جبل نفوسة مركزا اقتصاديا هاما لهذه التجارة مع السودان لكثرة أسواقه التي كانت معروفة آنذاك خاصة بمدينة جادو،[6] ومن المؤكد أن تجارة الرقيق كانت أهم أنواع التجارة الممارسة داخل أسواق الجبل ونستند في ذلك إلى كثرة ما ذكرته المصادر لكلمة عبيد وجواري في كثير من صفحاتها بجبل نفوسة واستخدامهم في شتى أعمال الزراعة والصناعة، فضلا عن أنهم خدم المنازل،[7] وهو ما بينه لنا البغطوري صراحة عندما تحدث عن عتق امة سودانية تدعى غزالة لاهتمامها بأمور العلم،[8] وكما لاقت تجارة الرقيق مكانة عالية بين

1 - جاك تيري : تاريخ الصحراء الليبية، ص 640-641، عبد المقصود باشا: الرستميون صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1989م، ص 107.
2 - البكري: المغرب، ص 183، انظر أيضا: دبوز: المرجع السابق، ج3، ص 347.
3 - التكرور: إحدى مدن السودان الواقعة غرب غانا ويطلق عليها منطقة السودان الغربي وأهلها مسلمون (البكري: نفس المصدر، ص 172).
4 - السير، ج1، ص 232.
5 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 226.
6 - البكري: المغرب، ص 9.
7 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، ورقة 97، 101، 104، 134، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 176، الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماي افريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج9، ص 211.
8 - سيرة أهل نفوسة، ورقة 101.

سكان جبل نفوسة لاقت أيضا تجارة الذهب رواجا كبيرا مع بلاد السودان،[1] وهو ما يجعلنا نؤيد ما قاله باحث محدث من أن العملة الرستمية الذهبية كانت هي المتداولة في جبل نفوسة والمنطقة الشرقية من الدولة الرستمية،[2] وبعد أن انتهينا من أوجه النشاط الاقتصادي لإباضية جبل نفوسة كان علينا توضيح أهم التنظيمات الاقتصادية لهذا النشاط.

4 - التنظيمات الاقتصادية:

أ- نظام ملكية الأرض.

كانت الملكية الفردية أو العائلة هي السائدة بجبل نفوسة[3] فلا نجد أشارات إلى ملكيات جماعية ويرجع ذلك إلى طبيعة الأرض الجبلية ووعورتها حيث لا تسمح بذلك فالأرض الصالحة للزراعة كثيرا ما تكون ضيقة محدودة وهي عادة محاذية للوديان، أضف إلى هذا لو كان هناك ملكية جماعية لما غفلت عن ذكرها المصادر الإباضية بل لأوضحتها لأهميتها نظرا لإبراز جانب اجتماعي مهم من حياة إباضية جبل نفوسة،[4] ونستند في ذلك إلى كثرة ما ذكره البغطوري لملكية الأفراد بعض الفدادين مع العمل فيها بحرثها أو عزقها،[5] أو البساتين التي امتلكها العديد من الأشخاص وهي ما أكدته المصادر الإباضية،[6] وتتضح الملكية الفردية أكثر عند ترك محمد ملى محصول أرض قد حرثها وزرعها لإثبات أحد أفراد الجبل ملكيته لهذه الأرض،[7] وعلى الرغم من قيام معظم الملاك بزراعة أراضيهم بأيديهم والعمل بها،[8] فقد يكون ذلك ناتج عن ضيق مساحة الأرض نتيجة للبيوع أو المعاوضات أو اقتسام الأرض بالميراث، فيصل نصيب الفرد الواحد إلى حد ضئيل مما قد لا تنتج الأرض الحد الأدنى لدفع الزكاة،[9] ونرى ذلك من خلال ما قام به أحد رجال جبل نفوسة ببيع فدان إلى أبي مهاصر الافاطماني أحد علماء الجبل أثناء

1 - السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 578.

2 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 187..

3 - محمد حسن: المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 448

4 -إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 155.

5 - سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 59، 60.

6 - الوسياني: سيرة أبو الربيع، مخطوط، ورقة 8، الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 309، الشماخي: السير، ج1، ص 177.

7 - الدرجيني: نفس المصدر، ج2، ص 332.

8 - البغطوري: المصدر السابق، ورقة 58، 97.

9 - محمد حسن،المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج1، ص 448.

عام قحط عم الجبل،[1] إلا أن ذلك لا يمنع امتلاك بعض الأفراد لأراضي واسعة مثل صنو أبي الخطابي مما جعلهم يستخدمون العبيد في زراعتها، فلم يكن استخدامهم قاصرا على المنازل فقط، بل كان اغلبهم من العاملين بالمزارع والبساتين،[2] ولذلك انتشرت تجارة الجواري في أسواق جبل نفوسة.[3]

ب- موارد بيت المال.

رغم صعوبة الوصول لمعلومات في هذا المجال، إلا أن بعض المصادر أشارت إلى هروب بعض السكان من دفع الزكاة التي شكلت أهم موارد بيت المال،[4] وهو ما يفهم مما كان يفعله أبو يونس وسيم عامل قنطرارة التابعة لجبل نفوسة،[5] إذ كان يصعد إلى أعلى مكان وينادي بأعلى صوته قائلا: "لا فرار من الصدقة والفار من الصدقة يؤذي ويكرر ذلك".[6]

ومما لا شك فيه أنه كان هناك عمال قائمين على جمع الزكاة منذ عهد الإمام أبي الخطاب المعافري وربما من قبله هو ما نستند فيه إلى قول ابن الصغير عند وفاة أبي الخطاب واهتمام الإباضية بتنصيب إمام آخر مكانه للأمور الآتية "نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا ويقسم فينا"[7] وكان هؤلاء العمال يجمعون الزكاة سواء كانت زروعا أو ماشية ثم يحولونها إلى أموال،[8] ومما لا شك فيه أنه كان لجبل نفوسة دار زكاة تجمع فيها زكاة قرى الجبل المتناثرة، وذلك عن طريق إرسال كل عامل تابع لوالي الجبل زكاته وهو ما أكده البغطوري عند ترجمته لأحد مشائخ جبل نفوسة يدعى ماطوس بن هارون حيث ذكر أن عامل تيمتي إحدى قرى الجبل أعطاه ثلاثمائة دينار من الزكاة ليوصلها إلى والي الجبل أبي منصور إلياس آنذاك،[9] وكان أهل جبل نفوسة يخرجون زكاتهم دون تأخير مع الزيادة فيها ومثال ذلك أن أحد مشائخ الجبل ويدعى صنو أبي الخطابي منع أهل الجبل من شراء طعام جربة نظرا لرخص ثمنه

1 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، ورقة 122.

2 - نفس المصدر، ورقة 58، 97، الشماخي: السير، ج1، ص 176، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 155.

3 - البغطوري : نفس المصدر، ورقة 123.

4 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 168.

5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 138.

6 - الشماخي : المصدر السابق، ج1، ص 169.

7 - أخبار الأئمة الرستميين، ص 26.

8 - نفس المصدر، ص 35.

9 - سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 71.

وأخرج إليهم زكاته وهو ما حدث به الشماخي بقوله "فلما حضر الكيل أخرج العاشر والتاسع والثامن والسابع والسادس للزكاة وذلك النصف فامتاروا جميعا من زكاته.[10] ومن هنا يجب أن نوضح مدى أهمية زكاة جبل نفوسة ليس فقط لأهل الجبل، بل لتاهرت نفسها وهذا إن دل فإنما يدل على مدى الثراء الذي حف بعض أهالي الجبل، فبرزت منهم بعض عناصر الثروة التي أصبحت أحد دعائم الدولة الرستمية فمنهم ابن زلغين الذي كان يمتلك ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنا عشر ألف حمار،[11] مما جعل الإمام عبد الوهاب يقول: "لولا أنا ومحمد بن جرني وبيبب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين: أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام".[12]

وكانت الزكاة تجبى وقت الحصاد بدون ظلم أحد، كما كانت تصرف في وجوهها المشروعة،[13] طبقا لقول الله عز وجل: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم".[14]

كذلك كانت موارد بيت المال أيضا من الجزية[15] وخراج[16] الأرض[17] أما الجزية فكانت تفرض على أهل الذمة بجبل نفوسة نظرا لكثرتهم وهو ما أكده البكري عن كثرة اليهود المتمركزين بمدينة جادو،[18] حيث كان بها مقبرة وحارة وبيعة خاصة بهم فضلا عن ممارستهم النشاط التجاري بالجبل، وكان رئيسهم قاض قضاة يهودي خاص بمعاملاتهم وإدارة شئونهم،[19] كما كان لهم أحياء خاصة بهم على مقربة من السوق في منتصف التجمعات السكنية فضلا عن وجود جسر أطلق عليه اسم الجسر اليهودي،[20] هذا ولم

10 - السير، ج1، ص 240.

11 - نفي المصدر، ج1، ص 176.

12 - نفس المصدر، ج1، ص 177.

13 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 242.

14 - سورة التوبة: أية (60).

15 - الجزية: مقدار معلوم من المال يؤخذ على رؤوس المشركين جزاء على كفرهم مقابل أمانهم مع بقائهم في ملتهم (الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت، ص 147.

16 - الخراج: مقدار معلوم يؤخذ مما تخرجه الأرض وقت حصادها، ويؤخذ من الذمي والمسلم (الماوردي: نفس المصدر ص 147).

17 - ابن الصغير: أخبار الرستميين، ص 36.

18 - البكري: المغرب، ص 9.

19 - عطا أبو رية: اليهود في ليبيا وتونس والجزائر، دار إتراك، القاهرة، 2005، ص 196.

H.z (J.W) Hirschberg : A history of the Jews in North Africa, Leiden, E.J.Brill, 1974, P. 131.

20 - Despois : Le Djebel Nefousa, P. 289.

تخلو مدينة شروس هي الأخرى من وجود اليهود بها.[1]

أما عن النصارى فقد تواجدوا بجبل نفوسة حتى بعد دخول الإسلام[2] وهي ما أكدته بعض المصادر والمراجع الإباضية من زواج أبو يحي الازدالي أحد علماء إباضية جبل نفوسة من إحدى نصرانيات الجبل، فصارت من المتفقهات في المذهب الإباضي وكنيت بأم الخطاب.[3]

أما عن حقوق أهل الذمة في الزكاة، فكانت زكاتهم تؤخذ من أصحاب ملتهم، أضف إلى ذلك حقوقهم في الفيء والغنائم والصدقات.[4] أما الخراج فكان من أهم موارد بيت المال في جبل نفوسة وهو ما أكده اليعقوبي من أن أهل جبل نفوسة "لا يؤدون خراجا إلى سلطان ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت.[5] وبذلك فإن أموال الخراج والجزية وغيرهما لا تبقى في مواطنها المحصلة منها بل تنقل إلى بيت مال المسلمين في تاهرت لدفع أجور الموظفين في الدولة من حشم وقضاة وشرطة وغيرهم من القائمين بأمور الدولة،[6] وكانت هذه الأموال تجبى مرة واحدة كل عام.[7]

ولقد تورع إباضية جبل نفوسة عن ملء خزائنهم من غنائم المسلمين لعدم توافق ذلك مع مبادئ مذهبهم، وإنما اكتفوا بالحقوق الشرعية دون غيرها مع بعض الرسوم الواجبة، والتزموا بصرفها في وجوهها الشرعية،[8] ويتبين ذلك عندما حرموا غنيمة العباس بن طولون أثناء هزيمته على يد والي جبل نفوسة أبي منصور إلياس سنة 267هـ/880م.[9]

جـ- المكاييل:

كان أشهر مكاييل جبل نفوسة "الخروبة" وهو ما ذكرته المصادر الإباضية عندما تحدثت عن تجارة أبي معروف الضرير من أنه "إذا وزن لأحد من الناس زاده من نفسه خروبه وإذا أراد أن يأخذ لنفسه من أحد نقص خروبه" إحتياطيا ومخافة أكل أموال الناس

1 - عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001، ص 38، 63.

2 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 8.

3 - الشماخي : السير، ج1، ص 218، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 244-245.

4 - الورجلاني: الدليل لأهل العقول، الطبعة البارونية، مصر، 1306هـ، ج3، ص 54-53.

5 - البلدان، 136.

6 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 36.

7 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 243.

8 - نفس المرجع، ص 244.

9 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 119.

بالباطل.[1] ومن المكاييل المستخدمة بالجبل أيضا "الكر" المساوي "للمد"،[2] الذي كان مكيال الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان بيع المزايدة هو المعمول به بجبل نفوسة عن طريق مرور "الطوائف" أي الحامل للسلعة بالسوق، فيعلن عن سعرها، وعندما يصل السعر إلى منتهاه يأخذ في المماطلة أربع مرات قبل أن يقبض الثمن من المشتري ثم يبيعها له.[3]

د- العملة:

عاشت الدولة الإسلامية حياة اقتصادية حافلة بمظاهر النشاط الاقتصادي المتعدد الجوانب كان عماد هذا النشاط القوة النقدية، لذلك كانت النقود الإسلامية من أجود أنواع النقود في العالم فعرفت في مشرق العالم الإسلامي (بدار الضرب) وفي مغربه (بدار السكة)،[4] وعرفها ابن خلدون بأنها هي الختم على الدنانير والدراهم بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة يضرب بها على الدينار والدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة، وذلك بعد تقدير هذه الدنانير والدراهم بوزن معين يصطلح عليه بين الناس فيكون التعامل بها عددا أو وزنا.[5] واقتصر صرف العملة بما تشمله من دنانير ودراهم على المسلمين دون اليهود وغيرهم من الأعاجم، وهو ما اتفق عليه بعض العلماء بعدم إجازة أهل الذمة من أن يكونوا صيارفة أو جزارين لعدم تفقههم في أمور الدين الإسلامي.[6]

ولقد أفاضت صفحات المصادر الإباضية بذكر الدينار والدرهم بجبل نفوسة، مما قد يتبين إنهما العملتان الرئيسيتان داخل الجبل.[7] وهو ما أكده الدرجيني أيضا عندما تحدث عن وديعة من دنانير استودعها أحد أهالي جبل نفوسة عند أحد مشايخهم أبي ميمون فلما حدثت مجاعة بالجبل، تصدق صاحب الوديعة منها بعشرين دينارا لأهل الجبل،[8] ولا أدل على ذلك أن إباضية جبل نفوسة ضربوا عملتهم على عهد الإمام

1 - الوسياني: سير أبو الربيع/ مخطوط، ورقة7، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 328.

2 - المد: هو أداة للوزن، والمد عند الرستميين يعادل خمسة أقفزة ونصف قرطبية وبذلك يكون أيضا: الحريري: مقدمات البناء السياسي، ص 235.

3 - الوسياني: المصدر السابق، ورقة6، انظر أيضا: سعد زغلول: هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب دراسة لكتاب السير، ج1، ص 72.

4 - ضيف الزهراني : دار السكة نشأتها -أعمالها- إدارتها، مقال ضمنت مجلة الدارة، السعودية، 1975م، عدد2، ص 5.

5 - مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت -لبنان، 1986م، ص 261.

6 - أبو الحسن الحكيم : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق د.حسن مؤنس، 1986م، ص 133.

7 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 55، 71، 103، 111 وغيرها، الوسياني، مخطوط، ورقة 7.

8 - طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 296، 332.

أبي الخطاب المعافري فلوسا من النحاس مكتوبة على وجه منها "ضرب هذا الفلس بإفريقيا" وعلى الوجه الآخر "سنة اثنتين وأربعين ومائة"،[1] واستمر ضرب هذه الفلوس إلى سنة 144هـ/761م حينما قدم القائد العباسي محمد بن الأشعث وقضى على ثورة أبي الخطاب.[2]

وقد يتبين مما سبق وجود مسبكة لسبك هذه العملات في جبل نفوسة خاصة عهد الإمام أبي الخطاب، رغم عدم ذكرها صراحة، ويعتقد باحث محدث هو ما نؤيده أن العملة الرستمية الذهبية كانت متداولة في جبل نفوسة والمنطقة الشرقية من الدولة الرستمية نتيجة للعلاقات التجارية بينهم وبين السودانيين،[3] واشتغالهم بتجارة الذهب معهم.[4]

هـ- الحسبة:

هي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يوظف لها القائم بأمور المسلمين من يراه أهلا لها، فيحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الجمالين من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، وردع من يقوم بالغش والتدليس في المعايش وفي المكاييل والموازين وغيرها، بذلك تكون الحسبة، بهذا التعريف الجامع رقابة هدفها الصالح العام، وتوفير سبل الراحة والاطمئنان للرعية وتأمينها من أي خطر قد يهدد حياتها أو يؤذيها في مالها.[5] ولقد ظهر الاحتساب بصورة كبيرة بجبل نفوسة، لأنه مجتمع إباضي محافظ لابد أن يحرص أفراده على قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة العادات السيئة، وبالتالي مراقبة الأسواق والمعاملات التجارية القائمة فيه.[6]

ومن أشهر المحتسبين بجل نفوسة أبو يوسف وجدليش بن في الذي آل إليه سوق جادو فكان يأمر فيه بالمعروف وينهي عن المنكر، ويأذن لمن يشاء بالبيع في السوق ويمنع عنه من في ماله شبهة.[7]

1 - حسن عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية، القسم الأول، مكتبة المنار، تونس، 1924م، ص 425.

2 - نفس المرجع، ص 426.

3 - إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية، ص 187.

4 - السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 578.

5 - الماوردي : الأحكام السلطانية، ص 247-250، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 246.

6 - نفس المرجع، ص 249.

7 - الشماخي : السير، ج2، ص 24.

ومن تفرغوا أيضا للحسبة بجبل نفوسة: أبو المنيب محمد بن يانس الذي كان يتفقد المزارع والطرقات محتسبا ثواب الله أمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، فعندما وجد ثلاثة إخوة قد عزموا على ضرر غيرهم، واقبلوا على تنفيذ هذا الضرر، نهاهم محمد بن يانس عن ذلك فآذوه فدعا عليهم.[1] فماتوا ومنع أهله من أن يضروهم مخافة أن ينتصف لنفسه بالثأر منهم.[2]

و- مستوى المعيشة

ساعد ازدهار النشاط الزراعي والصناعي والتجاري في رفع مستوى معيشة سكان جبل نفوسة فأدى إلى ظهور الطبقية من أغنياء وفقراء وعبيد، ولكي نتصور مدى المستوى المعاشي الذي بلغه أهل جبل نفوسة وهم المشهود لهم بالزهد في الدنيا والتخلي عن نعيمها عندما انتقل الإمام عبد الوهاب بن رستم إلى جبل نفوسة أثناء طريقه للحج واستقر في منزل فرج النفوسي ابن خال العلامة مهدي النفوسي بقرية ويغو، وكان فرج من الأغنياء له الديار الواسعة والرياش الكثير والأثاث الفخم فضلا عن كثرة عبيدة[3] فاحضر لهم أجود أنواع الطعام، وأكرم دوابهم بما لزم من العلف والشعير، وبسط عليهم شتى أصناف الخير فشعروا براحة تامة.[4] أضف إلى ما سبق من مظاهر انغماس سكان جبل نفوسة في الترف ما قاله والي جبل نفوسة واحد علمائها إبان بن وسيم "قد أدركنا الناس الذين هم الناس محادثتهم ذكر الله تعالى، وزيارتهم في الله تعالى، ومعانقتهم في الله تعالى، ومحبتهم في الله تعالى، بقينا حتى أدركنا ناسا محادثتهم ذكر الدنيا، وزيارتهم لتقاضي الحوائج ومعانقتهم نطاح".[5]

ومما سبق يتبين أن الحضارة قد غزت الجبل فاهتم الناس بالتجارة والاكتساب، وهو التيار السائد في العهد الرستمي، ولم يستطع مشائخ الجبل صد هذا الغزو الحضاري،[6] وهو ما رأيناه في أهل مدينة شروس حيث تعاطوا شرب الخمر[7] ولذلك فقد كان لهذا الرواج الحضاري أثره على انتباه الحاسدين إلى أهمية جبل نفوسة للرستميين فكان الأسباب التي تمخضت عنها وقعة مانو 283هـ/896م.[8]

1 - وتوضيح هذه الدعوة مدى كرامات العلامة محمد بن يانس حيث أصاب احدهم الموت عن طريق مرض في بطنه، والآخر سقط في بئر، والثالث وقع من أعلى قمة الجبل (الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 147).

2 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 297.

3 - نفس المصدر، ج1، ص 64، انظر أيضا دبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 503.

4 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 191.

5 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 305، الشماخي: السير، ح1، ص 185.

6 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 255.

7 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 81-82.

8 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 156، ابن عذاري: البيان المغرب، ح1، ص 129.

ومع ذلك فمما لا شك فيه أن هذا الرواج الحضاري التي لاقاه إباضية جبل نفوسة كان له أثر كبير على الجانب الفكري من حياتهم، وما تمخض عنه من علوم نقلية وعقلية فضلا عن دور المرأة النفوسية في تلقي هذه العلوم، أضف إلى ذلك العلاقات الثقافية بين إباضية وبلاد المشرق والمغرب والأندلس والسودان، وهو ما يأخذ بالحديث إليه.

ثانيا: الحياة الفكرية.

لقد رأسهم جبل نفوسة بنصيب كبير في الحياة الفكرية في المغرب الأدنى خاصة وبلاد المغرب عامة، حيث اعتبر الجبل من أهم المراكز الثقافية التابعة لها فضلا عن اعتباره كهف العلماء ومقصدهم،[1] فكان لتشجيع الأئمة دور كبير في إثراء الحياة الفكرية بجبل نفوسة وهو ما رأيناه عن الإمام عبد الوهاب عندما قضى في جبل نفوسة سبعة أعوام يلقن فيها أهل الجبل مسائل الصلاة، بل وانقضت الأعوام السبعة وبقيت له بعض الأبواب لم يلق دروسها[2] لتعمقه في كل مسألة ولأهمية ركن الصلاة في الإسلام، ولم يقتصر الإمام عبد الوهاب لهذه الدروس بل ألف كتابا سمي "بمسائل جبل نفوسة" وهو عبارة عن أجوبة لمسائل أشكلت على أهل نفوسة،[3] ولا أدل على وجود العملية التعليمية بجبل نفوسة من وجود مؤسسات تعليمية قائمة بالجبل لتلقينهم أصول العلم سواء كان بالكتّاب أو المنزل، أو المسجد، أو المكتبة.

1 - المؤسسات التعليمية:

أ- الكتّاب أو المنزل:-

كان الكتّاب من أهم المؤسسات التعليمية بجبل نفوسة والذي شكل مرحلة قائمة بذاتها بعيدا عن المسجد ولذلك كان إنفصال الكتاب عن المسجد أمر ضروري لأمرين.

أولهما: أن الكتاب كان لتعليم الصبيان الذين لم يبلغوا سن الرشد بحيث يحتذروا من النجاسة.

ثانيهما: طبيعة العلوم التي كانت تدرس في الكتاتيب فهي دينية بحته مثلة في حفظ القرآن الكريم.[4]

1 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 262.

2 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 115-116، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ح1، ص 66-67.

3 - ابن الصغير" أخبار الأئمة الرستميين، ص 39، انظر أيضا: الحبيب الحنجاني: المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مطابع السياسية، الكويت، 2005، ص 138.

4 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 276-277.

وكان التلميذ في الكتاب يعتمد في كتاباته على الألواح الخشبية، ويبدوا أن ذلك نظرا لندرة الورق في ذلك الحين لتقدم فترة الدراسة في المغرب الإسلامي.[1] وتخبر المصادر الإباضية أن أول من علم القرآن بجبل نفوسة هو عمرو بن يمكتن وقد تعلمه في طريق مغدامس،[2] حيث كن يتلقى العرب القادمين من المشرق، فيكتب عنهم لوحة من القرآن، فإذا حفظه غسل اللوح ثم توجة مرة أخرى، وهكذا أتم حفظ القرآن كاملا ثم أخذ يعلمه لتلاميذه في منزله بايفاطمان إحدى قرى جبل نفوسة.[3]

وسرعان ما أصبح منزله هذا أو كتابه منارا يشع النور والعلم والإيمان في كامل جبل نفوسة وصارت أيضا إيفاطمان أول مدرسة إباضية بالمغرب الإسلامي.[4] ويظهر سبب تعلم إباضية جبل نفوسة للقرآن بهذا الجهد المضني الذي قام به عمر بن يمكتن في بداية القرن الثاني الهجري إلى سببين:

أولا: حرص أبناء الجبل على تعلم الدين الجديد وإجتهادهم في مزاحمة أبناء الفاتحين رغبة في الالتحاق بهم والاستواء معهم في المعرفة.

ثانيا: قلة وجود المصاحف المكتوبة في ذلك العصر حتى يحتاج المتعلمون للتعرض إلى المسافرين الوافدين من المشرق، وتلقي سور القرآن بالإمداد منهم ورسمها على الألواح بقصد حفظها.[5]

وإذا حفظ الطفل مبادئ القرآن يكون قد بلغ الحلم، بحيث يجوز له دخول المسجد وهي المرحلة العليا التالية للمرحلة الابتدائية السابقة، ولا أدل على وجود مراحل تعليمية لإباضية جبل نفوسة ما ذكره أبو زكريا حول "أبد الله الشكاس" أحد المنشقين عن الإباضية بقوله "فقرأ وحفظ، فلما اشتد وبلغ الحلم سولت له نفسه طلب العلوم".[6]

1 - كانت طريقة الكتابة على الألواح في المغرب العربي سارية في القرون الأولى إذ يروى المالي أن إسماعيل بن رباح الجزري أحد فقهاء القيروان توفي سنة 212هـ/827م، وكان في طفولته يكتب على اللوح فإذا حفظ ما فيه غسله (رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير القلوشي، دار الغرب الإسلامي، 1994، ج1، ص 334.).

2 - مغدامس موضع قريب من سرت بحوالي 30 كم ويبعد عن قصور حسان بحوالي 30 كم أيضا: (البكري: المغرب، ص 7).

3 - الشماخي: السير، ج1، ص 127، انظر أيضا: احمد مختار: النشاط الثقافي في ليبيا، ص 133.

4 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 40.

5 - حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية، القسم الأول، ص 81.

6 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 203.

ب- المسجد:-

اشتهر جبل نفوسة بكثرة مساجده، بل إن أول موضع أذن فيه المؤذنون بجبل نفوسة هو أجلمم بالقرب من شروس.[1] ولقد بين الدرجيني عن كثرة المساجد بالجبل عند ترجمته لمحمد بن يانس بأنه كان له سبعة مساجد بعضها في جبل نفوسة وبعضها في سهل الجبل فكان لا تفوته الصلاة في كل مسجد منها كل ليلة وهو شيخ كبير،[2] ومن الطبيعي أن تكون هذه المساجد منارا لتلقي العلوم من تفسير وحديث وفقه ومناظرة، وغيرها من العلوم المختلفة.[3] وهو ما أكده النفوسي عندما تحدث عن مسجد لأبي عبيدة الجناوني وهو مسجد مشهور متوسط اجتمع فيه سبعون عالما من أكابر علماء قرية إجناون التي حظيت بشهرة واسعة في العلم حتى أنها لا تحتاج فيها دار إلى أخرى في العلم،[4] هذا فضلا عن مسجد الإمام عبد الوهاب بميري الذي كان يعلم فيه أهل الجبل أمور الصلاة.[5]

وقد لا يقتصر تعلم الطلبة بجبل نفوسة على مسجد واحد، بل كانوا يتحركون على إثر أستاذهم في المساجد المنتشرة بالجبل، فكان لأبي ميمون الجيطالي[6] حلقة من الطلاب تتحرك معه يأخذون عنه العلم والسير[7] وعلى الرغم من أهمية المسجد بتعليم المرحلة العليا، كان للمنازل أيضا دور كبير في ذلك أبرزهم منزل أبي ذر وسيم التي كانت تقصده النساء بجانب الرجال والطلبة،[8] كما كان لمسجد أبي هارون الجلالي موسى بن يونس النفوسي أحد العلماء الناجين من موقعة مانو مع الأغالبة، فقال عنه أحد أقرانه "لو علم الناس ما ينفعهم لأزدحموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة بالبصرة"[9] ولما كانت المساجد أهم المؤسسات التعليمية داخل جبل نفوسة فكان من الضروري أن يكون بها ملحقات لسكنى الطلاب المغتربين وأساتذتهم فضلا عن نفقاتهم

1 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 110، انظر أيضا: سعد زغلول: هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب، ص 66.

2 - طبقات المشائخ بالمغرب، ح2، ص 298.

3 - الشماخي: السير، ح1، ص 236.

4 - الأزهار لرياضية: ح2، ص 230.

5 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 116، انظر أيضا: معمر الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 211.

6 - أبو ميمون الجيطالي: أحد مشائخ وعلماء الدين الذين عاشوا فيما بين الطبقة الخامسة (200-250هـ)، وينتسب إلى قرية إيجطال إحدى قرى جبل نفوسة (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب) ح2، ص 294-296.)

7 - الدرجيني: نفس المصدر، ح2، 295.

8 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 186.

9 - نفس المصدر، ح1، ص 236.

وغذائهم المجاني المخصص من تبرعات أهالي الجبل لإجلالهم العلم والعلماء،[1] ونؤيد هذا من باب المقارنة بحملة العلم إلى المغرب التي أجريت لهم نفقاتهم وخصصت لهم مساكن، وبما أنهم نقلوا العلم إلى المغرب فلا مانع أن يكون قد نقلوا تنظيمات مدرسة البصرة إلى المغرب أيضا،[2] وخاصة جبل نفوسة لأن إمامهم أبي الخطاب المعافري كان أحد حملة العلم إلى المغرب.[3]

جـ- المكتبات

لا شك أن للمكتبات دور كبير في تغذية الحركة الفكرية في جبل نفوسة حبا منهم في اقتناء الكتب وخير مثال على هذا ما قام به عمروس بن فتح النفوس أحد علماء الجبل من نسخه مدونة أبي غانم الخرساني،[4] رغم رفض صاحب المدونة ذلك لما طلب منه عمروس[5] وتقع المدونة في اثني عشر جزءا كلها في الفقه رواها أبو غانم عن تلاميذه أبي عبيده، وتذكر المصادر الإباضية أن النسخة الباقية إلى اليوم هي نسخة عمروس،[6] ولعل هناك الكثير من رجال نفوسة الذين كانوا يهتمون باقتناء الكتب في مكتباتهم الخاصة بالإضافة إلى المكتبة العامة بالجبل المسماة "بخزانة نفوسة" الجامعة لآلاف من الكتب، وبذلك كانت ملجأ لطلاب العلم وكان مركزه شروس،[7] وفي هذا ضربت الأمثال فكان أهل الجبل يقولون "من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير" أحد علماء جبل نفوسة في القرن الثالث الهجري،[8] وإن ذل ذلك على شيء فإنما يدل على قيمة العلم بجبل نفوسة وأهمية الكتب في حياتهم، لأنه اعز ما يطلب في زمان ليس من السهل توفير الورق أو المداد لإعادة استنساخ الكتاب الضائع.[9]

---

1 - معمر: المرجع السابق، ح2، ق2، ص 287.

2 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 4، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 20، انظر أيضا" عض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 106، البوسعيدي: حملة العلم إلى المغرب، ص 15.

3 - الجربي: مؤنس الأحبة، ص 45.

4 - هو أبو غانم الخرساني أحد علماء إباضية المشرق، زار جبل نفوسة وتاهرت أيام الإمام عبد الوهاب بن رستم (الوسياني: سير أبو الربيع، مخطوط، ورقة 3، الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 323.).

5 - تشير المصادر الإباضية إلى مدى الجهد الذي بذله عمروس في نسخ هذه المدونة تحت أشعة الشمس الحارقة مما جعله ينتقل من مكان على آخر كلما أدركته الشمس حرصا على إحياء العلم، في حين كانت أخته تملي عليه، ولما رجع أبو غانم من تاهرت، وكان قد ترك مدونته في أمانة عمروس لحين رجوعه منها فوجدها منسوخة عن طريق بعض الإشارات المنقوطة على نهاية بعض كتابات عمروس فسماه سارق العلم (الشماخي: السير،ج1، ص 194-195.)

6 - الوسياني: المصدر السابق، ورقة 3، الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 194.

7 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 266.

8 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 316.

9 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 319.

2 - العلوم:

تعددت العلوم بجبل نفوسة حتى ذاعت شهرة علمائها، ومن أهمها:

(أ)- التفسير: في اللغة هو الكشف والإظهار وفي الشرع توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة،[1] وكان من ابرز علماء التفسير بجبل نفوسة محمد بن يانس الذي كان واحدا من رجال البعثة التي أرسلها إباضية جبل نفوسة إلى الإمام عبد الوهاب لمحاربة الواصلية[2] ولقد تحدث ابن يانس عن نفسه قائلا "أخذت تفسير القرآن كله عن الثقات، و علمته عنهم إلا حرفا واحدا أو حرفين فإن اضطررت أجد مخرجا"[3] وتشير هذه الرواية إلى مبلغ علم ابن يانس في التفسير رغم وجود مفسرين غيره ولكنه أفضلهم.

(ب)- الحديث: في اللغة الكلام وفي عرف الشريعة هو كل كلام يتصل بأعمال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وأحواله أو بأعمال الصحابة وأقوالهم وأعمالهم وعلم الحديث من اجل العلوم التي ليس لها نظير عن غير المسلمين[4] ويتأتى أول اهتمام لإباضية جبل نفوسة بالحديث عند قدوم نفاث بن نصر احد مشائخ نفوسة بديوان جابر بن زيد إمام الإباضية الأول من بغداد إلى جبل نفوسة بعد أن استنسخه[5] من النسخة الفريدة

---

1 الجرجاني: التعريفات، تحقيق: إبراهيم الابواري، دار الريان للتراث، مصر، 1403هـ، ص87.

2 - استعان الإمام عبد الوهاب بن رستم بإباضية جبل نفوس ليرسلوا إليه جيشا من أربعمائة فرد لمحاربة الواصلية مقسمين إلى مائة فقيه ومائة مفسر، ومائة مبارز، ومائة متكلم، فأرسل إليه إباضية الجبل أربعة أفراد بدلا من الأربعمائة واخبروه بأن كل واحد منهم قد تكفل بمائة وهو العلامة المتكلم مهدي النفوسي، والمفسر محمد بن يانس، والفقيه أبو الحسن الابدلائي، والفارس الشجاع أيوب بن العباس (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 1021، النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 170.)

3 - أبو زكريا: نفس المصدر ، ص 103، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 58.

4 - ابن خلدون: المقدمة، ص 441، انظر أيضا: حسين سعيد: الموسوعة الثقافية، ص 386.

5 - كان للخلاف بين نفاث والإمام أفلح بن عبد الوهاب والذي سبق ذكره، ما جعل نفاث يأخذ ماله ومتاعه ويرحل إلى المشرق حيث استقر بمدينة بغداد عند صديق له إلى أن طرأت على الخليفة العباس التي (لم تتطرق المصادر إلى ذكر اسمه على حد علمنا) مسألة علمية نعذر في حلها هو وعلمائه فنادى في أسواق البلاد بأن من يجيبه إلى هذه المسألة له ما يطلب ، وبالفعل توجه نفاث إلى الخليفة وأجاب مسألته مقابل استنساخ ديوان جابر بن زيد، وهي النسخة الوحيدة النادرة الموجودة بخزانة كتب بغداد، فوعده الخليفة بذلك، مع غضب وزرائه وأتباعه اللذين ظلوا وراء الخليفة إلى أن أوغروا صدره على نفاث فندم الخليفة على وعده له وأخذ في تعجيزه عن عملية إتمام نسخ الديوان بأن منحه يوما وليلة لإتمام النسخ، ففطن نفاث = لهذه المكيدة وأدرك أن المسألة دبرت عقب خروجه من عند الخليفة، فوافق نفاث على شرطه واشترى ما يكفيه من الأقلام والأوراق والأحبار ونادى في البلاد بأن من يأتي لينسخ معه في الديوان له دينار ومن يملي عليه له تصف دينار، فاجتمع له خلق كثير، وشرعوا في الكتابة حتى الليل وقبل انتهاء وقت هؤلاء نادى منادي نفاث مرة أخرى بأن من يكتب هذه الليلة له ديناران ومن يملي عليه دينار واحد، وما طلعت عليهم الشمس إلا وتم له نسخ تسعة أجزاء وبقي جزء واحد منعه الخليفة من نسخه لانتهاء الوقت المحدد لنفاث، فطلب منه نفاث أن يتصفحه مرة واحدة ويرده إليه فما أن قرأه إلا وقد

الموجودة آنذاك بخزانة العباسيين[1] ولما كان جابر أحد التابعين، والتقى بسبعين صحابيا وحوى ما عندهم من علم فضلا عما أخذه عن عبد الله بن عباس وعائشة أم المؤمنين وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين، فإن ديوانه على ما يبدو من الحديث،[2] ومع هذا فإن ديوان جابر يعد من المفقودات لأن نفاث قد دفنه اثر وصوله جبل نفوسة حتى لا ينتفع به أهل المذهب نتيجة للخلاف الذي كان بينه وبين الإمام عبد الوهاب.[3]

كما جاء اهتمام إباضية جبل نفوسة بالحديث ممثلة في شخص عمروس بن فتح النفوس أحد علماء القرن الثالث الهجري عندما عزم على أن يفرز بين مسائل النص ومسائل السنة ورأى المسلمين، وإرجاع كل مسألة إلى الأصول الثلاثة[4] وإن هذا العزم الذي أراد عمروس تحقيقه ما هو إلا فرز للعلوم ومصادر التشريع في الإسلام، بحيث أن عمروسا لو قدر له وضع كتب في وجه من الأوجه المذكورة، لوضع للحديث.[5]

(جـ)- الفقه: هو معرفة الحلال والحرام واستخراج الأحكام من أصولها الشرعية، أو على حد قول ابن خلدون "هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، بالوجوب والحظر والندب والكراهية والإباحة، وهي متلقاه من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه".[6] ومن خلال المقارنة بالتعريف السابق تبين أن الفتية بجبل نفوسة بلغت مبلغا كبيرا حتى قيل أن جبل نفوسه فشى فيه العلم حتى أنها لا تحتاج فيها دار إلى أخرى في العلم،[7] ولذلك صب إباضية جبل نفوسة جل عناياتهم بهذا العلم وهو ما أطلق عليهم اسم الفقهاء ومنهم ابن مغطير الجناوني الذي اخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بالبصرة قبل حملة العلم إلى المغرب فضلا على أنه كان شيخا فقيها مفتيا إمتد به العمر

حفظه، فأراد وزراء الخليفة أن ينزعوا من الديوان عن طريق إرسال أحد أتباعهم لقتله، ولكن نفاث فطن إلى ذلك وحاد عن الطريق المعروف إلى بلاد المغرب وأخذ طريقا آخر وصل إلى جبل نفوسة، ولم يظهر هذا الديوان بل دفنه في مكان لا يعرفه أحد، حتى لا ينتفع به إلا هو وبذلك لم تستفد به خزانة نفوسة أو مكتبة المعصومة بتاهرت (أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 145-138، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 82-77، الشماخي: السير/ ج1، ص 184، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 267-263).

1 - أبو زكريا: نفس المصدر، ص 145، الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 184.

2 - سالم السيأبو: إزالة الوعثاء عن أتباع أبو الشعثاء، ص 19-18.

3 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 145، الشماخي: السير، ج1، ص 184.

4 - الدرجيني: طبقات المشائخ، ج2، ص 321.

5 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 307.

6 - المقدمة، ص 445.

7 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 230.

حتى عاصر الإمام عبد الوهاب وحضر مجلسه عندما مكث بالجبل سبعة أعوام، وهناك رواية تدل على مكانته وقدره عند الإمام إذ لم يفت الإمام ثلاثة أيام في أمر متخاصمين منتظرا قدوم ابن مغطير ليبث في الأمر[1] ومن مشائخ إباضية جبل نفوسة أيضا خاصة من علماء الطبقة الخامسة، (200-250هـ) أبو زكريا التوكيتي "كان علما لكل الفضائل ومعلما لكل ناهل".[2] وقيل أن رجلا من إباضية المشرق زار الجبل ثم توجه إلى تاهرت، فسألوه عن علمائه فقال لهم: الجبل هو أبو زكرياء، وأبو زكرياء هو الجبل".[3] ويكفي دليلا على غزارة علمه أنه اختير من جميع مشايخ نفوسة في وقت امتلأ فيه الجبل بالعلم والعلماء،[4] وهو ما قال عنه الإمام عبد الوهاب عندما رفض أبو عبيدة الجناوني ولايته على الجبل معللا ذلك بضعفه، فقال له الإمام: "إن كنت ضعيفا في العلم فعليك بأبي زكرياء التوكيتي".[5]

وكان ضمن الفقهاء المعاصرين لأبي زكرياء أبي مرداس مهاصر السدراتي الذي كان شديدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان يتبع الأمراء بأمرهم وينهاهم ويشير عليهم، ونستند في ذلك إلى إحدى زياراته إلى تاهرت حين سمع رجلا يدعو أخر إلى الحق، فلم يجب دعوته وأعرض عنه، فجاء أبو مرداس إلى دار الإمام وأخذ يضرب بابها بالحجارة ويقول: "بهله[6] الله اليوم على من سكن هذه البلدة" فقال رجل للإمام: "كيف نحن وهذه التي ينكر أبو مرداس، فقال نحن في وسطها إذا لم نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر،[7] وكان أبو مرداس عالما بأحكام الدماء، قيل أن الإمام عبد الوهاب قال له يوما سبعين وجها تحل بها دماء الموحدين، فأوقفه أبو مرداس قائلا: "ما أين"؟ منكرا عليه ذلك،[8] ومما يدل على عظيم علم أبي مرداس ورفعة مكانته لدى الإمام ما رواه الشماخي عن جماعة من المشارقة الذين زاروا المغرب، فقالوا لما رأوا تعظيم الإمام لأبي مرداس "لم يعظم الإمام هذا، فقال حين سمعهم كيف لا أجل من تجله الملائكة"، وطلب منه بعض علماء أهل المشرق أن يجالسهم ليحدثوه، فلما جالسهم قالوا: "لا نعلم أحدا بالمشرق ولا بالمغرب مثل هذا"، وكان مشائخ نفوسة يأتون إلى الإمام فيجلسون بجواره

---

1 - الشماخي: السير: ج1، ص 128، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 27-30.

2 الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 291.

3 - أبو زكريا" سير الأئمة وأخبارهم، ص 125.

4 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 155.

5 - أبو زكريا" المصدر السابق، ص 124.

6 - البهلة: اللعنة (الفيروز آيادي: القاموس المحيط، ص 1253).

7 - الدرجيني: المصدر السابق، ح2، ص 293.

8 - الوسياني: سير أبو الربيع، مخطوط، ورقة 14، الشماخي، السير، ج1، ص 151.

وإذا قدم أبو مرداس قام إليه الإمام[1] ومن فقهاء جبل نفوسة أيضا أبو ميمون الجيطالي الذي كانت له حلقة علم تتحرك معه في ترحاله، وعندما رأته إحدى نساء الجبل لأول مرة استصغرته، فلما رأت حوله التلاميذ يسألونه فيجيبهم، رأته حينئذ أعظمهم، وأطولهم رغم قصر قامته.[2] ومن مشائخ الطبقة الخامسة أيضا أبو محمد عبد الله بن الخير الذي ضرب به المثل في العلم وقيل: "من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشرة عالما مثل عبد الله بن الخير".[3] ولا شك أن هذا المثل يعبر عن منزلة عبد الله بن الخير العلمية، إذ كان لأهمية الكتاب في هذا الوقت مكانة كبيرة بل كان أعز ما يطلب في هذا الزمان الذي ليس من السهل فيه توفير الورق، أو المداد لإعادة نسخ كتاب ضائع.[4] وتلقى عبد الله بن الخير العلم عن إبان بن وسيم الذي كان متساهلا في أحكامه، فأثر عنه قوله "العلماء يقولون إذا النجس توجه من تسعة وتسعين وجها والطهارة من وجه واحد غلبت الطهارة، فما جعل الله علينا في الدين من حرج.[5] وعبد الله بن الخير هو الوحيد الذي نجا مع أبي القاسم البغطوري أحد علماء جبل نفوسة إثر هزيمة مانو يفتيا في النوازل.[6] ومن علماء الطبقة السادسة (250-300هـ) الشيخ أبو معروف ويدران بن جواد الذي كان فقيها في علم المواريث بالجبل حتى أنه أفتى في الميراث وهو على فراش الموت،[7] وبذلك قال ابن خلدون أن الفرائض (أحكام الميراث) وحدها تشكل ثلث العلم، وهو ما نبغ فيه أبو معروف.[8]

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر أن أهل جبل نفوسة لم يكونوا كلهم على المذهب الإباضي وهو ما يظنه البعض، فلا شك أن السواد الأعظم منهم كانوا إباضية، وهذا لا يمنع من وجود مالكين بينهم، وهو ما اخبرنا به ابن الأثير أن نفوسة القبيلة البربرية في بلاد المغرب اشتهرت بالنسبة إليها "أهاب بن مازون النفوسي البربري الفقيه المالكي، سمع الحديث بمصر وكان كثير القراءة وتوفي بالمغرب قبل العشرين والثلاثمائة".[9]

أما عن أهم ما ورد إلينا عن قضاة جبل نفوسة الذين بلغوا درجة عالية في الفقه

1 - الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 152.
2 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 295.
3 - الوسياني : المصدر السابق، ورقة 13.
4 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 319-318.
5 - الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 317، الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 202.
6 - الشماخي: السير، ج1، ص 202، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ج2، ق1، ص 150.
7 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 326.
8 - المقدمة، ص 452.
9 - اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج3، ص 320.

والإفتاء فضلا على أخلاقهم الكريمة أهمهم عمروس بن فتح النفوسي الذي تولى منصب القضاء بجبل نفوسة عهد والي الجبل أبو منصور إلياس النفوسي،[1] ونظرا لقلة المعلومات الواردة إلينا من المصادر الإباضية لا نعرف من تولاه قبله، ولكن ليس من المستبعد أن الولاة قبل عمروس كانوا يجمعون بين الولاية والقضاء وهو الشائع في ذلك الوقت.[2] قد كان له عدة تصانيف في الفقه منها "الأمور التي لا يسع الناس جهلها"،[3] ومنها في الأصول والفروع،[4] ولا أدل على تفوقه وتبحره في العلوم حين كتب إليه أحد أهل فزان[5] يطلبون منه كتاب في الأصول فكتب إلى احدهم كتابه المعروف بالعمروسي، وأرسله إليه، فلما رآه الفزاني وهو الذي وضع كتابين في أصول الكلام قال: "النفوسي أقوى مني".[6]

ولعمروس مواقف قضائية متميزة تدل على سرعة بديهته منها أنه عندما كان جالسا للتقاضي أتاه خصمان فطلب أحدهما وهو المظلوم حقه من الظالم بعد أن بين حجته دون أن يرد خصمه فطلب منه عمروس أن يرد ثلاث مرات فلم يجبه فقام فركضه برجله فقال له جلساؤه: "عجلت يا عمروس فجمع عمروس أصابع يده ثم أطلقها وقال لهم كم هذه؟ فقالوا خمس، قال هذه منكم عجلة إذ أجبتم قبل أن تعدوها ! ثم قال لإلياس إن لم تأذن لي بقتل ثلاثة فخذ خاتمك، قتل مانع الحق، والطاعن في دين الله والدال على عورات المسلمين،[7] وظل عمروسا قاضيا إلى أن استشهد في موقعة مانو سنة 283هـ/896م على يد إبراهيم بن الأغلب.[8] وهناك من تولى القضاء على جبل نفوسة من خارجة مثل محكم الهواري أحد علماء الإباضية بجبل أوراس، فحسنت سيرته بينهم وقضى بأمر الله.[9] ورغم الدرجة العالية الذي وصل إليها إباضية جبل نفوسة في الفقه إلا أنهم كادوا يصلوا إلى الجهل عقب موقعة مانو التي هلك فيها أربعمائة عالم فقيه[10] لولا أبو القاسم البغطوري وعبد الله بن الخير اللذان بقيا يفتيان في الجبل

1- الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 321.
2 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 326.
3 - الوارجلاني: الدليل لأهل العقول، ج2، ص 14، ج3، ص 112.
4 - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 84.
5 - فزان: مدينة كبيرة تقع جنوب جبل نفوسة، وهي من أعمال برقة عن ودان بحوالي 240 كم (البكري: المغرب، ص 13، انظر أيضا: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 74)
6 - الشماخي: السير، ج1، ص 196.
7 - الدرجيني" طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 321.
8 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 195.
9 - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 49.
10 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 157.

ويعلمان أبنائه[1] ولا أدل على ذلك عندما اختلفوا في مسألة قطع رجل السارق، فلم يجدوا فتوى إلا عند الطيب بن خلف بن السمح الذي أفتاهم بقطعها دون العقب، وكان وقتئذ سجينا في الجبل لتمرده على الإمامة فحق له أن يتعجب من أمرهم حيث سجنوه ويسألوه[2] فكان سجنه أخفى عليه ما أصاب علماء نفوسة في مانو ورغم ذلك فلا أحد ينكر مدى ما وصلت إليه الحركة الفقهية بجبل نفوسة.

(د)- <u>المناظرات:</u> لقد كان الإباضية جبل نفوسة باعا طويلا في المناظرات تصديا لظهور بعض الفرق المتمردة على الإمامة الإباضية بداية من ظهور الخلفية ومرورا بالنفاثية الذي تصدى لهم كل من العلامة مهدي النفوسي والعلامة عمروس بن فتح لمكائد رئيس النفاثية (نفاث بن نصر) ومنع انتشار بدعه[3] الغير مفهومة بين أهل الجبل، ولذلك فلما قدما هذان العالمان على نفاث وهو في اجتماعه مع بعض البأس قال "الآن جاء السلوقان اللذان يحرسان الحي من الذئب"،[4] أضف إلى ما سبق مناظرة إباضية جبل نفوسة للواصلية بتاهرت التي اعتبرت أهم مظهر ثقافي في تاريخ الرستميين[5] وإن كان تاريخ هذه المناظرة غير معروفة بالتحديد، إلا أنه يرجع إلى ما قبل حصار طرابلس سنة 196هـ/811م ونستند في ذلك إلى مشاركة العلامة المناظر للواصلية مهدي النفوسي في هذا الحصا حيث قتل أثناءه.[6]

1 - الشماخي: المصدر السابق، ج1، ص 202.
2 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 86-87.
3 - استحدث نفاث بدعا خارجة عن تعاليم المذهب الإباضي بعد أن خرج عن الإمامة الرستمية وأهم بدعه:
أن الله هو الدهر الدائم، ولما سئل عن ذلك قال: هكذا وجدته في الدفتر يعني الكتاب المسمى بهذا الاسم.
إنكاره خطبة الجمعة مدعيا أنها بدعة وضلالة.
إنكاره استعمال الإمام العمال والسعادة، لجباية الحقوق الشرعية، ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا.
أن ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ للأب.
أن المضطر بالجوع لا يمضي بيع ماله، إذا باعه لأجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته.
أن الفقد لا يتحقق إلا فيمن تجاوز البحر.
إن الإمام إذا لم يمنع رغبته من جور الجورة وظلمهم لا يحل له أن يأخذ الحقوق التي جعل الله عليهم لضعفه في الدفاع عنهم.
(أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 141، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 251-252، انظر أيضا: معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ج2، ص 24، صابر طعيمة: الإباضية "عقيدة ومذهبا، ص 58-59، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج2، ص 352.).
4 - الشماخي: السير، ج1، ص 149.
5 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 334.
6 - النفوسي : الأزهار الرياضية، ح2، ص 197.

ولما كانت التجارة من أهم العوامل التي جذبت مختلف الأجناس والمذاهب[1] إلى تاهرت[2] على فيها شأن الواصلية واشتهر فيها كثير من العلماء أهمهم عالم بمنطق اللسان، وحائز قصب السبق في ميادين المناظرة حتى أنه ناظر الإمام عبد الوهاب نفسه فكاد الإمام أن يعجز أمامه عن الجواب،[3] مما جعل الإمام يلجأ إلى إباضية جبل نفوسة مركز فحول العلماء لينصروه على الواصلية فطلب منهم مائة من علماء الكلام العارفين بعقائد الفرق الأخرى وكيفية الرد عليهم[4] فأرسلوا إليه مهدي النفوسي الذي قام مقام هؤلاء المائة[5] لأنه "المقدم في علم الجدال الذي له اليد العليا في البرهان والاستدلال"[6] وهو "المحتج على إمكان الممكن وإستحالة المحال، وعلى الفرق بين الحلال والحرام...الرادع لقيام أهل البدع والضلال"[7] اختاره إباضية جبل نفوسة من بين علمائها ليلبي طلب الإمام عبد الوهاب فقصد تاهرت مع ثلاثة من أصحابه[8] اختص كل واحد في فن من العلم أو المبارزة،[9] وتذكر المصادر الإباضية أنه لما وصل تاهرت كان يغيب لعدة أيام قبل انعقاد المناظرة، فلما سئل عن مكان غيابه، قال "إني رددت إلى مذهب الحق (الإباضية) سبعين عالما من أهل الخلاف"،[10] هذا فضلا عما أطلعه الإمام على المناظرات التي كان يجريها مع الواصلية قبل وصول الوفد النفوسي، وفي أثناء عرض الإمام عبد الوهاب عليه أحداث تلك المناظرات كان مهدي يقول له كلما شعر بحيدة كبيرة في كلام الواصلي ها هنا ذهب لك بالحجة وحاد عن الحجة، فوثق الإمام بفوز مهدي على الفتى الواصلي (لم تسمه المصادر على حد علمنا) الذي لم يقوى عليه أحد.[11]

ولما كان موعد اللقاء والمناظرة تقابل مهدي مع الفتى الواصلي فجرت بينهما بداية وجوه من المناظرة أدركها الناس لم يفلح فيها احدهما على الآخر، ثم دخلا في فنون

1 - منها الصفرية من الخوارج والواصلية من المعتزلة والحنفية من أهل العراق والمالكية (ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، ص 32، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 332-333، مبارك أليلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص 462).
2 - ابن الصغير: نفس المصدر، ص 32.
3 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 102، النفوسي: المصدر السابق، ج2، ص 168.
4 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، ورقة 86.
5 - نفس المصدر، ورقة 87.
6 - الشماخي: السير، ج1، ص 148.
7 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 314-313.
8 - هم محمد بن يانس المفسر، وأبو الحسن الابدلاني الفقيه، وأيوب بن العباس الفارس (الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب ح1، ص 58، النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 170).
9 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 102.
10 - نفس المصدر: ص 106، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 60.
11 - الدرجيني: نفس المصدر، ج1، ص 60.

من العلم لم يفقهها أحد من الناس سوى الإمام عبد الوهاب ثم تعمقوا في المناظرة حتى أصبح كلامهم كصفق الحجر الذي لم يفهمه الإمام فاستوى بعامة الناس، وما أن انتصر مهدي على نظيره الواصلي إلا وهلل الإباضية فرحا لانتصاره.[1]

ولا شك أن هذه المناظرة كانت عالية المستوى، إذ أن الإمام عبد الوهاب نفسه بعلمه الواسع لم يستطع أن يجاري ما كان يدور من كلام بين مهدي النفوسي والفتى الواصلي وإن دل ذلك فإنما يدل على براعة إباضية جبل نفوسة في العلم ومبلغهم فيه، ورغم عدم تطرق المصادر إلى موضوعات هذه المناظرة، إلا أنه من الطبيعي أن تكون موضوعاتها في طبيعة مذهب كل منهما، وما اختلف عن الآخر مع إثبات صحته مثل مسألة الخلود في النار وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهي ما تنفرد به الإباضية من أن من دخل النار يخلد فيها وإن كان موحدا، ومن دخل الجنة لا يخرج منها أبدا. أما شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ينالها أصحاب الكبائر[2] أضف إلى ذلك مسألة القدر وصفات الله تعالى، وطبيعة خلق القرآن وهو ما تميزت به الواصلية.[3] وقد يعوزنا في هذا المجال أن نقدم مختصرا لأهم معتقدات الإباضية فيما يلي:

أن مخالفيهم من المسلمين ومرتكبي الكبائر موحدون وليسوا مشركين.[4]

أن مخالفيهم من المسلمين كفار نعم لا كفر شرك لأنهم لم يكفروا بالله ولكنهم قصروا في حقه.[5]

دماء مخالفيهم حرام, ولا يجوز قتلهم في السر غيله إلا بعد نصب القتال أو إقامة الحجة.[6]

أحلوا مناكحة المسلمين والمخالفين لهم والتوارث معهم.[7]

1 - الدرجيني: نفس المصدر، ج1، ص 60.

2 - الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص 189، البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 120، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح1، ص 68-70، إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 337.

3 - البغدادي: نفس المصدر، ص 131، الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة العربية، تونس، 1320هـ، ح1، ص 22، انظر أيضا: مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2000م، ص 401-403.

4 - الأشعري: المصدر السابق، ص 185، انظر أيضا: السيأبو: اصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج، ص 30.

5 - البغدادي: المصدر السابق، ص 134، انظر أيضا: معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ح2، ص 115، عامر النجار: الإباضية ومدى صلتها بالخوارج، ص 88.

6 - الأشعري: المصدر السابق، ص 185، الشهرستاني: الملل والنحل، ح1، ص 134.

7 - الاسفراييني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكيين، تحقيق كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، 1983، ص 58، البغدادي: المصدر السابق، ص 120، انظر أيضا: عامر النجار: المرجع السابق، ص 88.

الوعد والوعيد لا يتخلفان فمن دخل النار فهو خالد فيها، والمذنب يطهر من ذنوبه بالتوبة ولا يدخل السعيد النار.[1]

نظرتهم في الإمام معتدلة، فلا يشترطون فيه أن يكون قرشيا وإنما ينبغي أن يكون ورعا فاضلا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله.[2]

الإباضية بريئون من أفعال الخوارج.[3]

لا يحل من غنائم المسلمين الذين يحاربون إلا الخيل، والسلاح وكل ما فيه من قوة في الحروب، ويردون الذهب والفضة.[4]

التنزيه المطلق للخالق تبارك وتعالى فهو لا يشبهه شيء وما جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية مما يوهم التشبيه فإنه يؤول بما يعنيه المعنى، ولا يؤدي إلى التشبيه، ويبتعدون كل البعد عن وصفة تعالى ويثبتون له الأسماء الحسني والصفات العليا كما أثبتها لنفسه.[5]

لا يكتمل الإيمان حتى يؤمن المسلم بالقدر خيره وشره، وأن أفعال الإنسان خلق من الله واكتساب من الإنسان، ويبتعدون عن رأي الجبرة، كما يبتعدون عن رأي من يقول أن الإنسان يخلق أفعاله.[6]

(هـ)- الطب.

رغم عدم وفرة المادة التاريخية في هذا المجال إلا أن بعض المصادر الإباضية لم تحرمنا من ذكر بعض الأمراض وطرق علاجها بجبل نفوسة فلما كانت الحاجة أم الاختراع كان من اللازم وجود بعض الأطباء وإن كان اعتمادهم على ما هو متوافر لديهم والمتاح في الطبيعة، فعلى سبيل المثال كانوا يعالجون السعال بحليب ناقة عن طريق تناوله كل صباح وهذا ينطبق على أبو محمد عبد الله بن الخير أحد علماء الجبل الذي مرض بالسعال فأتى إليه أفلح بن العباس بلبن الناقة في كل صباح.[7]

1 - الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص 189، انظر أيضا" مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذهب، ص 136.

2 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح1، ص 64.

3 - عامر النجار: الإباضية ومدى صلتها بالخوارج، ص 81.

4 - الاسفراييني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكيين، ص 58، انظر أيضا: معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ج2، ص 115.

5 - معمر: نفس المرجع، ج2، ص 139.

6 - نفس المرجع، ج2، ص 140، عبد العزيز المصعبي: كتاب الأسر النورانية على المنظومة الرائية، المطبعة البارونية، القاهرة، 1306هـ، 163.

7 - الدرجيني : طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 317، الشماخي: السير، ج1، ص 202.

وذكر الدرجيني عن وجود دواء للعين عند أحد علماء إباضية فزان القاطن ببلاد السودان وكان قد أرسل في طلبه الشيخ أبو معروف ويدران بن جواد[1] وبذلك يكون وجود الدواء مقترنا بوجود المرض ولا سيما أن ما ذكره الدرجيني عن وجود دواء العين وإرسال أبي معروف في طلبه من الشيخ الفزاني في السودان يدل على أن هذا الدواء كان مركبا وأن من تدخل في صنعه أحد العارفين لفنون الطب وبرغم هذا فلم تسعفنا المادة التاريخية عن ذكر بعض أسماء الأطباء في جبل نفوسة.

4 - اللغة في منطقة جبل نفوسة:

ظلت اللغة الأمازيغية هي السائدة بين سكان جبل نفوسة[2] حتى دخول الإسلام فأصبحت اللغة العربية مستخدمة في مجال ضيق, وما زالت اللغة الأمازيغية موجودة بينهم حتى الآن[3]، وعلى سبيل المثال منطقة تاغرمين[4] ومما يدلل على أهمية اللغة الأمازيغية حتى بدايات النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، كتاب النثر الذي كتبه الشيخ مهدي النفوسي للرد على نفاث بن نصر الذي طعن في الإمام أفلح بن عبد الوهاب، واعتقد عقائد اعتبرت عند الإباضية بدعا.

وعلى الرغم من تقدير اللغة العربية في أوساط علماء جبل نفوسة، إلا أن استخدام الشيخ مهدي النفوسي للغة الأمازيغية في كتاباته لا يتناقض مع ذلك وإنما جاء ليصل إلى قوله إلى العامة الذين لا يتقنون اللغة العربية إتقانا تاما فيبتعدون عن بدع نفاث، ونستند في ذلك إلى ما ذكره الدرجيني أثناء ترجمته لمهدي بقوله: " إنما واضعها باللسان البربري ليتناقلها البربر فكالهم بصاعهم لم يطفف ولم يبخس ولم يعد من الألفاظ ما يفهمون، ولا أعرب ولا أغرب بحيث يتوهمون"[5]

وهذا النص إن دل فإنما يدل صراحة على أن الأمازيغ خاصة بجبل نفوسة ما زالوا لم يتقنوا اللغة العربي، في هذا الوقت ولعل يرجع هذا إلى طبيعة الجبل البعيد والمنعزل عن التأثيرات الخارجية وربما لهذا السبب وصفه اليعقوبي في نهاية القرن الثالث الهجري بأن أهله "عجم الألسن".[6]

1 - نفس المصدر: ج2، ص 327.

2 - مصطفى بازامة: ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، ص 64.

3 - مصطفى بازامة: المرجع السابق، ص 64.

4 - تاغرمين: إحدى قرى جبل نفوسة الواقعة على حوافه الشرقية، وبالتحديد شرق وادي الجبل، (معمر الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق 2، ص 212، ليفيتيسكي: تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، ص 128.)

5 - طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 314.

6 - البلدان، ص 135 ، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 343.

ومع هذا بدأت اللغة العربية تستعمل خلال القرن الرابع الهجري,[1] ولم يكن ذلك من فراغ وإنما نتيجة لتمكن الإسلام من نفوس النفوسيين، ولا أدل على استخدام اللغة العربية بإتقان في جبل نفوسة فترة الدراسة من استخدام الولاة لها كأسلوب نثر ونراه في جواب أبي منصور إلياس والي الجبل إلى العباس بن طولون لما خرج من مصر يريد بلاد المغرب سنة 267هـ/880م[2] ردا على كتابه الذي قد أرسله إليه يأمره بالطاعة والانصياع له وإلا حارب أبي منصور واستباح حرماته[3] فغضب أبو منصور من منطق هذه الرسالة ورد عليه قائلا "قل لهذا الغلام إنك اقرب الكافرين مني وأولادهم بمجاهدتي، وقد ظهر من قبيح فعلك مالا يمكنني حق التخلف عنك وعن جهادك، وأنا على إثر رسالتي إليك".[4]

إن هذه النماذج من النثر كتبت بأسلوب الرسائل والخطب والمواعظ في صدر الإسلام، وهي تمتاز بإيجاز العبارة وصحة الألفاظ والتسلسل المنطقي وبساطة الخطب، وترك مالا يدخل في الموضوع فضلا عن جمال الأسلوب وقوته البلاغية,[5] وهو ما ينطبق أيضا على رسائل الإمام أفلح إلى نفاث,[6] ومن خلال ما سبق يتبين أن اللغة العربية بدأت مستخدمة من قبل الولاة.

5 - المرأة النفوسية ودورها في الحياة الفكرية.

كان للمرأة دور في كافة مجالات الحياة داخل جبل نفوسة فهي عماد الأسرة في التربية والتوجيه وعمود الأمة في النصيحة لله ولرسوله، وظهيرة الرجل في كفاحه من اجل دينه ووطنه فهي سكنه وملاذه، إن استشارها نصحته، وإن رجع إليها من عنت العمل ومشاق الكفاح غمرته بالمحبة والحنان، ووطأت له كنف المنزل فوجد الراحة لنفسه ولبدنه، وتقوم على شئون البيت قيام العارفة، وتتصرف في مال الزوج تصرف المخلصة الأمينة.[7]

أضف إلى ما سبق أن المرأة كانت الوعاء الحقيقي للإباضية، حملت هذا المذهب بأمانة تدافع عنه وتنشئ الأجيال عليه، فالدارس لكتب سير الإباضية يلاحظ أسماء عديدة

1 - أحمد مختار عمر: النشاط الثقافي في ليبيا، ص 75.

2 - ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص 119 ، انظر أيضا: السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 562.

3 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 121 .

4 - البلوي: سيرة احمد بن طولون، ص 254.

5 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 359.

6 - النفوسي : الأزهار الرياضية، ج2، ص 256-262.

7 - معمر : الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 229.

لنساء برزن في الفقه والعلم وإسداء النصائح للرجال[1] فيذكر الوسياني " أن العلم فشا في الجبل وشاع حتى أن خدمهم وإماءهم إذا خرجن إلى الاستقاء لا يرجعن حتى يذكرن لبنيهم مسائل كتاب ماطوس[2] وفيه ثلاثمائة مسألة ومواعظ كتاب الإخوان.[3]

إن انتشار العلم في أوساط الخدم والإماء لا يدل إلا على تعمقه في الطبقة الأعلى من الأحرار ما دام للخدم نصيب من العلم ينافسون به أصحابهم. ولقد كان الاهتمام بالعلم وكسبه سببا في عتق أمة سودانية تدعى غزالة كانت تخدم مولاها بالنهار، فإذا نام ونام أولاده تذهب إلى مجلس الذكر عند أبي محمد عبد الله بن الخير، فإذا انفض المجلس أخذت في صلاتها حتى آخر الليل ثم توقظ سيدها لصلاة الصبح. ولما علم سيدها بحالها اعتقها.[4]

ولعل من الغريب أن تعرف أن المرأة في جبل نفوسة كانت تفتح بيتها للعلماء، يعقدون فيه مجالسهم العلمية كفعل بهلولة إحدى نساء إباضية جبل نفوسة مع أبي ذر إبان بن وسيم، الذي كانت له حلقة درس في منزلها، ويبدو أن هذا قد دام واتصل حتى رغب أبو ذر في الزواج ببهلولة الموصوفة بالصلاح والتقوى في دينها، وسألها يوما بعد زواجه لها عن النساء اللائي يحضرن مجلسه للعلم فلما أخبرتها أمرها بالزيادة في الزيت والفتيلة.[5]

إن مجرد فتح البيت للشيخ يلقي فيه دروسه يعبر عن المستوى الرفيع الذي بلغه الاهتمام بالعلم في جبل نفوسة، ليس فقط من طرف الحاكم أو الرجل وإنما إلى جانبهما المرأة التي اهتمت دوما بمعرفة فقه مذهبها وأمور دينها، كما أن هناك إشارات في النصوص التي نقلناها كلها على عقد حلقات الدروس للنساء ليلا، ولا نعرف السبب في ذلك ولعله يرجع إلى انشغال المرأة نهارا في بيتها وتدبيره[6] فضلا على أنها كانت لا تستحي في دينها من أن تسأل في مسائل فقهية حرجة مثل مسائل الحيض وهي ما سألته إحدى النساء لوالدها فقال لها " ألا تستحي مني يا بنيتي فقالت له خفت أن استحييت منك أن يمقتني الله يوم القيامة"[7] وهذا يدل على أن جهل المرأة بأمور دينها

1 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 377.

2 - ماطوس: واحد من علماء إباضية جبل نفوسة استشهد في موقعة مانو سنة 283هـ/896م (الشماخي: السير ج1، ص 226.)

3 - سير أبو الربيع، ورقة 22-21، ولا نعرف عن كتاب الإخوان شيئا لم يذكر إلا عند الوسياني.

4 - البغطوري : سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 101.

5 - البغطوري : سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 100، الشماخي، السير، ج1، ص 186.

6 - إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية، ص 379.

7 - الوسياني: سير أبو الربيع، مخطوط، ورقة 17.

يعتبر منقصه في الدين ولذلك اشتهر جبل نفوسة بتفقه المرأة في دينها ولعل ابرز مثال على ذلك عندما استشار أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني عجوزا نفوسية تدعى (مارن) إحدى المتفقهات في المذهب الإباضي، عن أمر تقليده لولاية الجبل من قبل الإمام عبد الوهاب، حيث كان أبو عبيدة رافضا لهذه الولاية فأقنعته بولاية الجبل طالما لم يوجد من هو أفضل منه يتولاها غيره بالجبل،[1] وذلك على حد قولها له " هل كان في جماعة نفوسة من هو أفضل منك وأحزم، فقال أما في أمور الرجال فلا، قالت: ادخل إذا في أمور المسلمين لئلا يفسخ الله عظامك في نار جهنم!"[2] وبذلك اخذ أبو عبيدة بنصيحتها وتقلد أمور المسلمين بجبل نفوسة فكانت نهاية خلف وتمرده على يديه.

ولعل أخت عمروس (قاضي جبل نفوسة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري) تعتبر مثالا يحتذي للمرأة من الناحية الثقافية، فكانت الساعد الأساسي لأخيها في انتساخ مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخرساني حيث كانت تملي عليه وعمروس يكتب حتى أتم نسخ الكتاب كله وهو يقع في اثني عشر جزءا،[3] وكانت أخت عمروس عالمة فقيهة أفتت لنساء وقعن في أسر الأغالبة في وقعة مانو 283هـ/896م بما يحفظ لهن شرفهن ودينهن وكانت إحدى الأسيرات[4].

وما يدل على قوة حفظ النساء وسرعته بجبل نفوسة أن أم يحي إحدى نساء إباضية جبل نفوسة حفظت ثمانين بيتا من الشعر سمعتها لأول مرة عن رجل أندلسي أثناء إنشادها حين كان في طريقه إلى الحج،[5] واشتهرت نساء نفوسة بكثرة الحج , حتى قيل أن ركبا واحدا وضعت فيه ثلاثمائة امرأة مولودا ذكرا فضلا عن النساء اللائي لم يلدن أو وضعن إناثا.[6]

كانت هذه هي مكانة المرأة الإباضية بجبل نفوسة التي وصفت بالعالمية الفقهية والروعة الناصحة بل أنها تفوقت على الرجل في بعض الأحيان، والحقيقة أن المطلع على سير الإباضية يمكنه أن يكتشف أكثر من هذا في دور المرأة الإباضية خاصة بجبل نفوسة.[7]

1 - الشماخي: السير، ج1، ص 158، انظر أيضا: معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 90.

2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 125.

3 - الوسياني : سير أبو الربيع، ورقة 3.

4 - أبو زكريا: المصدر السابق، ص 157.

5 - البغطوري، سيرة أهل نفوسة، ورقة 32.

6 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ح2، ص 325.

7 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق2، ص 229.

6 - العلاقات الثقافية:

للعلاقات الثقافية دور كبير في إثراء الحياة الفكرية، إذ لا يمكن لأي دولة مهما كانت مستقلة بفكر معين لديها دون أن تتأثر بالفكر الخارجي المحيط بها أو تؤثر فيه،[1] وهو ما وجدناه في علاقات إباضية جبل نفوسة بأقطار العالم الإسلامي المختلفة سواء كانت بلاد المغرب والأندلس والسودان أو بلاد المشرق عامة فإذا كان الإباضية قد طردوا مرارا من القيروان، خاصة عقب مقتل أبي الخطاب المعافري وقبل تأسيس الإمامة الرستمية بتاهرت،[2] فإن أعدادا كبيرة منهم رغم ذلك كانت تسكن العاصمة الأغلبية خاصة من أهل نفوسة لاقتراب جبلهم من القيروان[3] هذا بالإضافة إلى وجود أكثر من خمسمائة رجل نفوسي من بينهم العلماء والفقهاء كأبي عمرو حفصون النفوسي الفقيه العالم الناقد، ومقتل بن عبد الله الذي كانت له حلقاته العلمية في منزل أبي الأزهر يحضرها رجال من هوارة وزناتة، وكانوا في سبع منازل فضلا عن كثرة مساجدهم.[4]

كما كثر وجود الإباضية بسجلماسة اغلبهم من العامة، ومع ذلك فإن السير الإباضية تشير إلى وجود علماء لها في هذه المدينة كابن الجمع[5] الذي كان غزير العلم، استوطن سجلماسة ودرس بها وكان من ابرز تلاميذه بها أبو الربيع سليمان ابن زرقون النفوسي[6] الذي بلغ على يد أستاذه ابن الجمع من العلوم ما لم يبلغه كثير ممن في عصره، ونال إعجاب شيخه لدرجة أنه لما توفي أوصى له بجميع كتبه، واستمرت سجلماسة في اتصال بأبي الربيع حتى بعد مغادرته لها، إذ من ابرز مظاهر العلاقة الثقافية معها ما كان من استفتاء أهلها لأبي الربيع في مسألة كادوا يقتتلون من اجلها فلما أفتى لهم رجعوا إلى صوابهم واصطلحوا فيما بينهم[7]

ولا شك أن جبل نفوسة كان من أهم المعابر الأندلسية إلى بلاد المشرق ونورد ذلك بما ذكره البغطوري من أن إحدى نساء إباضية جبل نفوسة حفظت ثمانين بيتا من الشعر

---

1 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 382.

2 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب ج1، ص 34-35، 39-40، انظر أيضا: إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 383.

3 - محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص 188.

4 - الشماخي: السير، ج1، ص 222-223، انظر أيضا: بحاز: المرجع السابق، ص 383.

5 - ابن الجمع: من علماء المشرق وتجارها الأغنياء، نزل توزر وبقي فيها مدة من الزمن ثم رحل إلى سجلماسة واستقر بها (أبو بكر زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 193-194).

6 - من علماء إباضية جبل نفوسة وينتمي إلى طبقة السابعة (300-350هـ) (الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص 349-351).

7 - لم يذكر أبو زكريا ما هي هذه المسألة (سير الأئمة وأخبارهم، ص 194).

بمجرد سماعها من أحد رجال الأندلس عند إنشائها وهو في طريقه إلى الحج،[1] ومن البديهي أن تكون العلاقات الثقافية بين إباضية جبل نفوسة والأندلس قد أخذت شكلا واسعا أكثر من هذا، ولكن ما تحت أيدينا من مادة تاريخية شحيحة لتوضيح ذلك.

كذلك لم تكن للعلاقات التجارية الواسعة التي مرت بنا في التجارة بين إباضية جبل نفوسة وبلاد السودان تمر دون أن تخلف آثارا ثقافية هامة أهمها نشر الدين الإسلامي الحنيف في هذه البلاد،[2] وهو ما أكده الشماخي في الترجمة التي عقدها لأبو عبيده عبد الحميد الجناوني حيث ذكر أن أبو عبد الله كان يتردد على بلاد الكانم تاجرا فتعلم لغة البلاد وهذا دليل على انتشار الإسلام في السودان في وقت مبكر عن طريق إباضية جبل نفوسة[3] نستند في ذلك إلى رواية أخرى للشماخي في ترجمته لأبي يحي بن أبي القاسم الفرسطائي، من يتامى موقعة مانو قتل أباه فيها سنة 283هـ/896م.

وكانت لأبي يحي رحلة إلى بلاد السودان، التقى فيها بأحد ملوكها، وكان نحيل الجسم ضعيف القوى مريضا، فدعاه إلى الدخول في الإسلام بقوله "فما زلت أذكره نعمة الله وآلائه حتى اسلم وحسن إسلامه، وقد أعطى قوة"[4] والجدير بالذكر أنه لا شيء من أن إسلام هذا الملك كان له أثر كبير في نفوس رعيته ما دام "الناس على دين ملوكهم".[5]

ومما سبق يتبين أن لإباضية جبل نفوسة فضل السبق في نشر الإسلام في جزء من تلك البلاد النائية، فوضعوا البذور الأولى لحركة انتشار هذا الدين في بلاد السودان.[6]

ولقد برزت العلاقات الثقافية أيضا بين إباضية جبل نفوسة وإباضية المشرق قديمة منذ بداية دخول المذهب الإباضي واستقراره بجبل نفوسة على يد الداعي للمذهب ببلاد المغرب سلمة بن سعد ابرز تلاميذ أبي عبيده مسلم بن أبي كريمة منذ نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري وبالتحديد بعد عام 95هـ/713م[7] الذي استطاع فيه

---

1 - سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 32.

2 - عبد الهادي التازي: الصلات التاريخية بين المغرب وعمان، محاضرة ضمن حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان 1986م، المجلد الثالث، ص 300.

3 - السير، ج1، ص 160، انظر أيضا: أمين الطيب، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1997م، ج2، ص 383.

4 - السير، ج2، ص 8، انظر أيضا: على حامد الطيف: المركز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2003م، ص 145.

5 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 388.

6 - عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 11.

7 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 35.

سلمه بن سعد أن يكسب أنصارا كثيرة أخذ يعلمهم تعاليم المذهب الإباضي توطئة لانتشاره ببلاد المغرب.[1] بل أخذ في إرسال ما سموا بحملة العلم إلى البصرة لينهلوا العلم من منبعه الصافي على يد أبي عبيده مسلم بن أبي كريمة.[2] ولما لم يمتد الأجل طويلا بسلمة بن سعد خلفه في دعوته وحل محله ابن مغطير النفوسي الذي اتصل بابي عبيده مسلم بن أبي كريمة فأخذ عنه العلم.[3] ومن القرائن الأخرى التي تعكس الاتصالات عبر المراسلات وهي ما ذكرته المصادر الإباضية بشأن الخلاف الذي وقع بين إباضية جبل نفوسة حول قضية قتل الحارث بن تليد. وعبد الجبار بن قيس المرادي. فاتجه أمرهم إلى استشارة إباضية البصرة. وكتبوا رسالة إلى الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بهذا الشأن. فرد عليهم بعدم ذكرهما والسكوت عنهم إذ لم تثبت البينة.[4] وتتضح العلاقات الثقافية أكثر بين إباضية البصرة وإباضية جبل نفوسة. عندما استطاع عمر بن يمكتن أن يتفقه في تعاليم الإسلام ويحفظ القرآن الكريم عن طريق الالتقاء بقوافل علماء المشرق أثناء مرورهم على طريق مغدامس. فكان عمر يكتب عنهم لوحة من القرآن ثم ينصرف فإذا حفظها رجع إلى المكان نفسه وكتب عن الفوج الذي يعقبه حتى حفظ القرآن كله بهذه الطريقة.[5] وتستمر هذه العلاقات زمن الإمام عبد الوهاب أثناء مروره بجبل نفوسة في طريقه للحج. فاعترضته إباضية جبل نفوسة وعلمائهم خوفا عليه من غدر العباسيين. ولما رأوا إلحاح إمامهم في الطلب أشاروا عليه أن يستشير علماء أهل المشرق. فأرسل الإمام رجلا نفوسيا إلى الربيع بن حبيب وابن عباد المصري وهو المقدم في عصرهما في الفقه الإباضي. فأجابه الربيع بأن يرسل من ينوبه في الحج لأن من شروط الحج أمان الطريق الذي لا يتوفر لدى الإمام. وهو ما أقره ابن عباد.[6] كذلك ما يرويه الشماخي "أن مشايخ نفوسة يقبلون على الإمام عبد الوهاب فيجلسون إليه حين كان في الجبل. فإذا قدم أبو مرداس مهاصر السدراتي أحد علمائهم قام إليه الإمام وكان قصيرا. فقال رجل من أهل المشرق" لم يعظم الإمام هذا "فقال حين سمعه "كيف لا أجل من تجله الملائكة" وطلبوا أهل المشرق من الإمام أن يجالسهم معه فلما جلسوا مع أبي مرداس وتحدثوا إليه في أمور العلم قالوا "لا نعلم أحدا بالمشرق ولا بالمغرب مثل

---

1 - السيد سالم: المغرب الكبير، ج2، ص 535.

2 - البغطوري: سيرة أهل نفوسة، مخطوط، ورقة 4.

3 - معمر: الإباضية في موكب التاريخ، ح2، ق1، ص 27.

4 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 24، الشماخي: السير، ج1، ص 114.

5 - الشماخي : نفس المصدر، ج1، ص 127، انظر أيضا: احمد مختار: النشاط الثقافي في ليبيا، ص 133.

6 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 115، الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص 66، انظر أيضا: نخبة من الباحثين: عمان في التاريخ، دار إميل، لندن، 1995م، ص 221.

هذا الرجل".[1] ومما سبق نرى مدى تبادل العلاقات بين إباضية جبل نفوسة والبصرة عن طريق وجود كل منهما في موطن الآخر مما كان له اكبر الأثر في توطيد هذه العلاقات وإثرائها. ويدخل ضمن هذه العلاقات أيضا زيارة العالم الخراساني أبي غانم بشر بن غانم لجبل نفوسة وهو في طريقه إلى تاهرت. وترك مدونته المشهورة (مدونة أبي غانم) عند عمروس بن فتح النفوسي الذي قام بنسخها والاستفادة منها.[2] ومن الطبيعي أن تأخذ هذه العلاقات بين هاتين المنطقتين منحى أكثر من هذا خاصة أثناء موسم الحج. كما كان لبغداد أيضا نصيب كبير في هذه العلاقات برزت في زيارة نفاث بن نصر النفوسي إلى بغداد. حيث كان لهذه الزيارة ثمار ثقافية طيبة باستنساخه ديوان جابر بن زيد الازدي وهي النسخة الوحيدة في خزانة العباسيين[3] ورغم ذلك فلم ينتفع به الإباضية بالمغرب لأن نفاث أتى به إلى جبل نفوسة ودفنه في مكان لا يعلم به أحد. ويعلل أبو زكريا ذلك قائلا "وهذا كله حسد وبغي وسوء عاقبة".[4]

ثم جاءت ثمار هذه العلاقات مع عمان حين قامت الإمامة الإباضية في عمان[5] سنة 177هـ/793م حلت عمان محل البصرة في ربط إباضية المشرق بإباضية المغرب. وأصبح الإباضية العمانيون يتولون أمر المغرب من عمان نفسها بدلا من البصرة.[6] ولذا يعتبر ابن مغطير النفوسي أول مغربي حط الرحال بين رحاب العمانيين بالبصرة وبين جبل نفوسة خاصة وبلاد المغرب عامة.[7] وبذلك كانت رحلة ابن مغطير مقدمة لرحلات المغاربة نحو عمان والبصرة والمشرق الإسلامي عموما طلبا للمزيد من العلم.[8] وتشير المصادر الإباضية إلى أهمية الحج كوسيلة هامة ربطت المغرب بالمشرق خاصة أن إباضية جبل نفوسة الذين اشتهروا بكثرة الحج حيث كانوا يحجون بنسائهم وذراريهم حتى قيل أنه

---

1 - السير، ج1، ص 152، انظر أيضا: نخبة من الباحثين: نفس المرجع، ص 222.

2 - الوسياني: سير أبو الربيع ، مخطوط، ورقة 3.

3 - النفوسي: الأزهار الرياضية، ج2، ص 264.

4 - سير الأئمة وأخبارهم، ص 146-145.

5 - بعد القضاء على أول إمامة إباضية بعمان سنة 132هـ/749م عن طريق قتل إمامها الجلندي بن مسعود على يد القائد العباس خازم بن خزيمة التميمي، عاد الإباضية إلى إعلان ثورة جديدة سنة 177هـ/893م على يد إمامهم محمد بن أبو عفان وتأسست ثاني إمامة إباضية بعمان والتي قدر لها أن تكون سببا في استمرار الإمامة الإباضية حتى الآن. (الشماخي: السير، ج1، ص 109، انظر أيضا: محمد قرقش: عمان والحركة الإباضية، ص 244، عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص 132-130.)

6 - عبد الهادي التازي: الصلات التاريخية بين المغرب وعنان، ص 302.

7 - صالح الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني، ص 199، إبراهيم بوتشيش: العلاقات الثقافية بين عمان وبلاد المغرب (من الفتح الإسلامي حتى القرن الثامن الهجري) مقال ضمن المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، الكويت، عدد 70، ص 16.

8 - إبراهيم بوتشيش: نفس المرجع، ص 17.

ولد لهم في ركب واحد ثلاثمائة مولود ذكر، فضلا عن المواليد من الإناث أو النساء اللاتي لم يلدن أو عدد الرجال المرافقين لهذه النسوة.[1] ولذا فمن البديهي أن يزيد لقاء العمانيين بإباضية جبل نفوسة في موسم الحج من تدعيم أواصر التواصل الفكري إذ أن عددا من العلماء الإباضية كانوا يخصصوا حلقات البحث والمناظرة في مكة أو المدينة قبل الحج وأثناءه وبعده.[2] فكان لأبن محبوب دارا بمكة وله ضيافات تسمى مضارب محبوب بمنى أيام الحج، فيها مورد حجاج عمان وجماعتهم[3] ينقاد المغاربة عليها ليستفتونهم في القضايا المذهبية والدينية الشائكة.[4] وابرز مثال على ذلك أن عمروس بن فتح النفوسي قد توجه هو وأصحابه إلى بلاد المشرق حجاجا فلما نزلوا مكة وجدوه أبو عبد الله محمد بن محبوب رأس علماء الإباضية آن ذاك فدخلوا عليه في مجلسه فوجدوه مع أصحابه فسلموا عليه وجلسوا بجواره. فلما جلسوا في مقاعد المذاكرة سأل عمروس أبا عبد الله عن مسألة فقال ابن محبوب "إن كان أبو حفص في شيء من هذه البلاد فلا يصدر هذا السؤال إلا عنه ولا يرد إلا منه" فقالوا له "إنه هو السائل" فرفع ابن محبوب مجلس عمروس لما عرفه، وزاد دنوه في مجلسه ثم جعل عمروس سأل في مسائل الدماء عن مسألة بعد مسألة حتى قال له ابن محبوب "هذا من مكنون العلم لا يعلن به في قوم جهال" فعند ذلك قال عمروس لأصحابه "أحفظوا السؤال وأحفظ لكم الجواب حتى نقدم على إخواننا فنخبرهم بما حفظنا" ففعلوا ما اتفقوا عليه ولكن بمجرد وصولهم جبل نفوسة نسوا ما حفظوا، واستطاع عمروس إعادتها مسألة مسألة عن آخرها.[5] وتوضح هذه الحادثة غزارة علم القطبين والتلاقي الحضاري المتواصل بين إباضية جبل نفوسة وإباضية عمان والمشرق عامة، وأن المسائل الفقهية هي التي كانت متداولة في مجالس العلماء.[6] فقد شغف إباضية جبل نفوسة بكتب إخوانهم العمانيين وإباضية المشرق عامة في هذا السياق يذكر الشماخي في ترجمته لأبي العباس احمد بن بكر قائلا "وكان جبل نفوسة ديوانا اشتمل على تآليف كثيرة فلازمت الدرس أربعة أشهر لا أنام إلا في ما بين أذان الصبح إلى صلاة الفجر، فتأملت ما فيه من تآليف أهل المشرق فإذا هي تقرب من ثلاثة وثلاثين ألف جزء، كلها لأهل المذهب، فتخيرت أكثرها فائدة فقرأته

1 - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 325، الشماخي: السير، ج1، ص 195.
2 - الشماخي: نفس المصدر، ج1، ص 145-148، انظر أيضا: إبراهيم بوتشيش: المرجع السابق، ص 14.
3 - نخبة من الباحثين: عمان في التاريخ، ص 223.
4 - إبراهيم بوتشيش: المرجع السابق، ص 14.
5 - الوسياني: سير أبو الربيع، مخطوط، ورقة5، الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، ج2، ص 324، الشماخي: السير، ج1، ص 193-194.
6 - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ص 392.

"وهو نص غزير المعنى يعكس مدى كثرة المؤلفات العمانية بجبل نفوسة.[1] ونلتمس كثرة وفود المشارقة على جبل نفوسة من زيارة أحد رجالهم إليه وهو في طريقه إلى تاهرت فما أن وصل هناك إلا وسألوه أهلها عن علماء جبل نفوسة فقال "الجبل هو أبو زكريا، وأبو زكريا هو الجبل".[2] والمقصود بابي زكريا هنا هو أبو زكريا التوكيتي الذي اتصف بعلمه وورعه مما جعل الإمام عبد الوهاب يجعله مرجعا لأبي عبيده والي الجبل في أي مسألة تختلط عليه.[3]



1 - السير، ج2، ص 90، انظر أيضا: إبراهيم بوتشيش: العلاقات الثقافية، ص 26.
2 - أبو زكريا: سير الأئمة وأخبارهم، ص 125.
3 - أبو زكريا: نفس المصدر، ص 124.


الخاتمة

التمهيد

(جبل نفوسة والجذور التاريخية للفرقة الإباضية).

يتضح من هذا التمهيد أهمية موقع جبل نفوسة الجغرافي على مر العصور ضد الكوارث الطبيعية، والاقتصادية، والسياسية منذ العصر الحجري الحديث، مرورا بالعصر الفينيقي ثم الروماني حتى الفتح الإسلامي له، مما جعله موطنا لكثير من القبائل الأمازيغية التي انصهرت تدريجيا داخل قبيلة نفوسة، وابتعدت عن الساحل، تاركين أهم مدنهم "صبراته"، مع مجيء العرب الغازين كانت نفوسة قد تمركزت في جبلها، ونظرا لأهمية مكانتها بين القبائل آنذاك، اتجه عمرو بن العاص إلى محاولة التفاهم معها لتكون أحد دعائمه على انتشار الإسلام في هذه المنطقة، إلى أن تم له ذلك بفتح جبل نفوسة سنة 23هـ/643م.

وبفتح جبل نفوسة انتهت مرحلة الغزو العربي الأول لافريقية، كما تبين من خلال عرض الجذور التاريخية للفرقة الإباضية التي تتفق بوجه عام مع أهل السنة، لذا يعتبر المذهب الإباضي خامس المذاهب الأربعة في المغرب حيث كان أول ظهوره سنة 64هـ/683م على يد عبد الله بن إباض التميمي، ولذا انتسب إليه، وهو الذي نقم على فرق الخوارج الأخرى كالأزارقة، والصفرية، والنجدات، وانشق عنهم بعد اشتراكهم سويا في الدفاع عن مكة ضد جيش يزيد بن معاوية، نظرا لما أظهروه من مبادئ خارجه عن تعاليم الإسلام، ولم يقبل الإباضية في بداية أمرهم تسميتهم بهذا الاسم بل سموا "بجماعة المسلمين" أو "أهل الدعوة"، ولكنهم قبلوه في عهد الخليفة عمر بن العزيز نظرا لسماحته، ومؤسس المذهب الحقيقي جابر بن زيد الازدي، إلا أنه عملا بمبدأ الكتمان آثر إخفاء أمره، وأسنده إلى تلميذ عبد الله بن إباض التميمي، الذي ينتمي إلى قبيلة "تميم" أكبر قبائل البصرة آنذاك.

الفصل الأول (الدور السياسي لإباضية جبل نفوسة حتى سنة 144هـ/761م)

ومنه تبين أنه على الرغم من اتساع رقعة المذهب الإباضي في البصرة والعراق، فيبدوا أن التجليات الحضارية، والسياسية للإباضية لم تتحقق بهذا الشكل الكبير من الثراء، والفاعلية مثلما تحققت بمنطقة جبل نفوسة، وما حولها لذا أصبح جبل

نفوسة أرضا بكرا لانتشار المذهب الإباضي ببلاد المغرب. في حين كان للسياسة الخاطئة التي استخدمها عمال الدولة الأموية مع الأمازيغ، وعدم إقرارهم المساواة بينهم وفقا لقواعد الإسلام التي جاءوا بها أكبر الأثر في اعتناقهم المذهب الإباضي المعتدل، ومن هنا شكل أوائل القرن الثاني الهجري البدايات الحقيقية لانتشار المذهب الإباضي بجبل نفوسة على يد الداعي الإباضي سلمة بن سعد ابرز تلاميذ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة رأس المذهب في البصرة آنذاك.

ولقد تبين لنا أيضا مدى ذكاء الداعية سلمة بن سعد، وحنكته السياسية، والجغرافية التي وصلته إلى الاستقرار بمنطقة جبل نفوسة نظرا لوعورة تضاريسه، فضلا عن بعد جبل نفوسة عن السلطة المركزية الحاكمة للأمويين في المشرق ثم العباسيين فيما بعد وبذلك أصبح جبل نفوسة منطقة استقرار للإباضية، ومركزا أساسيا في ميدان الصراع بين الأمازيغ، وجند الخلافة، ولذا فمنه انطلقت أول بعثة علمية لتعلم المذهب الإباضي في بلاد المغرب، ممثلة في ابن مغطير الجناوني أحد أبناء الجبل، وخليفة سلمة بن سعد بعد وفاته في الدعوة للمذهب بجبل نفوسة، ومنذ ذلك الحين أصبح جبل نفوسة دار هجرة للمذهب الإباضي في بلاد المغرب، وأصبح المركز الرئيسي التي انتقلت منه أشعة المذهب الإباضي إلى القبائل الأخرى مثل هوارة، ولماية، وزناتة، وسدراته، وزواغة، ولواتة، وبذلك كان اعتناق الأمازيغ للإباضية أحد أسباب مناوأة العرب الغازين، والثورة في وجوههم في هذه المنطقة.

كما تبين لنا أيضا أن نجاح حركات الصفرية في المغرب الأقصى كما رأينا آنفا قد أغرى إباضية المغرب الأدنى في جبل نفوسة، وضواحي طرابلس بالتعجيل للقيام بثورات مماثلة قبل أن يتهيؤا لها أو تتوافر الظروف المناسبة التي تساعد على إنجاحها، كان أهمها ثورة عبد الله بن مسعود التجيبي ثم تلاها ثورة الحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي أعقبهم ثورة إسماعيل بن زياد النفوسي، ومع أنها منيت جمعها بالفشل، ولقي قادتها حتفهم على يد الولاة الأمويين، فقد كللت إحدى ثوراتهم بالنجاح على يد أول إمام إباضي لهم بالمعنى الصحيح أبي الخطاب بن السمح المعافري وبه تكونت أول إمامة إباضية في المغرب تمركزت في جبل نفوسة سنة 140هـ/758م، واستمرت أربع سنوات ظهر فيها مدى حب الإباضية لتطبيق مبادئ الإسلام عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاتسعت حدود دولتهم حتى صارت طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس، ومن البحر شمالا إلى الصحراء الكبرى بما فيها فزان جنوبا منضوية تحت إمامة أبي الخطاب إلى أن قتل على يد القائد العباسي محمد بن الأشعث سنة 144هـ/761م، وكان

ذلك نتيجة اعتماد أبي الخطاب على جيش كله مكون من متطوعي الإباضية المجاهدين في سبيل إظهار دعوتهم دون أن تجرى لهم أعطيات، أو أرزاق، أو رواتب ثابتة تجعلهم منقطعين لهذا العمل العسكري، وإنما كان جل اعتمادهم على حصاد زرعهم التي تزايد مع حرب ابن الأشعث لهم، وهو ما جعلهم يتركون حربه متجهين لجمع محصولهم أساس معيشتهم بعد أن انطلت عليهم الحيلة.

الفصل الثاني (الدور السياسي الإباضية جبل نفوسة حتى سنة 196هـ/812م).

وفيه توصلت إلى أنه لم يبرز أي دور سياسي لإباضية جبل نفوسة خلال إمامة عمر ميمون المتولي إبان مقتل أبي الخطاب المعافري والتي استمرت إمامته عشر سنوات هي بمثابة مرحلة لألتقاط الأنفاس واستجماع القوة والمنعة اللازمة لاستعادة مقاليد الأمور في الجبل الأمر الذي دفعهم إلى مبايعة أبي حاتم الملزوزي واليا عليهم سنة 154هـ/770م، متبعين في ذلك مبدأ الكتمان، وهذا المبدأ دائما ما يتبعه الإباضية عموما عند بداية تعيين إمام جديد عليهم أثناء ضعفهم، حتى يقوى أمرهم، فارتقوا به إلى مرحلة الظهور، بإعلانه إماما عليهم.

ولقد تبين لنا حقيقة هامة أيضا خلال إمامة أبي حاتم الملزوزي، ألا وهي أن عنصر الخيانة قد شكل أثرا فعالا طوال إمامته أودت به إلى الهلاك، وقد برز ذلك مرتين.

المرة الأولى: عقب استيلائه على القيروان التي لم يهنأ بها طويلا نتيجة خيانة عمرو بن عثمان أحد أتباعه من صفوف الإباضية، الذين كانوا قد اشتركوا معه أثناء حصارها، فأنشق عنه، وانضم إلى صفوف العباسيين، وقتل كل من كان على ولائه حاتم الملزوزي وهو ما جعله بفقد القيروان.

المرة الثانية: خيانة أحد رجال نفوسة، ويدعى عمر بن مطكود النفوسي، بتقديم أغلى نصائحه إلى القائد العباسي يزيد بن حاتم ألمهلبي، بأن يستند بجبل جندوبه المنيع، ليقي به ظهره، خوفا من مهاجمة نفوسة الإباضية له من ورائه، إذا وقعت المعركة، وهو ما نجم عنه هزيمة أبي حاتم الملزوزي بجبل نفوسة سنة 155هـ/771م على يد يزيد بن حاتم، ولذلك انتقلت قيادة الحركة الثورية من إباضية جبل نفوسة إلى إباضية تاهرت عقب مقتل أبي حاتم وأصبحوا هم المعنيون بتعيين ولاة جبل نفوسة التي أصبح تابعا لهم.

ولقد تبينت الصفة العسكرية الهامة لإباضية جبل نفوسة بالنسبة للرستميين عن غيرهم من رعاياهم، تمثلت في قول الإمام عبد الوهاب بن رستم "إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة، وأموال مزانة"، فضلا عن أهمية فرسان نفوسة التي ذاعت شهرتهم

في المغرب، أبرزهم الفارس المغوار أيوب بن العباس، الذي هزم فرسان الواصلية، مما جعلهم يرضخوا، ويستكينوا لطاعة الإمام الإباضي عبد الوهاب بن رستم.

كما برزت أهمية جبل نفوسة كمحطة إستراتيجية هامة يمر من خلالها حجاج بلاد المغرب والأندلس، وهو ما رأيناه من وجود أحد الحجاج الأندلسيين بجبل نفوسة أثناء طريقه للحج، فضلا عن نزول الإمام عبد الوهاب بن رستم عليه أثناء طريقه للحج، فمنعه إباضية جبل نفوسة خوفا عليه من غدر العباسيين له، وقتله، فأرسلوا أحد رجالهم ليحج عنه، بعد استشارة علماء إباضية المشرق، مما جعل الإمام عبد الوهاب يستقر في جبل نفوسة سبع سنوات استطاع خلالها أن يعقد صلحا مع الأغالبة بعد حصاره لهم مع إباضية جبل نفوسة، بل واتسعت حدود دولته بموجب هذا الصلح، فكان الساحل كله من جنوب صفاقس إلى خليج سرت للدولة الرستمية.

الفصل الثالث: (الدور السياسي لإباضية جبل نفوسة حتى نهاية القرن الثالث الهجري)

وفيه اتضح دور إباضية جبل نفوسة في اختيار ولاتهم على الجبل رغم تبعيتهم للدولة الرستمية، حيث كان الأئمة الإباضية في تاهرت يرسلون إلى إباضية الجبل فيمن يختارون واليا عليهم وهو ما نتج عنه ظهور بعض الفرق الخارجة عن الإمامة الرستمية في تاهرت، منها الخلفية التي خرجت عن الإمام عبد الوهاب بن رستم إبان موت والي جبل نفوسة السمح بن أبي الخطاب المعافري، نتيجة لعدم إقراره لولاية خلف بن السمح رأس الفرقة الخلفية الذي ارتضاه إباضية أهل الجبل عليهم إخلاصا وحبا لوالده وهو ما حدث مع النفاثية: تلك الفرقة التي انتسبت إلى نفاث بن نصر النفوسي الذي خرج على الإمام عبد الوهاب أيضا نتيجة لعدم تولية قنطرارة التابعة لجبل نفوسة إبان وفاة واليها أبي يونس النفوسي، وتوليته لولده سعد بن أبي يونس بدلا من والده.

بالإضافة إلى ما سبق لم يكن دور إباضية جبل نفوسة متوقفا على اختيار ولاتهم فحسب، بل امتد ليشمل تعيين بعض الأئمة الرستميين الذين كان من أبرزهم: أبو اليقظان محمد بن أفلح الذي استنجد بهم لإنهاء الحرب الأهلية بتاهرت التي اندلعت بين أفراد محمد بن عرفة من العرب، وبين أبي بكر بن أفلح وأنصاره من الفرس عن طريق الصلح بدلا من سفك الدماء وهو ما حدث بالفعل، كما لم يتقوقع أهمية دور إباضية جبل نفوسة على نفسه فحسب، أو حتى الإمامة الرستمية بتاهرت، بل امتد ليشمل منطقة الشمال الإفريقي كلها خاصة الدولة الأغلبية التي استعانت بهم في القضاء

على أقوى ثوراتهم ممثلة في ثورة منصور الطنبذي سنة 210هـ/825م، فضلا عن أهمية دور إباضية جبل نفوسة تحت إمرة منصور إلياس النفوسي في إيقاف توغل العباس بن أحمد بن طولون سنة 267هـ/880م الثائر على والده في المشرق، وهزيمته ثم إخراجه إلى برقة، في حين لم يستطع الأغالبة ذلك وفي هذه المعركة تبين مدى تورع إباضية جبل نفوسة عن أموال العباس بن احمد بن طولون عقب هزيمته في الوقت الذي انتهبها الأغالبة.

وتبين لنا أيضا أنه لولا سوء تصرف أفلح بن العباس والي جبل نفوسة في موقعة مانو سنة 283هـ/896م ما انهزم إباضية جبل نفوسة، وذلك نتيجة إصدار أوامره باستمرار القتال بين أتباعه والأغالبة رغم عدم تكافؤ قواتهم مع قوات الأغالبة، هذا بالإضافة إلى أمره بتثبيت راية إباضية جبل نفوسة حتى لا يتركوا القتال، وهو ما جعلهم يسرعوا بالالتفاف حولها للدفاع عنها فأصبحت مذبحة في صفوفهم، إلى أن أدرك احد أهل البصائر من إباضية الجبل خطورة ذلك، واسقط الراية بضربة من سيفه وفر الناجيين إلى جبلهم.

وعلى الرغم من ذلك ظل جبل نفوسة الملاذ الأول، والأخير للإباضية في المغرب بعد وارجلان إبان هزيمتهم في موقعة مانو وعقب انتهاء الإمامة الإباضية الرستمية.

الفصل الرابع (بعض مظاهر الحضارة عند إباضية جبل نفوسة)

ومن خلال هذا الفصل تبين مدى أهمية الجانب الحضاري لإباضية جبل نفوسة سواء كان على المستوى الاقتصادي أو الفكري وهو ما أثر بدوره على الجانب الاجتماعي خاصة في مستوى معيشة أهل الجبل.

لذا فعلى الرغم من وعورة منطقة جبل نفوسة، وصعوبة مسالكه إلا أنه قامت به نهضة زراعية كبيرة تمثلت في محاصيل عدة أهمها الحبوب والقمح والشعير الذي كان ألذ طعما من الحنطة، فضلا عن زراعة الزيتون التي ذاعت سمعته مما زاد الطلب عليه كمحصول تصدير رئيسي خاصة إلى مدينة الإسكندرية المصرية، وقامت إلى جانب زراعة الحبوب زراعة الفواكه أيضا كالتين والكروم والرمان وغيرها، كما شكلت حرفة الرعي بجبل نفوسة أهمية كبيرة ترتب عنها تربية الحيوانات بمختلف أنواعها، لذا فكان من الطبيعي أن تزدهر الصناعة اعتمادا على الزراعة فقامت صناعة استخراج الزيت من الزيتون وصناعة دبغ الجلود اعتمادا على الماشية هذا بالإضافة إلى قيام صناعة النسيج والصباغة، وصناعة الأخشاب وغيرها من الصناعات الأخرى، وترتب على كل ما سبق

أهمية وجود حركة تجارية لبيع هذه السلع في الأسواق الداخلية أو الخارجية فظهر نوعان من البيع، وهما: البيع بالمقايضة والبيع بالنقد مما تطلب وجود عملة إباضية بجبل نفوسة ظهرت بظهور أول إمامة إباضية بالجبل على يد أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري سنة 140هـ/757م.

وبازدهار الحركة التجارية في جبل نفوسة تطلب ذلك أيضا أنواع من المكاييل أهمها الخروبة أشهر مكاييل جبل نفوسة، و"الكر" المساوي "للمد" الذي كان مكيال الرسول صلى الله عليه وسلم لذا جاءت أهمية دور المحتسب في الأسواق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومتابعة المكاييل.

كذلك كانت لحركة الزراعة والصناعة والتجارة أثر كبير في ثراء بعض إباضية جبل نفوسة إلى حدود فاقت نصاب الزكاة وظهور الصدقات بشكل متسع وهو ما أدى إلى ضرورة وجود بيت مال للمسلمين في جبل نفوسة أو تاهرت لتلقي أموال الزكاة أو الخراج، حتى يكون هناك توازن بين الفقراء والأغنياء من إباضية الجبل.

كما برزت أهمية الجانب الاقتصادي لإباضية جبل نفوسة وظهرت أيضا أهمية الجانب الفكري لهم والذي كان له أثره الكبير والفعال على إباضية تاهرت نظرا لسعة علمهم وتفقههم في أمور دينهم خاصة في علم التفسير والحديث والفقه، وهو ما تبين أثناء المناظرة الفكرية التي عقدها الإمام عبد الوهاب بن رستم بين الإباضية والواصلية بتاهرت.

لذلك ظهرت أهمية إباضية جبل نفوسة في حماية الدولة الرستمية الإباضية ضد أعدائهم المذهبيين، لذا تواجدت المؤسسات التعليمية اللازمة للتعليم كالكتاب أو المنزل والمسجد فضلا عن وجود المكتبات الخاصة بعلماء إباضية جبل نفوسة التي كان لها دور كبير في تخريج العديد من العلماء.

كذلك اتضحت أهمية دور المرأة النفوسية في الحياة الفكرية والعلمية فهي عماد الأسرة في التربية والتوجيه فضلا عن أنها كانت ظهيرة الرجل في كفاحه من أجل دينه ووطنه، بل فتحت أبواب بيتها لتجعله منبرا للعلم والعلماء، مثال ذلك العالمة الجليلة "بهلولة" النفوسية وهو ما كشف عن المستوى العلمي والاجتماعي الرفيع الذي بلغته المرأة بالجبل، كما تبين عقد هذه الحلقات العلمية خاصة للنساء ليلا نظرا لانشغالهم نهارا بأمور دنياهم وتدبير أحوال منازلهم.

كذلك تبين أثر المرأة الفكري والثقافي في التأثير على حياة الرجل وترى ذلك في إقناع العالمة "مارن" والي جبل نفوسة أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني بولاية الجبل خشية تحمل أوزار المسلمين طالما لم يوجد من أجدر منه بالولاية.

ولقد تبين لنا أيضا مدى أهمية موقع جبل نفوسة الاستراتيجي في توطد علاقاته سواء كانت تجارية أو ثقافية على مختلف أقطار العالم الإسلامي بداية ببلاد المغرب والأندلس ثم السودان وبلاد المشرق أيضا، وهو ما نجم عنه نهضة حضارية شاملة كان لها أثر فكري واقتصادي واجتماعي على أهل الجبل والمغرب بصفة عامة.


قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية المخطوطة:

- أبو غانم الخرساني: (ت في ق 2 هـ):

1 - مدونة أبي غانم، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 21582 ب.

- البغطوري: (مقرين محمد البغطوري النفوسي (توفي أواخر القرن السادس الهجري):

2 - سيرة أهل نفوسة، مخطوط حصل عليه الباحث من احد أصدقائه من مكتبة احمد الفساطوي، بجبل نفوسة.

- البرادي: (أبو القاسم بن إبراهيم (ت: 697هـ/1297م):

3 - الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبي العباس الدرجيني، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 8456ح.

- الازكوي: (سرحان بن سعيد):

4 - كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 12968ح.

- الجيطالي: (إسماعيل بن موسى (ت: 750هـ/1349م):

5 - شرح قواعد الإسلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 67، 22ب.

- الرقيشي (أحمد بن عبد الله (توفي القرن العاشر الهجري):

6 - مصباح الظلام، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 20549 ب.

الوسياني: (سير أبي الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان (ت 471هـ/1078م)

7 - سيرة أبي الربيع الوسياني، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 9113ح.

- مجهول:

8 - قطعة من كتاب الأديان والفرق، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 22298 ب.

ثانيا: المصادر العربية المطبوعة:

1 - القرآن الكريم

- ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت. 1110هـ/1698م):

2 - المؤنس في أخبار افريقية وتونس، دار المسيرة بيروت، 1993م.

- ابن أبي زرع (أبو الحسن بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (ت. 720هـ/1320م):

3 - الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، 1972م.

- ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد (ت 630هـ/1232م):

4 - الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965م، الأجزاء (5، 6، 7).

5 - اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج 3.

- ابن الصغير المالكي -عاش في القرن الثالث الهجري):

6 - أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق، د.محمد ناصر وآخرون، بدون دار نشر، الجزائر، 1985م.

- ابن حزم (علي بن احمد بن سعيد (ت. 456هـ/1063م):

7 - جمهرة انساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1971م.

- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت. 367هـ/977م):

8 - صورة الأرض، الفاروق، القاهرة، د.ت

- ابن خرداذبه (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت. حوالي 300هـ/912م):

9 - المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت. 808هـ/1405م).

10 - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- تعليق تركي فرحان، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1999م، ج6.

11 - مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت-لبنان، 1986م.

ابن رستة (أبي علي احمد بن عمر (ت. أوائل القرن الرابع اهجري).

12 - الأعلاق النفسية، تحقيق المكتبة الجغرافية العربية، مطبعة بريل، ليدن، 1967م، مجلد 7.

- ابن سعيد (أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت. 685هـ/1286م).

13 - بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق د.جوان قرنيط وآخرون، مطبعة كريمادايس، تطوان-المغرب، 1958م.

14 - الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري، بيروت، 1971م.

- ابن سيفاو (أبو ساكن عامر بن علي بن سيفاو).

15 - كتاب الإيضاح، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1983م، ج1.

- ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الحكم بن أعين (ت. 258هـ/870م).

16 - فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1961م، ج1.

- ابن عبد ربه (احمد بن محمد (ت. 328هـ/939م):

17 - العقد الفريد، تحقيق، مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983م، ج1.

- ابن عذاري المراكشي (ت. نهاية القرن السابع الهجري):

18 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان واليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1983م.

- ابن عساكر (علي بن حسن (ت. 581هـ/1175م):

19 - تاريخ دمشق، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج5.

- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم (ت. 276هـ/889م):

20 - المعارف، تحقيق د.ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، 1969م.

- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت. 711هـ/1311م):

21 - لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت-ج7.

- ابن وردان:

22 - تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق د.محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م

- أبو زكريا (يحي بن أبي بكر (ت. النصف الثاني من القرن الرابع الهجري):

23 - سير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريا، تحقيق: إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1982م.

- أبي الحسن الحكيم (علي بن يوسف الحكيم(كان حيا سنة 768هـ/1366م):

24 - الدوحة المشتبكة في دار السكة، تحقيق د/حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة-1986م.

- إسماعيل البغدادي (ت. 739هـ/1338م):

25 - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على محمد، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 1957م، ج3.

- الإدريسي (الشريف محمد الإدريسي (ت. 558هـ/1162م).

26 - نزهة في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م المجلد الأول.

- الاسفراييني (أبو المظفر (ت. 471هـ/1078م):

27 - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، 1983م.

- الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت. 330هـ/941م):

28 - مقالات الإسلامية واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1969م، ج1.

- الاصطخري (أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي):

29 - مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1937م.

- الأصفهاني (الحافظ أبي نعيم احمد بن عبد الله (ت. 430هـ/1038م):

30 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1996م، ج3.

- الأنصاري (احمد بن الحسين النائب):

31 - نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تعليق د.محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م.

32 - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، القاهرة، 1961م.

الباجي المسعودي (أبو عبد الله محمد (ت. 1253هـ/ 1837م):

33 - الخلاصة النقية في أمراء افريقية، مطبعة بيكار يونس، ليبيا، 1323هـ.

- البرزلي (أبي القاسم البرزلي القيرواني (ت. 844هـ/1440م):

34 - فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل بالمفتين والحكام، تحقيق د.محمد الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م.

- البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت. 429هـ/1037م):

35 - الفرق بين الفرق، تحقيق، محمد محي الدين، دار التراث، القاهرة، د.ت

- البكري (أبي عبيدة عبد الله بن عبد العزيز (ت. 487هـ/1094م):

36 - المغرب في ذكرى بلاد افريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت

- البلاذري (احمد يحي (ت. 279هـ/892م):

37 - فتوح البلدان، تحقيق عبد الله الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987م.

البلوري (أبي محمد عبد الله بن محمد المديني (ت. حوالي منتصف القرن الرابع الهجري):

38 - سيرة احمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت

- التجاني (عبد الله بن محمد بن احمد (ت. 717هـ/1317م):

39 - رحلة التجاني تونس-طرابلس 706-708هـ. قدمها حسن حسني عبد الوهاب. الدار العربية للكتاب. ليبيا-تونس. 1982م.

- الجربي (محمد أبوراس (ت. 1222هـ/1807م):

40 - مؤنس الأحبة في أخبار جربة. تحقيق محمد المرزوقي. المطبعة الرسمية. تونس. 1960م.

- الجرجاني (علي بن محمد بن علي (ت. 816هـ/1413م):

41 - كتاب التعريفات. تحقيق إبراهيم الابياري. دار الريان للتراث. مصر. 1403هـ

- الجناوني (أبو زكريا يحي بن أبي الخير):

42 - كتاب الوضع مختصر في الأصول والفقه. تعليق إبراهيم اطفيش. مطبعة الفجالة. القاهرة. د.ت.

- الجيطالي (أبو طاهر إسماعيل بن موسى (ت. 750هـ/1349م):

43 - قناطر الخيرات. تحقيق عمرو النامي. مكتبة وهبه. القاهرة. 1965م.

- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله (كان حيا حتى سنة 866هـ/1461م)

44 - الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق د.احسان عباس. دار السراج. بيروت. د.ت

- الخشني (محمد بن حارث بن الأسد (ت 361هـ/971م):

45 - قضاة قرطبة وعلماء افريقية. تصحيح السيد عزت. مكتبة الخانجي. القاهرة. 1994م

- الدباغ:

46 - معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. المطبعة العربية. تونس. 1320هـ. ج1.

- الدرجيني (أبو العباس احمد (ت. القرن السابع الهجري):

47 - طبقات المشائخ بالمغرب. تحقيق. إبراهيم طلاي. البليدة. الجزائر. 1974م. ج1. ج2.

- الدينوري (أبي حنيفة احمد بن داود (ت. 282هـ/895م):

48 - الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر. الإدارة العامة للثقافة. القاهرة. 1959م.

- الذهبي (محمد بن احمد (ت. 741هـ/1340م):

49 - سير أعلام النبلاء. تحقيق محب الدين العمروي. دار الفكر بيروت-لبنان. 1997م.

- الرقيق (إبراهيم بن القاسم القيرواني (ت. القرن الخامس الهجري):

50 - تاريخ افريقية والمغرب. تحقيق المنجي الكعبي. مطبعة الوسط. تونس. 1968م.

- الزهري (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (ت. القرن السادس الهجري):

51 - كتاب الجغرافيا. تحقيق محمد حاج. مكتبة الثقافة. بورسعيد. د.ت.

- السلاوي (أبو العباس احمد بن خالد بن محمد (ت. 1315هـ/1897م):

52 - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: أ/جعفر الناصري وآخرون. دار الكتاب. الدار البيضاء. 1954م. ج1.

- السويدي (أبو الفوز محمد أمين البغدادي):

53 - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب. دار الكتب العلمية. بيروت-لبنان. 1987م.

54 - السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان. تحقيق د.سيدة كاشف. وزارة التراث القومي والثقافة. سلطنة عمان. 1986م.

- الشماخي (احمد بن سعيد عد الواحد (ت. 928هـ/1521م):

55 - مقدمة التوحيد وشروحها. تعليق. إبراهيم اطفيش. القاهرة. 1353هـ.

56 - كتاب السير. تحقيق: احمد السيابي. وزارة التراث القومي والثقافة. عمان. 1987م.

- الشهرستاني(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أي بكر (ت. 548هـ/1153م):

57 - الملل والنحل. تحقيق محمد كيلاني. مطبعة الحلبي. القاهرة. د.ت.

- الصنهاجي (أبي عبد الله محمد):

58 - أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م

- الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير (ت. 310هـ/922م):

59 - تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1988م، المجلد الرابع.

- العسقلاني (الحافظ احمد بن علي بن محمد (ت. 852هـ/1448م):

60 - نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق عبد العزيز السديدي، مكتبة الرشد للنشر، السعودية، 1989م،ج1.

- العمري (شهاب الدين احمد بن يحي بن فضل الله (ت. 749هـ/1348م):

61 - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب) تحقيق د.حمزة عباس، المجتمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م.

- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب (ت. 811هـ1408م):

62 - القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ.

- القلقشندي (أبو العباس احمد (ت. 821هـ/1418م):

63 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق نبيل الخطيب، بيروت-لبنان، د.ت، ج5.

64 - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د.ت

- الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف (ت. 35هـ/961م):

65 - ولاة مصر، تحقيق، د.حسين نصار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2001م.

- المالكي أبي بكر عبد الله بن محمد (ت. 438هـ/1046م)

66 - رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البقوش، دار الغرب الإسلامي، 1994م، ج1.

- الماوردي (أبو الحسن بن محمد بن حبيب (ت. 450هـ/1058م):

67 - الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.

- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد (ت. 285هـ/898م):

68 - الكامل في اللغة والأدب، تعليق د.محمد إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ج3.

المزى (الحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف (ت 742هـ/1341م):

69 - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق د.بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، ج4.

- المقدسي (شمس الدين محمد بن احمد (ت. في القرن الرابع الهجري):

70 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، لندن، 1909م.

- المقدسي (مطه بن طاهر (ت. 507هـ/1113م):

71 - البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، مجلد 2، ج5.

- المكناسي (احمد بن القاضي):

72 - جذوة الاقتباس في ذكر من حل الإعلام مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1973م، القسم الأول

- النفوسي (سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي (ت. 1359هـ/1940م):

73 - الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق، محمد الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافي، سلطنة عمان، 1987م، ج2.

- النويري (احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم (ت. 732هـ/1331م):

74 - نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق د.حسن نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1983م، ج24.

- الوارجلاني (أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم (ت. 570هـ/1174م):

75 - الدليل لأهل العقول، المطبعة البارونية، مصر، 1306هـ.

- الوزان (حسن بن محمد الزياتي):

76 - وصف افريقية، ترجمة د.عبد الرحمن حميدة، بدون دار نشر، السعودية، 1399هـ.

- الونشريسي (احمد بن يحي (ت. 914هـ/1508م):

77 - المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج9.

- اليعقوبي (احمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت. 284هـ/897م):

78 - البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1860م

- علي الجزنائي (توفي في أواخر القرن الثامن الهجري):

79 - زهرة الاس في بناء مدينة فاس، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2001م.

- مجهول (توفي في القرن السادس الهجري):

80 - الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق د.سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1982م.

- مجهول:

81 - تاريخ البربر المعروف "بمفاخر البربر"، تحقيق د.محمد زينهم، جهاد للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، الجزء الأول.

- مجهول:

82 - أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق: د.محمد وينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1994م.

- محمود مقديش:

83 - نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1988م، ج1.

- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله (ت. 636هـ/1238م):

84 - معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، دار الكتب، بيروت-لبنان، 1410هـ، ج5.

ثالثا: المراجع العربية:

- إبراهيم العدوي:

1 - تاريخ العالم الإسلامي، مطبعة جامعة القاهرة، 1984م.

- إبراهيم بحاز بكير:

2 - الدولة الرستمية أوضاعها الاقتصادية والفكرية، بدون دار نشر، بغداد، 1983م.

- إتوري روسي:

3 - ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة خليفة التليسي، الدار العربية، طرابلس 1973.

-إحسان عباس:

4 - تاريخ ليبيا في كتب التاريخ والسير، دار صادر، بيروت، 1968م.

تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري، دار ليبيا، بنغازي، 1967م.

- إسماعيل كمالي:

6 - سكان طرابلس الغرب، تعليق حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1989م.

- احمد أمين:

7 - ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1945م.

أحمد حجازي السقا:

8 - الخوارج الحروريون، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1980م.

- احمد مختار العبادي:

-9 التاريخ العباسي الفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982م.

- احمد مختار عمر:

10 - النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، مطبعة دار الكتب، بيروت-لبنان، 1971م.

- أمين الطيبي:

11 - دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1997، ج2.

- أنور الرفاعي وآخرون:

12 - المغرب العربي جغرافيا، مكتبة العلوم والآداب، دمشق، 1949م.

- البير نصري نادر:

13 - أهم الفرق الإسلامية السياسية الكلامية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1958م.

- الحبيب الجنحاني:

14 - المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مطابع السياسة، الكويت، 2005م.

- السيد المصري الإباضي:

15 - الهدية الأولى الإسلامي للملوك والأمراء في الداء والدواء، المطبعة البارونية، القاهرة، 1328هـ.

- السيد عبد العزيز سالم:

16 - المغرب الكبير العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ج2.

- الطاهر احمد الزاوي:

17 - تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

18 - ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، دار الفتح، بيروت، 19701م.

- الفرد بل:

19 - الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

- النعمان القاضي:

20 - الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، 1970م.

- بوفيل:

21 - تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة دار الهادي أبو لقمة وآخرون، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م.

- تادايوس ليفيتيسكي:

22 - تمسية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، دراسة لسنيه في الانوميا والطوبونوميا الأمازيغية، ترجمة عبد الله رارو، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، د.ت.

23 - دراسات شمال افريقية، ترجمة احمد بو مزقو، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية، كاليفورنيا-الولايات المتحدة، 2004م، الجزء الأول.

- جاك تيري:

24 - تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى، ترجمة جاد الله الطلحي، الدار الجماهيرية، ليبيا، 2004م.

- جمال مدكور:

25 - موسعة الأديان في العام (الفرق الإسلامية)، دار كريبس، انترناشيونال، القاهرة، د.ت.

- جودة حسنين جودة:

26 - قارة أفريقيا دراسات في الجغرافيا الإقليمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م.

- جودة حسين جودة وآخرون:

27 - جغرافية الدولة الإسلامية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1993م.

- جودت عبد الكريم:

28 - العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

- جورج مارسية:

29 - بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود هيكل، منشة المعارف، الإسكندرية، 1991م، ج1.

- جون رأيت:

30 - تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ترجمة عبد الحفيظ الميار وآخرون، دار الفرجاني، طرابلس-ليبيا، 1972م.

- حسن إبراهيم حسن:

31 - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961م، ج3.

- حسن حسني عبد الوهاب:

32 - ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية، القسم الأول، مكتبة المنار، تونس، 1924م.

- حسن سليمان محمود:

33 - ليبيا بين الماضي والحاضر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1962م.

حسين سعيد:

34 - الموسوعة الثقافية، مطلع دار الشعب، القاهرة-نيويورك، 1972م.

حسين مؤنس:

35 - تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر من القرن السادس إلى القرن التاسع الميلاديين، العصر الحديث، بيروت-لبنان، 1992م، مجلد1، ج1.

36 - فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، د.ت.

37 - معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2004م.

- خليفة محمد التليسي:

38 - معجم سكان ليبيا، دار الريان، ليبيا، 1991م.

- خلي الجر:

39 - معجم لاروس، مكتبة لاروس، باريس، 1973م.

- خير الدين الزركلي:

40 - الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1986م، ج2، 4.

- ربيع بن محمد السعودي:

41 - الشيعة الإمامية ألاثني عشرية في ميزان الإسلام، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1414هـ.

- زامباور:

42 - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجم بعض فصوله د.سيدة كاشف وآخرون، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1951م، ج1.

- سالم بن حمود السيابي:

43 - إزالة الوعثاء عن أتباع أبي الشعثاء، تحقيق د.سيدة كاشف، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1979م.

44 - اصدق المناهج في تمييز الإباضية من الخوارج، تحقيق، د-سيدة كاشف، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 1979م.

- سعد زغلول عبد الحميد:

45 - تاريخ المغرب العربي من افتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا، تونس، والجزائر والمغرب) منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م، ج1، ج2.

46 - هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب دراسة لكتاب السير، بحث ضمن أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، 1979م، ج1.

- سيف بن احمد البوسعيدي:

47 - حملة العلم إلى المغرب ودورهم في الدعوة الإسلامية، منشورات دائرة الوعظ والبحوث الإسلامية، مسقط، 2003م.

- شارل أندري جوليان:

48 - تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وآخرون، الدار التونسية، تونس، 1978من ج2.

- صابر طعيمة:

49 - الإباضية عقيدة ومذهبا، دار الجبل، بيروت، 1986م.

- صالح بن احمد الصوافي:

50 - الإمام جابر بن زيد العماني وآثاره في الدعوة، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1997م.

- صالح مصطفى مفتاح:

51 - ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، 1978م.

- صفاء حافظ عبد الفتاح:

52 - الحركة الإباضية في المدينة المنورة (129-130هـ/746-747م)، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، 1995م.

- عامر النجار:

53 - الإباضية ومدى صلتها الخوارج، دار المعارف، القاهرة، 1993م.

54 - الخوارج عقيدة وفكرا وفلسفة، دار المعارف، القاهرة، 1994م.

55 - في مذاهب الإسلاميين الخوارج(الإباضية-الشيعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005م.

- عبد الجليل الطاهر:

56 - المجتمع الليبي دراسات اجتماعية وانثروبولوجية، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 1969م.

- عبد الرحمن بشير:

57 - اليهود في المغرب العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001م.

- عبد الرحمن سالم:

58 - التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الثقافة، القاهرة، 1989م.

- عبد العزيز المصعبي:

59 - كتاب الأسرار النورانية على المنظومة الرائية، المطبعة البارونية، القاهرة، 1306هـ

- عبد العزيز شرف:

60 - الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، إقليم شمال أفريقيا (ليبيا)، الإدارة العامة للثقافة والنشر، السعودية، 1997م، المجلد التاسع.

- عبد الله الباروني:

61 - رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، القاهرة، 1290هـ.

- عبد المقصود عبد الحميد باشا:

62 - الرستميون صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، وهران، القاهرة، 1989م.

- عبد المنعم ماجد:

63 - التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1982م،ج2.

- عبد الوهاب منصور:

64 - قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1961م، ج1.

- عثمان الكعاك:

65 - موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مكتبة العرب، تونس، 1344هـ.

- عطا أبو رية:

66 - اليهود في ليبيا وتونس والجزائر، دار أتراك، القاهرة، 2005م.

- على حامد الطيف:

67 - المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2003م.

- على محمد الصلابي:

68 - الدولة العبيدية في ليبيا، دار البياق، الأردن، 1998م.

69 - عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، دار البياق، عمان-الأردن، 1998م.

- علي مصطفى المصراتي:

70 - مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم عرض ودراسة، الدار الجماهيرية، طرابلس، 1976م.

علي يحي معمر:

71 - الإباضية في موكب التاريخ، مكتبة وهبه، القاهرة، 1964م.

72 - الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث، وزارة التراث القومي والثقافي سلطنة عمان، 1986م، ج2.

- عوض محمد خليفات:

73 - الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، مطبعة دار الشعب، عمان-الأردن، 1978م.

74 - نشأة الحركة الإباضية، بدون دار نشر، عمان، 1978م.

- فيليب حتى وآخرون:

75 - تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت-لبنان، 195م، ج3.

- لطيفة البكاي:

76 - حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، 37-132هـ: دار الطليعة، بيروت، د.ت.

- مارمول كاربخال:

88 - أفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989م.

- مجموعة من العلماء:

78 - المنجد في الإعلام، دار المشرق، بيروت، 1980م.

- محمد أبو زهرة:

79 - تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996م.

- محمد الرشيد:

80 - الخليج العربي في العصور الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى مطلع العصور الحديثة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1983م.

- محمد الطالبي:

81 - الدولة الأغلبية (184-296هـ/800-909م) التاريخ السياسي، ترجمة د.المنجي الصياد، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1985م.

- محمد الطيب:

82 - موسوعة القبائل العربية بحوث ميدانية وتاريخية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2001م المجلد الثاني.

- محمد بن يوسف اطفيش:

83 - إن لن تعرف الإباضية يا عقبي يا جزائري، تعليق عبد الله السالمي، بدون دار نش، د.ت.

- محمد حسن:

84 - المدينة والبادية بإفريقيا في العهد الحفصي، مطبعة جامعة تونس الأولى، 1999م، ج1.

- محمد سويسي:

85 - أنماط العمران البشري بافريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، مركز النشر الجامعي، القاهرة، 2001م.

- محمد عبد الفتاح عليان:

86 - نشأة الحركة الإباضية في البصرة ومناقشة دعوى تأسيس جابر بن زيد وعلاقتها بالخوارج، دار الهداية، القاهرة، 1994م.

- محمد علي دبوز:

87 - المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1963م، ج2، ج3.

- محمد عيسى الحريري:

88 - مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي (الدولة الرستمية 160-296هـ)، دار القلم، الكويت، 1983م.

محمد مصطفى بازامة:

90 - ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، مؤسسة ناصر، بنغازي، 1972م، ج8، ق1.

- محمد يوسف نجم وآخرون:

-91 ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات، دار ليبيا، بنغازي، 1968م.

- محمود إسماعيل عبد الرازق:

92 - الحركات السرية في الإسلام رؤية عصرية، القاهرة، 1973م.

93 - الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، 1985م.

- محمود شاكر:

94 - الدولة العباسية، المكتب الإسلامي، بيروت، 1991م.

- مصطفى الشكعة:

95 - إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2000م.

- موتيلينسكي:

96 - دائرة المعارف الإسلامية، مادة إباضية، دار الشعب، القاهرة، 1933م.

- نخبة من الباحثين:

97 - عمان في التاريخ، دار إميل، لندن، 1995م.

- وندل فيليبس:

98 - تاريخ عمان، ترجمة محمد عبد الله ذ، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 1981م.

- يسري الجوهري:

99 - جغرافية الشعوب الإسلامية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995م.

- يوليوس فلهوزن:

100 - أحزاب المعارضة الإسلامية الدينية في صدر الإسلام-الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوى، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1958م.

رابعا: الدوريات والأبحاث

- إبراهيم بوتشيش:

1 - العلاقات الثقافية بين عمان وبلاد المغرب (من الفتح الإسلامي حتى القرن الثامن الهجري) مقال ضمن المجلة العربي للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلي، الكويت،2000م، عدد 70.

- داود بن يوسف:

2 - دولة بني يفرن الإباضية بتلمسان، مقال ضمن مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنيطة-الجزائر، 1975م، عدد 26.

- رضوان البارونى:

3 - بحث عن جزيرة جربة التونسية دراسة في التاريخ السياسي والحضاري في العصر الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م.

- سعد زغلول عبد الحميد:

4 - فترة حاسمة من تاريخ المغرب (موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في افريقية ونقلتهم إلى مصر، بحث ضمن مجلة كلية الآداب والتربية في الجامعة الليبية، المطبعة الأهلية، بنغازي، 1958م، المجلد الأول.

- ضيف الزهراني:

5 - دار السكة...نشأتها... أعمالها... إداراتها، مقال ضمن مجلة الدارة، السعودية، 1975م، عدد2.

- عبد الرحمن بشير:

6 - المعتزلة في المغرب الأوسط عصر الدولة المستقلة (140-296هـ/757-908م)، بحث ضمن مجموعة أبحاث دراسات في تاريخ العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2003م.

- عبد الهادي التازي:

7 - الصلات التاريخية بين المغرب وعمان، محاضرة ضمن حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، 1986م، مجلد 3.

- عز الدين موسى:

8 - طريق عبر الصحراء الليبية من المغرب الأقصى إلى مصر في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، مقال ضمن مجلة البحوث التاريخية، 1983م، عدد (1).

-لقبال موسى:

9 - الحركة الخارجية المغربية، مقال ضمن مجلة المجاهد الثقافي، مطبعة المجاهد، بيليس-الجزائر، 1968م، عدد (5).

- محمد بن تاويت:

10 - دولة الرستميين أصحاب تاهرت، بحث ضمن مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1957م، عدد 221.

- محمد حسن:

11 - حول إحدى القبائل البربرية نفوسة، (فضاؤها الجغرافي وعلاقتها بالسلطة المركزية)، مقال ضمن مجلة أوراق، المعهد الثقافي الاسباني العربي، 1982-1983م، عدد (5-7).

- مسعود مزهودي:

12 - العلاقات الثقافية بين إباضية جربة وإباضية المغرب الأوسط في القرنين الرابع والخامس للهجرة، مقال ضمن أعمال الملتقى العلمي الدولي، حوليات الجامعة التونسية في خدمة الثقافة العربية، المطبعة الرسمية، تونس، د.ت، عدد 39.

خامسا: الرسائل الجامعية:

- إحسان محمد عبد الله:

1 - الدولة الرستمية في تاهرت، رسالة ماجستير غير منشورة، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1986م.

- ليلى محمد عبد العظيم:

2 - تاريخ الحركة الإباضية في جزيرة العرب في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، القاهرة، 2000م.

- محمد عبد المولى:

3 - القوى السنية في المغرب من الفتح حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1977م.

- مسعود مزهودي:

4 - الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1988م.

- مصطفى عبد المنعم العمري:

5 - 391-541هـ/1000-

1145م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، 1992م.

- نايف عيد سهيل:

6 - الإباضية في الخليج العربي في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة دكتوراه غير منشورة، دار العلوم، جامعة القاهرة، 1992م.

سادسا: المراجع الأجنبية:

1- Corneirn R. ; Histoire de L’Afrique, paris, 1967.

2- Despais ; Le Djebel (Tripaitaine) Etude Géographique, Paris, 1935.

3- Gauatier, E.F. ; Le Passe de L’Afrique Du nord, paris, 1942.

4- H.Z.J. w, Hirschberg; History of The Jews in North AFrica, Leiden, E.J. Brill, 1974.

5- Norris, H.J. ; The Berbers in Arabic Literature, London; 1980.


الفهرس

1 - أبو حاتم الملزوزي إماما لإباضية جبل نفوسة وثورته في طرابلس

2 - دور إباضية جبل نفوسة وضواحي طرابلس في حصار طبنة

3 - حصار إباضية جبل نفوسة القيروان واستيلائهم عليها

4 - موقف الدولة العباسية من ازدياد نفوذ إباضية جبل نفوسة في افريقية

5 - دور إباضية جبل نفوسة في تدعيم الدولة الإباضية الرستمية في تاهرت

أ- استنجاد عبد الوهاب بن رستم بإباضية جبل نفوسة في حروبه مع الواصلية

ب- عبد الوهاب بن رستم في جبل نفوسة

الفصل الثالث:

الدور السياسي لإباضية جبل نفوسة حتى نهاية القرن الثالث الهجري

1 - عودة الإمام عبد الوهاب إلى تاهرت وخروج خلف بن السمح بن أبي الخطاب

2 - أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني واليا على جبل نفوسة وموقعة اجناون

موقف إباضية جبل نفوسة من ثورة الطنبذي سنة 208هـ/823م

3 - موقعة اجناون (221هـ/836م)

4 - موقعة اجناون (221هـ/836م)

5 - أبو منصور إلياس واليا على جبل نفوسة

6 - أفلح بن العباس واليا على جبل نفوسة وموقعة مانو

7 - جبل نفوسة إبان سقوط الرستميين

الفصل الرابع:

بعض مظاهر الحضارة عند إباضية جبل نفوسة

أولا: الحياة الاقتصادية في جبل نفوسة

1 - الزراعة والحاصلات الزراعية

2 - الصناعة

أ- استخراج الزيت

ب- صناعة دبغ الجلود ومشتقات الألبان

جـ- صناعة النسيج والصباغة

د- صناعة الأواني الفخارية

هـ- صناعة الأخشاب

و- صناعة البناء

3 - التجارة

المسلك الأول: جبل نفوسة-غدامس-تادمكة-كوكو

المسلك الثاني: جبل نفوسة-زويلة-كوار-الكانم

4 - التنظيمات الاقتصادية

أ- نظام ملكية الأرض

ب- موارد بيت المال

ج- المكاييل

د- العملة

هـ- الحسبة

و- مستوى المعيشة

ثانيا: الحياة الفكرية

-1 المؤسسات التعليمية

أ- الكتاب أو المنزل

ب- المسجد

جـ- المكتبات

2 - العلوم

أ- التفسير